رواية

شوساكو أندو

مكتبة

الأَبْلَهُ الرَّائِعُ

ترجمة

فلاح رحيم

دار الرافدين



الأَبلَهُ الرَّائِعُ

الأبله الرائع

شوساكو أندو

ترجمة: فلاح رحيم

Obakasan/Wonderful Fool

By Shusako Endo

Translated by Falah Raheem

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2021 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *الأبله الرائع*، بالإتفاق مع وكالة وايلي، لندن، المملكة المتحدة

This Translation of *Obakasan/Wonderful Fool,* is Published by arrangement with

The Wylie Agency, Lonodon - UK



t.me/soramnqraa



بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
www.daralrafidain.com
dar alrafidain
Dar.alrafidain
@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 643 - 46 - 5

شوساكو أندو



ترجمة

فلاح رحيم



www.daralrafidain.com

الفهرس


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل الأول



سليل نابليون

كان صباح يوم أحد في أواخر آذار. براعم الخوخ المترددة الأولى محاطة بعذوق سبقتها بزهر مكتمل، أما براعم أشجار المغنوليا البيض في الحديقة فقد نتأت وهي تتململ مستعدة للانبثاق. ظلّ تاكاموري ملتماً على نفسه يستمتع بالدفء في فراشه على طريقة السلحفاة حتى رنّ في أذنيه عالياً صوت أخته الصغرى توموي الزاعق تناديه من الأسفل:

ـ إن بقيت في الفراش مدة أطول ستتعفن. الساعة بلغت العاشرة الآن.

ـ أنا على وشك النهوض.

أجاب تاكاموري بصوت حزين وهو يدفع رأسه خارج الأغطية.

ـ هذا ما قلته قبل نصف ساعة.

ـ ها أنا ذا أرتدي ملابسي.

تلك أكذوبة بالطبع. لكن تاكاموري يعلم من تجربته أن لديه بضع دقائق قبل أن تصعد أخته السلم إلى غرفته وتبدأ بانتزاع البطانيات من فراشه.

كان يتعرض صباح كل يوم أحد إلى ثلاث موجات من الهجوم. الأولى بصياحها عليه من مدخل رواق الطابق الأول بصوت يصمّ الآذان. عندها لا يكون قادراً، وهو لا يزال شبه نائم، على تمييز كلماتها. ويمكن مواجهة

الهجمة الأولى هذه برد بسيط مثل «حسناً» و«هه، هه». بعدها تحاول تخويفه، تماما كما تفعل الآن، فتصعد السلم بخطوات ثقيلة مسموعة وهي تكرر النداء. ولكن حتى في هذه الحالة يبقى ثمة هامش للأمان. يمكن أن يجيبها كما يفعل الآن بأنه منهمك في ارتداء ملابسه. لم يكن التأجيل ممكناً هذه المرة بسهولة. كان يعلم أنها تقف الآن جامدة على السلم تشنف أذنيها لالتقاط أي صوت قد يبدر عنه. ناداها متحدياً:

ـ تعالي وانظري إذن. ولكن حذار، لا يستر جسدي خيط واحد. أما إذا كان هذا لا يهمّك...

عندما اطمأن إلى أنه حصل على الأمان فَرَد ذراعيه وساقيه في حركة قوية والتقط سيجارة من علبة إلى جوار السرير. هذا البقاء المترف الذي لا يتاح إلا في أيام العطل هو ما يساعد رجلاً عاملاً مثله على مواجهة بقية أيام الأسبوع.

تاكاموري الذي يعمل ستة أيام في الأسبوع في مصرف يقع في ضاحية أوتاماشي في طوكيو، يرغب يوم الأحد على الأقل في الاستمتاع برفاهية النوم المتأخر. لكن هذه الأخت المزعجة تمثل عقبة يجب مواجهتها. يتكلم الناس عن «أزواج متخاذلين أمام زوجاتهم»، ولكن من سمع عن «أخ متخاذل أمام أخته.»

لم يكن باستطاعته كأعزب أن يتخيل الأهوال التي تنتظره على يد زوجة المستقبل بسهولة، لكنه يعرف تماماً الإحساس بالاضطهاد الذي تثيره فيه أخت واقعة فعلاً.

عندما يبوح له أصحابه العاملون في المصرف من المتزوجين أثناء استراحات الظهيرة بخوفهم من زوجاتهم، كان يتساءل تُرى كم مما يقولون صحيح؟ وكم يعد كلامهم مثالاً على تلك الاستراتيجية القديمة التي يسعى

فيها الأزواج عبر المبالغة إلى تهدئة زوجاتهم وتحييدهن؟ تحمل كل زوجة ابتداءً، مهما بلغت قدرتها على إثارة الرعب أحياناً، إحساساً رقيقاً في أعماق قلبها تجاه زوجها. فهي لابد أن تميل في نهاية المطاف إلى البحث عن مصالحة معه. لكن هذا الأمر لا ينطبق على أخته هذه.

كانت الأخت في تجربة تاكاموري ومنذ طفولته الباكرة حاكماً نصّب نفسه بنفسه والناقد لأخيها. لم تكن عينها اليقظة تخطئ ابسط هفواته أو نواقصه، تهدده «سأخبر بابا عنك» وعيناها الواسعتان السوداوان تبرقان عندما تظفر به أثناء دراسته المتوسطة يحاول أن يسرق نفسه من كتبه ويذهب للعب مع أصدقائه في الحي. وعندما تسلل ذات مرة إلى سطح الدار ليدخن سيجارته الأولى كانت هي من اكتشفه. لم يكن بوسع أي شيء أن يبقيها بعيدة عن التدخل في شؤونه، حتى ولا التهديد بالعنف الجسدي. فهي لم تكد تذرف دمعة حتى في طفولتها مهما فعل بها. لا شيء سوى اللازمة المعتادة «سأخبر بابا عنك»، وما أن يعود الأب إلى المنزل من المكتب حتى تفعل ذلك دون إبطاء، مع مبالغة في نقل الحقائق تصل أبعد الحدود. باختصار كان تاكاموري هو من يدفع الثمن دائماً.

فإذا ما سعى إلى تحويلها عن تهديداتها باستمالتها بكلمات طيبة زاد وضعها سوءاً. يبدو أن النساء يمتلكن منذ الولادة قدرة خاصة على استغلال الرجال الذين يبادروهن الطيبة لصالحهن. وهذه المرأة على أية حال ـ هذا ما تعلمه تاكاموري من تجربته ـ لم تكن من النوع الذي يصح التعامل معه برقة.

كانت مشكلة تاكاموري الأولى تتمثل في اسمه. إذ قرر جده الأستاذ في اللغة الصينية، والذي ولد وترعرع في كاتوشيما، أن حفيده الأول يجب أن ينشأ ليكون رجلاً عظيماً مثل أشهر أبناء كاتوشيما المدعو تاكاموري ساسكو،

ولذلك أصر على منحه هذا الاسم. لكن الاسم وحده لا يخلق واقعاً: لم يكن تاكاموري يحمل أي أثر من صفات سميّه الشهير من قلب وعقل متفتحين. ومن جانب آخر كانت تومويي تحمل كل صفات تومويي كوزن الشخصية التاريخية التي ذُكر في «حكاية هانكي» أنها كانت تستطيع أن تستخدم السيف والقوس ببراعة فائقة جعلتها قادرة على الوقوف بوجه ألف من المحاربين وملاقاة الشيطان نفسه، وكانت واحدة من آخر سبعة اشتركوا في المعركة إلى جانب سيدها يوشيناكو كيو. كانت عنيدة، شرسة، تكره أن تخسر في أي ميدان. باختصار، لقد نشأت على طريقة فتاة اليوم في اليابان.

اعتقد تاكاموري أن أخته تفوق المعدل المتوسط في جمالها. عندما لا تكون غاضبة أو متجهمة، تظهر مزاياها الحسنة، ولكن لا شيء فيها يذكّر المرء بالسيدة اليابانية الكلاسيكية التي يسيل دمعها حين تتطلع إلى النجوم وتتنهد وهي تطيل النظر إلى زهر البنفسج. وبالطبع لم تكن تومويي هكذا دائماً منذ البداية. كانت ترفع وهي الطفلة الصغيرة يديها الصغيرتين الجميلتين ـ لهما لون أوراق القيقب في الخريف ـ إلى تاكاموري الذي يكبرها بستة أعوام وتلاحقه في أرجاء المنزل بساقين مهزوزتين راغبة دائماً أن تكون قربه. لكنها تغيرت فجأة في نقطة معينة لتصبح هذا الإزعاج المتمثل في أخت تدس أنفها في شؤون أخيها. وقد بلغ بها الاستعداد لتوجيه الإهانات حد الإعلان يوماً:

ـ أوه... أعجب هل كل الرجال في العالم يتسمون بما لديك من رخاوة. إذا كان الأمر كذلك فلن أتزوج أبداً.

انتهى تاكاموري أخيراً إلى أن من الأفضل عدم الإجابة عندما تتكلم بهذه الطريقة. لا يشك في تفوقها عليه في شراستها وطاقتها العملية. لقد اتخذت منذ أيام دراستها الجامعية موقف التحسب الدقيق المبكر لكل الاحتمالات،

فكرست نفسها بهمة ودأب لدراسة الإيطالية، وهي لغة لم يكن أحد غيرها يدرسها، وكذلك لدراسة الطباعة والاختزال. وعندما تخرجت كان هنالك فائض من الفتيات اللواتي يعرفن الإنجليزية والفرنسية، أما الإيطالية فكانت شأناً آخر، وهو ما تنبأت به. ولقد أثمرت خطتها على نحو باهر عندما عينتها شركة إيطالية تجارية ودفعت لها ما يساوي مرتب رجل. كانت تحصل في الواقع على نقود تفوق ما يحصل عليه أخوها، وهكذا فحتى في مسالة القوة الاقتصادية لم يكن باستطاعته منافستها.

كان يشغل الفتيات بعمر تومويي عموماً البحث عن الزوج المناسب؛ لكن تومويي، الواقعية جداً التي لم يكن بإمكان النجوم أو أزهار البنفسج ثنيها عن طموحها، لم تحفل كثيراً بالرجال. إذا كان الرجال جميعاً شأن أخيها، لا يُعتمد عليهم ويفتقدون إلى المقدرة العملية، فهي لا ترغبِ في الزواج، على الأقل في الوقت الحاضر. ولم تكن تخفي ذلك. أبدت ازدراء صريحاً تجاه كل الرجال العاملين معها في المكتب وتجاه أصدقاء تاكاموري الذين يزورون البيت. ربما انطوى قلبها على صورة رجل قوي شهم يمكن أن يظهر ذات يوم لينتشلها ويطير بها، ولكنها لم تبلغ من الإفراط في العاطفية أن تكشف ذلك لأخيها.

تعودت التقتير في إنفاق ما تحصل عليه مفضلة أن تستثمره وتراه يتضاعف مرتين أو ثلاث مرات. وبينما اعتادت فتيات الأمس على إيداع مكتسباتهن الإضافية في المصارف أو في حسابات التوفير في أحسن الأحوال، فان فتيات اليوم وجدن متعتهن في البهجة المثيرة الناجمة عن لعبة البورصة وتكويم الأرباح. كانت وهي تجلس أمام تاكاموري عند الفطور كل صباح قبل أن تذهب إلى العمل، لا تعير عمود الاجتماعيات وإعلانات السينما في الصحيفة أي اهتمام، ولا حتى الرواية المسلسلة. انصب جلّ اهتمامها على التقرير الأكثر

عملية المتعلق بتقلبات البورصة. وبينما تاكاموري يراقبها كان يفكر مع نفسه، لابد أن لديها أكداساً من النقود الآن. وهو ما أثار لديه شعوراً بالغيرة والنفور معاً. أي نوع من الرجال ستتخذ زوجاً... أود فقط أن أرى وجهه.

من الأمور التي تدعو إلى الحمد أن الأقوال القديمة تزدحم بالعبارات التي ترفع من شان الرجال وتحط من شان النساء. «اثنان يصعب تربيتهما: البنات والأقزام»، «أيتها السنونوات الصغيرة... كيف يتسنى لكنّ فهم خطط الإوز العظيم؟». بينما تومويي جالسة تدفن رأسها في الصحيفة، يظلّ تاكاموري يجاهد في استعادة هذه الأقوال الشهيرة فيخف إحساسه بالانزعاج بعض الشيء. لكن الحقيقة تبقى ماثلة وهي أن الإوز العظيم يضطر اغلب الأحيان إلى أن يتسوّل القروض من السنونوات الصغيرة، وهي حالة تثير الإحراج. فهو يضطر أن يتسوّل حاطاً من قدره: «تذكري أني أخوك» (لم يستطع أن ينسى أنها تصغره بست سنوات)، لكنها كانت تسكته بصفعة واحدة:

ـ أيها العاطفي المتعفن، ألم أقرضك ألف ين أول أمس؟ لا، لن أقرضك يناً واحداً.

ـ إذن لم يبق أمامي إلا التحمل.

أخيرا يمكن أن تستسلم، ولكن استسلامها لا يكون بالضرورة بدافع حب محمود لأخيها:

ـ حسناً، ولكن عليك أن تدفع عشرة ينات عن كل مئة فائدة كل أسبوع.

ـ هذا أمر غير معقول.

ـ ما هو غير المعقول؟ إن كان ذلك لا يعجبك تستطيع أن تذهب وتستجدي في مكان آخر.

ـ تخيل.. تلزم أخاها بدفع فائدة!

كان يلجأ في نوبات غضبه إلى تلقينها بعض الدروس بين حين وآخر.

ـ لماذا لا تكوني أقرب إلى صفات السيدات؟ إن بقيت على هذا الحال فلن تجدي من يتزوجك أبداً.

ـ هل تعتقد ذلك؟ إذن انتظر وسترى كيف التقط واحداً.

ـ اهدئي لحظة واسمعي. على سبيل المثال...

هنالك شريط سينمائي إيطالي يدعى «لاسترادا»، ولا شك أن توموي قد شاهدته. اعتقد تاكاموري أن لا شريط يمكن أن يكون أكثر نفعا لها منه. فهو يعرض رجلاً يسمى زامبلوني تلح في ملاحقته امرأة تدعى جلسوميبا. مهما ضربها أو رفسها جانباً، مهما أزعجها أو أساء إليها، لم تكن لتتركه قط. أخيراً يهجرها فوق الجبال بينما شمس الشتاء الكئيبة تميل إلى الغروب. لم تكن لتلك المرأة خطط ذكية تدير بها حياتها، لا حساب لربح أو خسارة. ولكن، أي مثال يمكن أن يكون أكثر مدعاة للسخرية منها من وجهة نظر الفتاة اليابانية الحديثة؟ عموماً... روح المعاناة الطويلة هذه هي التي حولتها في النهاية إلى قديسة جميلة. إذا كان قلب المرأة متفوقاً حقاً على قلب الرجل، فان ذلك لا يتأكد إلا في مثل ظروف جلسومينا. توقع بعد أن انتهى من سرده أن يكون قد حرك مشاعرها حد البكاء، فأردف بنبرة حادة:

ـ اسمعي، عليك في هذه الحياة أن تقبلي الخسارة أحياناً وان تنفقي بسخاء. هذا ما يفوتك فهمه.

حوّل نظره بسرعة إلى وجهها ليرى كيف تلقت هذه الحكمة. كانت تضحك.

ـ هذا هراء أنت فعلاً نمط قديم، لكن التفكير بهذه الطريقة يناسبكم أيها الرجال.

هنا شمخ أنفها أعلى من المعتاد قليلاً، وارتعشت خياشيمها المتوترة بانتصار وهي تستهجن بضحكة ساخرة الشخصية الأنثوية لجلسومينا. فكر تاكاموري أن هناك خطأ ما في أنفها وهي ترفعه بهذه الطريقة. كانت تعتقد أنه يشبه إلى حد ما أنف صوفيا لورين، ولكنه لا يرى ذلك. يوم كانت فتاة صغيرة اعتادت أن تجعّده إلى أعلى وتقلب وجهها له. الآن وقد نضجت لم تعد تبدي مثل تلك الإيماءات السوقية، لكن أنفها المقلوب إلى أعلى قدّم دليلاً على عنجهيتها وعلى عنجهية موقفها المترفع تجاه الرجال، والمجتمع، والحياة عموماً.

فكر تاكاموري أن هذا الأنف سينهار ذات يوم. كان يود لو قرصه بقوة، لكنه يعلم أنه لو حاول ذلك فإنها ستطير نحو أنفه لترد الصاع صاعين أو ثلاثة أضعاف العنف الذي استخدمه معها.

كان ذلك هو السبب الذي دعا تاكاموري في صباح الأحد هذا إلى أن يتكور في بطانيته مثل يرقة في شرنقتها ويجيب نداء أخته الزاعق بصوت بدا وكأنه يأتي من أعماق بئر فارغ.

بعد أن مرّ التحذير الثاني دخن تاكاموري سيجارتين، واحدة بعد الأخرى. وإذ أوشك على الانتهاء من الثانية سمع مرة أخرى وقع خطوات عالية في الممر السفلي.

الهجوم الحقيقي هذه المرة! أسرع إلى سحق سيجارته ومد يده ليتناول ملابسه الداخلية. من الغريب أنها لم تلجأ إلى الصياح بل صعدت السلالم بهدوء. بحركة عاجلة وضع قميصه الداخلي فوق رأسه، إلا أنه لم يفعل ذلك في الوقت المناسب. فُتحت أبواب غرفته فجأة، وأتاح فتحها دخول ضوء شمس الصباح الباهر. وقفت تومويو في بلوزة ناصعة البياض تنظر إليه بعينين ثاقبتين وذراعين متشابكتين.

ـ ميلورد، أجمل التهاني بمناسبة خطوبتك.

أطلقت هذه الكلمات المتنافرة وهي تراقبه يكافح من أجل تزرير قميصه الداخلي. كان يجد صعوبة في العثور على الأزرار.

ـ أنت ترتديه بالمقلوب أيها الغبي.

وقفت أمامه وعلى وجهها ابتسامة ساخرة، تراقبه وهو يصارع قميصه الداخلي. كررت:

ـ أنت ترتديه بالمقلوب، فلا عجب أنك لا تستطيع العثور على الأزرار.

ـ لا حاجة بك إلى إخباري.

سعى في غمرة ارتباكه إلى تجنب عينيها من خلال النظر خارج النافذة.

ـ تاكاموري.

ـ نعم.

ـ هل تنوي الزواج؟

من مكان جلوسه على الفراش متشابك الساقين أدار رأسه نصف دورة لينظر نحوها. فكر أن في عينيها السوداوين وأنفها الشامخ بغطرسة سخرية منه.

ـ من هي هونا هاروكو؟

ـ هاروكو؟ اللعنة إن كنت أعرف.

ـ هل تخبرني الحقيقة بقولك هذا؟

طفح صوتها بالشك وارتسم على وجهها تعبير ماكر. حدقت فيه لتختبر الانطباع على وجهه. لكن تاكاموري لم يتذكر أنه سمع بهذا الاسم من قبل. لم يكن ثمة فتاة واحدة يمكن أن يفكر باحتمال أن تتصل به تلفونياً في صباح الأحد هذا.

ـ هل تلمّحين أن لدي علاقة مع واحدة تدعى هونا هاروكو؟

ضحكت وقالت:

ـ لا اعلم، لكن... وصلك اليوم مظروف سميك يحمل اسم هاروكو من سنغافورة.

ـ سنغافورة؟

حدق تاكاموري بها دون أن يفهم. وتساءل إن كانت أخته الواقفة هناك سابحة في شمس الربيع قد بدأت تفقد عقلها. ربما تعرضت بورصتها للخسارة. فهو لم يسافر قط إلى سنغافورة، ولا علاقة له حتى في الأحلام مع فتاة في مكان بعيد كهذا.

ـ أرني الرسالة؟

ـ هل تتوقع الحصول عليها دون مقابل؟ سأعطيك إياها مقابل النقود التي استلفتها مني الشهر الماضي.

ـ أنت تمزحين، ثم أني لا اعرف شخصا كهذا.

حتى توموي كانت قادرة، اعتماداً على التعبير المرتسم على وجهه، أن تقرر أنه لم يكن يكذب. ومع ذلك بقيت تحدجه بشك. أخيراً مدّت يدها إلى بلوزتها وأخرجت الظرف. من المؤكد أن الختم البريدي عليه يشير إلى سنغافورة. العنوان مطبوع بحروف رومانية، ثم اسمه تاكاموري هيحاكي. عندما قلب الظرف لينظر إلى عنوان الإعادة وجد اسم هونا هاروكو يتبعه اسم آخر بين قوسين مكتوب بحروف لم يستطع قراءتها.

ـ أية خربشة!

هتف وهو ينظر إلى حروف عنوان الإعادة. من المؤكد أن الخط سيئ للغاية. فكر متأملاً: يبقى جميلاً أن يستلم المرء رسالة مكتوبة بخط أنيق من

فتاة حتى وان اتضح فيما بعد أنها وصلت نتيجة خطأ. لكن هذه الكتابة... إنها لا تناسب أية مدرسة معروفة في الخط. ثم ما معنى هذه الكتابة الفطيعة؟ إنها سيئة إلى حد أن كتابة طفل في المدرسة الابتدائية تبدو جيدة بالمقارنة معها.

ـ ربما لا يتعدى الأمر كونه نكتة ارتآها أحدهم. لكن الوقت ما زال مبكراً على ذلك. يوم كذبة ابريل سيحل بعد أيام من الآن.

ـ افتحها الآن وانظر ما تقول.

ـ افتحيها أنت.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟ حسناً... أولاً أنا فعلاً لا أعرف أي شخص باسم هاروكو. ثم أنك لا تملين التلميحات وأنا سئمت ذلك. لذا أنت من يفتح الرسالة. ها هي ذي أمامك.

سألت:

ـ ألن يزعجك ذلك؟

كان الفضول، وهو الصفة الخاصة بالنساء، قد تمكن منها. تحركت أصابعها بأظافرها الحمر المعتنى بها نحو الظرف قائلة:

ـ حسنا جداً، إذا كانت تلك رغبتك.

ـ اقرئيها بصوت عال. ليس لدي ما أخاف منه. فتيات هذه الأيام مليئات بالشك والغيرة. إنها مشكلة حقيقية.

راقبها وهي تفتح الظرف بمهارة وتخرج منه الرسالة. كانت مكتوبة على ورق بريد جوي خفيف وشفاف ومطوية أربع طيات.

ـ ماذا تقول؟

حتى تاكاموري تصاعد فضوله وهو ينظر عبر كتف أخته إلى الرسالة. بدت الكتابة على الصفحة مثل صفوف سلاحف ممتدة تحت شمس الظهيرة. الحروف صغيرة جداً ومزدحمة حتى أن المرء يحتاج إلى استخدام عدسة مكبرة لتمييرها.

ـ سأبدأ.

ـ هيّا.

ـ «عزيزي تاكاموري، أخيراً وجدت المؤخرة...» ما هذا؟

هتفت توموي وقد احمر وجهها.

نتيجة للتراجع الكبير في عدد الحروف الصينية في اللغة المتداولة، صار اليابانيون الشباب اليوم يقترفون الكثير من الأخطاء في الكتابة. غالباً ما يحذفون حروفاً بكاملها أو يعوّضون بعضها عن بعض. حتى تاكاموري وتوموي اللذان اختص جدّهما في الكلاسيكيات الصينية لم يشذا عن ذلك. ظلت معرفتهما بالحروف ضعيفة كذلك. لكنهما أصيبا بصدمة كبيرة إزاء عدد الأخطاء في رسالة هاروكو. لو أنها حروف حذفت أو بدلت فحسب لما كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد. لكن في الرسالة أماكن بدا المعنى فيها حتى بعد تمييز الحروف غامضاً جداً، حتى أن جهدهما لفهم النص لم يكن ليختلف عن جهد عالم حفريات يحاول أن يقرأ هيروغليف القدماء.

أخيرا أعلنت توموي:

ـ لابد أن أقرّ بفشلي.

ـ دعيني أحاول.

هذه المرة التقط تاكاموري الرسالة وقد زاد فضوله أكثر فأكثر وبدأ يحاول فك لغزها.

ـ أوه. فهمت.

ـ ماذا فهمت؟

ـ ليست هذه الكلمة «مؤخرة»، لقد أخطأتْ في الكلمة التي تدل على الوقت.... «أخيراً وجدت الوقت»، أي خطأ!

ـ حقاً أي خطأ. إنه فظيع.

جلس تاكاموري وقد شبك ساقيه على الفراش يدرس الرسالة. كان صباح أحد هادئاً. بيتهم يقع في منطقة كيودو السكنية في جناح من ستنكايا يبعد عن قلب المدينة. في كل ربيع تعود الطيور إلى حديقتهم، ويمكن الآن سماع تغريدها من شباك الطابق الثاني. باستثناء صوت الخادمة ماتشان تتكلم مع شخص ما عند باب المطبخ، كان البيت ساكناً تماماً.

أشرقت الشمس الساطعة على وجه تاكاموري كله. رصدت تومومي أخاها بانتباه تام وهو يحاول أن يفك اللغز المتمثل في الرسالة، ثم رأته يهتز فجأة من فرط الإثارة.

ـ ما الأمر؟

رفع تاكاموري عينيه عن الرسالة وقال بصوت عال:

ـ يا إلهي، هذا فظيع. ذلك الصديق من فرنسا ينوي التوجه إلى هنا.

ـ ماذا؟

ـ ليست نكتة. ليس هذا فقط، لكنه سليل نابليون.

طار عصفور كان يجثم على سطح الدار مغرداً. لم يكن بالإمكان سماع صوت ماتشان الآن.

ـ ما الذي تتكلم عنه؟

ـ أنا لا أمزح. إنه قادم فعلاً. لقد غادر سنغافورة بالفعل ومن المقرر أن يصل يوكوهاما خلال عشرين يوماً.

ـ ما هذا الذي تتحدث عنه بحق السماء؟

ـ ألا تذكرين؟... كنت قبل ثماني سنوات أتبادل الرسائل مع بعض أصدقاء المراسلة الأجانب؟

كانت ذكرى غائمة لدى تومويي. إذ واظب تاكاموري يوم كان في المدرسة على الكتابة لعدد من الصبيان في بلدان أجنبية أملاً في تعلم قليل من الإنجليزية، وكذلك لإضافة بعض الطوابع الأجنبية إلى مجموعته.

ـ ولكن من هي هونا هاروكو؟

ـ إنها ليست هونا هاروكو. هنا انظري.

أراها تاكاموري الحرف وأشار إلى السطر الأخير المتكون من حروف كريهة بدت مثل طابور من السلاحف يجتاز الصفحة.

ـ يقول هنا «يصبح اسمي عندما يُكتب باليابانية هونا هاروكو غاساتون»، وضربة إضافية في الحرف الذي يعني «يُكتب» حولت الكلمة إلى «ظهيرة».

أدركت تومويي بسرعة ما حدث، لكنها لم تميز مباشرة «غاساتون» لأن الحروف التي اختارها ليمثل هذا الصوت لم تكن لها أية علاقة به.

ـ غاستون بونابرت. اسم عائلته بونابرت، واسمه هو غاستون. من الواضح أنه يعتقد أن أسماء الرجال تنتهي بـ «كو» أيضاً.

لم يكن مزاج تاكاموري في أحسن أحواله أساساً بعد المناوشات السابقة مع أخته وكانت تلك القشة الأخيرة.

ـ يكتب هنا أنه درس اليابانية لمدة سنتين في معهد خاص بلغات الشرق

الأقصى في باريس. ولكن لماذا يود المجيء إلى اليابان؟ أتذكر أنه عندما تراسلنا قبل ثماني سنوات كان مهتماً كثيراً باليابان. أمضى عمّه بعض الوقت في كوبي ويبدو أنه نقل حُمّى اليابان إلى ابن أخيه عند عودته إلى فرنسا.

ـ أيأتي كسائح أم كرجل أعمال؟

ـ لا يوضح ذلك. لا أعرف سبب مجيئه.

نظر تاكاموري إلى تومويي، واقترح بجدية ساخرة:

ـ ربما جاء باحثاً عن زوجة. ألم يأت مليونير عجوز من أمريكا الجنوبية إلى اليابان قبل بضع سنوات في مهمة كهذه؟ تومويي، ربما كانت هذه فرصتك!

ـ لا تكن بذيئاً.

ـ لكنه سليل بطل عظيم، نابليون. أتذكر أنني استغربت امتلاكه مثل هذا اللقب، وعندما سألته عن ذلك أقرّ بوجود علاقة.

ـ ومن يكون نابليون على أية حال؟ الم يكن أول فاشستي؟

ـ ولكن ما الذي سنفعل معه؟

ـ حسناً، علينا أولاً أن نكلم الوالدة في الموضوع. لا تستطيع أن تقرر بنفسك إحضار غريب عنا تماماً إلى الدار... وأجنبي أيضاً.

سليل نابليون يأتي إلى الدار! ويخطط للإقامة في بيتهم! كانت تلك صاعقة أتت من حيث لا أحد يدري في هذا الصباح الربيعي، أتت لتعكر هدوء عائلة هيجاكي.

بدا صوت خطوات تومويي السريعة وهي تنسحب نازلة السلم مثل رشقة بندقية آلية.

سارع أخوها إلى استكمال ارتداء ملابسه ولحق بها ساحباً حرام الكيمونو خلفه.

ـ أماه لقد حدث شيء فظيع!

كانت أمها «شيزو» في الغرفة المطلة على الحديقة تصقل بعناية الطاولة الآبنوسية وهي إحدى مقتنيات أبيهما العزيزة أثناء حياته.

ـ ما الذي يثيركما إلى هذا الحد؟

سألت بينما هي تنظر من فوق نظارتها إلى وجه تاكاموري الطفولي رغم حجم جسمه.

مضت ستة أعوام على موت زوجها نتيجة نزيف في الدماغ وكان طبيباً وأستاذاً في كلية الطب. كانت توموي في ذلك الوقت لا تزال في المدرسة المتوسطة، وتاكاموري يوشك على التخرج من الكلية بعد أن تمكن بهذا الشكل أو ذاك من اجتياز السنوات الأربع دون رسوب.

الآن، وكما كان الحال أثناء حياته، حرصت شيزو على تنظيف غرفة مكتبه بنفسها كل يوم، ماسحة رفوف الكتب نافضة عنها الغبار وصاقلة طاولته الآبنوسية. هذا العمل دون سواه رفضت أن تعهد به إلى الخادمة أو حتى إلى توموي.

ـ حزامك.

قالت وهي تشير إلى تاكاموري.

ـ ماذا؟

ـ حزامك غير مربوط.

لفّ تاكاموري الحزام حوله وشدّه بينما هو يخبر أمه باستثارة عظيمة عن الرسالة التي جاءت من سنغافورة.

ـ إن سألتني، أعتقد أن علينا بذل أقصى ما في وسعنا لإشعاره بأنه في بيته

أمّاه. إنه في نهاية المطاف صديق مراسلتي منذ زمن بعيد وهو يعتمد عليّ. امنحيه فرصة ليرى كيف تعيش عائلة يابانية. سيأكل الفجل المخلل وشوربة الميسو[1] معنا. أنا واثق أن الأمر سيكون طبيعياً.

ـ إنه أمر غير متوقع.

ـ ولكن أماه «حتى الصياد يبقي على حياة الطير الذي يحتمي به.»

أصرّ تاكاموري وهو يسحب من حقيبة ذاكرته قولاً قديماً لا ينطبق على الحال بسهولة.

ـ ذلك أمر حسن جداً مع الطيور، ولكن كيف سنعتني به؟ في المقام الأول ماذا بشان دورة المياه؟ ليس لدينا ذلك النوع الذي يتدفق منه الماء. من المؤكد أن الأجنبي سيجد الأسلوب الياباني في المرافق خاطئاً.

اعتادت شيزو الاستجابة لرغبات ولدها وابنتها في كل شيء تقريباً، لكنها أبدت فتوراً كبيراً عندما وصل الأمر إلى وضع ضيف أجنبي في دارهم. أضافت:

ـ فضلا عن ذلك، مع وجود فتاة في عمر تومويي في الدار...

ـ أماه، أنا الضامن لشخصيته، إنه في نهاية الأمر سليل نابليون. من غير المحتمل أن ينظر إلى واحدة مثل تومويي.

---

(1) الميسو Miso شوربة تعَدّ من عجينة الفاصوليا وهي شائعة جدا في المائدة اليابانية. م

الفصل الثاني

دخـول البطـل

وجدتْ تومويي وهي جالسة في مكتبها، في شركة ديسانتو التجارية في بناية مارونوجي التي تقع عبر الشارع العام القادم من محطة طوكيو، أن التركيز على عملها أمر صعب على غير العادة. اعتادت على طباعة سبعين كلمة في الدقيقة، لكن قدرتها انخفضت اليوم إلى أربعين أو خمسين.

ـ سنيورة هيجاكي، هل تعانين من شيء؟

سأل مسؤولها السيد ديسانتو بقلق بعد أن وجد أنها تطيل النظر الشارد خارج النافذة عدة مرات.

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ أنا بخير.

أكّدت له بارتباك وبدأت تضرب مفاتيحها مرة أخرى. لكنها لم تستطع أن تستمر في ذلك. كانت أفكارها تعود دائماً إلى أحداث اليوم السابق.

بعد ثلاثة أسابيع سيصل شاب فرنسي إلى يوكوهاما. معظم أعباء الاستعداد لاستقباله ستقع على عاتق أمها، لكنها ستضطر هي الأخرى إلى المشاركة في هذه الاستعدادات. أما تاكاموري، فقد اتخذ كما هو متوقع، الموقف اللامسؤول قائلاً إن الضيف يمكن أن يأكل الفجل المحلل

وشوربة الميسو مثل سائر أفراد العائلة ولا حاجة إلى مساعدة منه. فكرت أن عليها والحال هذه أن تتحمل المسؤولية. لا فائدة ترتجى من تاكاموري في مثل هذه الحالات.

لم تتمكن وقد أزعجها أخوها من أن تكبح غضبها تجاه نفسها أيضاً لموافقتها على استضافة شاب أجنبي في دارهم لم يروه من قبل قط.

نادت توموي شاباً يعمل في المكتب معها قائلة:

ـ سيد أوساكو. أود أن أسألك شيئاً.

ـ نعم، ما هو؟

اقترب تاكوهيكو أوساكو بنظارته اللامعة دون إطار من مكتبها ممسكاً بمنديل يستقر على فمه. كان قد سبق توموي بعامين في العمل بالشركة. نحيف مثل سمكة أنقليس لكنه شديد الاهتمام بمظهره حتى أن توموي ودت لو أن أخاها يأخذ بعض دروس الأناقة منه. كلما قدمت إليه الوثائق التي تنتهي من طباعتها استقبلها بأدب أنثوي يمتد حتى إلى اختياره الكلمات. انطوت نظرتها إليه على ازدراء، لكن ذلك لم يمنعها من الذهاب معه للرقص في عدة مناسبات، خصوصاً وأنه أستاذ معترف به في فن الرقص.

ـ سيد أوساكو، بما أنك من أسرة نبيلة فلابد أنك تعرف الإجابة عن سؤالي.

ـ نبيلة؟ أبداً...

بدا وقع صوته كأنه لفتاة، وأردف:

ـ ولكن ما هو؟

ـ هل يوجد حتى اليوم أحياء من سلالة نابليون؟

ـ أظن أن لابد من ذلك.

ـ لكني أعجب ما العمل الذي يمارسونه للحصول على مصدر عيشهم؟

ـ في الواقع لا أعرف، أنا متأكد من ذلك. ولكن لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بنابليون؟

ـ أوه، لا شيء.

أغمضت عينيها وحاولت أن تسترجع التمثال النصفي لنابليون في كتاب التاريخ. يبدو فيه مرتدياً قميصاً أبيض وهو يدس إحدى يديه فيه تحت صدر منتفخ. حاولت التخمين وتساءلت إن كان ضيفهم يبدو كذلك. يقال إن نابليون كان رجلاً قصيراً وقبيحاً.

***

عندما سُمح للمستخدمين في مكاتب منطقة مارونوجي بالخروج خلال استراحة الظهيرة بعد ثلاث ساعات من العمل، انطلقوا جماعات إلى المروج الواسعة التي تقع أمام القصر الإمبراطوري من أجل بضع دقائق من الاسترخاء. كانت إحدى المجموعات تتصفح بعض المجلات وقد تمدد أفرادها على الحشائش المخضرة لتوها. بعض الفتيات كن يلعبن كرة السلة وأصواتهن المرحة ترافق الكرة مع كل رمية، بينما الآخرون يراقبوهن. على حافة الخندق المائي تحت أشجار الصفصاف المبرعمة، وقف شاب مع فتاته يتطلعان إلى أسفل نحو الماء حيث الإوز يخوض برشاقة.

ـ أمر فظيع! كان الأسود يضربون بقوة. في البداية ضرب كينوشيتا باتجاه واحد في الحقل الأيمن. وهو ما أثار ذعر الرامي وقبل أن يستقر تمكن وادا وأيوكي من إنجاز ضربات أخرى. ثم بدأوا العد القديم واحد ـ اثنان ـ ثلاثة... هيه، هل أنت معي؟

كان إيجيما الذي يعمل مع تاكاموري يخبره مستثاراً عن لعبة العمالقة والأسود شهدها في اليوم السابق، الأحد، في ملعب كوراكيون. لكن تاكاموري المتمدد إلى جانبه وقد ثبت عينيه على نقطة واحدة في السماء الزرقاء الصافية لم يبد إلا أقل الاهتمام.

ـ ما بك؟ هل أنت على ما يرام؟

ـ أنا بخير.

ـ ماذا؟ هل بدأت تفكر في مغادرة نادي العزاب وتتزوج؟

ـ لا، لا شيء من ذلك.

تطلع إيجيما وهو يحتضن ركبتيه إلى الفتيات اللواتي يلعبن كرة السلة. دفعه سطوع الشمس إلى أن يطرف عينيه.

عندما يحل الربيع كل عام، يرى تاكاموري وأصحابه العزاب فتيات المكتب معهم أكثر جاذبية من المعتاد. يزداد الجو دفئاً فيأتين إلى العمل دون معاطف أولاً، ودون بدلات ثقيلة بعدها، ثم في ملابس قصيرة الأكمام تكشف عن أذرعهن البيض، حتى ليظن المرء أنهن زهور جميلة تتفتح نضرة. وكان تاكاموري وصديقه إيجيما قد اعتادا منذ أيام الجامعة على تمضية استراحة الظهيرة في توزيع نظرات مغرمة تجاه هذه الزهرة أو تلك. لكن الأمر مختلف اليوم.

ثمة في جيب تاكاموري ملاحظة تتعلق بشجرة عائلة نابليون كان قد استنسخها سراً أثناء دوامه في الشركة من قاموس للسير الذاتية استعاره من مكتبة المصرف. اتضح أن لوالدي نابليون قطيعاً من الأطفال. وكان لنابليون أخ أكبر واحد يُدعى جوزيف، وثلاثة أخوة وثلاث أخوات أصغر منه: العدد الكلي ثمانية. إلى جانب جوزيف ونابليون كان هنالك لوسيان، ولويس، وجيروم، وإليزا، وبولين، وكارولين.

غاستون بونابرت هذا الذي يخطط للوصول خلال ثلاثة أسابيع، إلى أي من هؤلاء يعود نسبه؟ هل هو سليل مباشر لنابليون أم لواحد من أخوته؟ لا مجال لمعرفة ذلك.

***

ـ أجنبي؟ هل أنت جادة؟

وقف شوسوكي تاجر السمك على باب المطبخ يمسح على عنقه المتصلب براحة يده. إلى جانبه لوح كُتبت عليه أسماء كل الأسماك المتوفرة لديه للبيع في ذلك اليوم.

ـ إذن ما الذي ستفعلين؟ إن كان أجنبياً لن تتمكني من الحديث معه باليابانية. أعتقد أن عليك تعلم بعض الكلمات الإنجليزية.

ـ ما الذي تتكلم عنه! لدي ما يكفيني من الإنجليزية.

ضربت ماتشان في غمرة انزعاجها الصحون ببعضها مصدرة صوتاً عالياً في حوض المطبخ.

ـ على أية حال ما هي طلباتكم اليوم؟

ـ ماذا لديك؟

ـ ماذا عن بعض سمك الساوارا الطازج؟

ـ كم سعره؟

ـ الشريحة بعشرة ينات.

ـ هذا باهض جداً.

تحركت ماتشان إلى باب المطبخ ورمقت شوسوكي بنظرة حاسمة وهي تضع يديها على وركيها.

ـ نحن نستقبل ضيفاً أجنبياً وهذا يعني أننا سنحتاج إلى الكثير من اللحم. من الأفضل أن تكون حذراً وتقدم لنا خدمة جيدة.

ـ هل هذا تهديد؟

حل شوسوكي المنشفة الملفوفة حول رأسه ومسح بها وجهه المعروق.

ـ أنت زبونة صعبة.

ـ ولكن أليس ما أقول معقولاً؟ ألا تعلم أن الأجانب لا يأكلون إلا اللحم؟

ـ حسنا، لك ما تريدين. سأعطيه إليك بخمسة وثلاثين يناً.

لعق القلم وكتب الطلب في دفتره ثم قال:

ـ ولكن كيف حدث أن أجنبياً سيمكث معكم؟

ـ ألم أقل لك؟ إنه صديق قديم لتاكاموري.

ـ آآ... إذن من الطبيعي أن يمكث. بالمناسبة، هنالك أجنبي يؤجر غرفة في منطقة موري... تعرفينها، قرب نقطة البوليس. أهو مدرس للإنجليزية أو شيء من هذا القبيل؟

أعلنت ماتشان بصوت عال وقد انزعجت مما يتضمنه هذا الكلام:

ـ ضيفنا يختلف تماماً. إنه سليل لنابليون. لا تتكلم عنه كما تتكلم عن ذلك الرجل فيموري.

ـ نابليون؟

ـ هل تعني أنك لا تعرف حتى نابليون؟ أي جاهل إذن؟

ـ ألا تودين مشاهدة فيلم معي يوم الأحد؟

ـ لا أريد. لن أخرج مع أي شخص حتى أكون مستعدة للزواج. إن انتهيت من عملك فاذهب من هنا.

* * *

أخيراً جاء ذلك اليوم من نيسان الذي كان من المقرر أن يصل فيه غاستون بونابرت إلى يوكوهاما.

ـ أخيراً!

حتى شيزو سُمعت وهي تتنهد في الليلة التي سبقت وصوله. إذا بدا كما لو أنه ولدها يعود من رحلة طويلة فإن السبب كونها أمضت الأسبوع الماضي في الإعداد بحمى وحماس لاستقبال الضيف، فهي تارة تصلح من وضع الأغطية وأخرى تشتري شراشف جديدة أو تفكر بأطباق طعام مناسبة.

ـ تومويي، هل حصلت على بعض أغطية الوسائد؟

ـ نعم، ولكن لا أعتقد يا أمي أن بنا حاجة إلى كل هذه المبالغة. ليست لدينا في المقام الأول أدنى فكرة عن سبب مجيئه إلى اليابان. وحتى إذا كان صديق مراسلة لتاكاموري فلا يتنظر منا أن نستضيفه طوال فترة إقامته. أعتقد أن من عادات اليابانيين السيئة المبالغة إلى هذا الحد في إبداء اللطف تجاه الأجانب.

ـ ربما، ولكن بما أنه قطع كل هذه المسافة...

ـ أتساءل أي نوع من الأشخاص غاستون هذا؟

حاولت تومويي وهي تغلق الراديو الذي كان يقدم موسيقى أمريكية غربية أن تتخيل مظهره كما هو دأبها خلال الأسابيع الثلاثة الماضية. لكنها لم تستطع أن تخرج بصورة مقنعة. كانت قد ذهبت دون علم أمها وأخيها إلى دار ماروزين لبيع الكتب في نيهونباشي لتبحث عن صور لنابليون. وجدت في ماروزين عدة كتب عنه، لكن كل الصور التي وجدتها قدمته رجلاً صغيراً متغطرساً يبدو أشبه بأحد النسور المعروضة في حديقة يونو للحيوان. فكرت أنه بالتأكيد يفتقر إلى الجاذبية الكبيرة. تركت المحل دون شراء كتاب.

وبينما هي تتصفح مجلات سينمائية قديمة صادفتها صور لتشارلس بوير ودايال جيلن اللذين مثّلا دور نابليون. لم تجرؤ على توقع أن يكون غاستون وسيماً مثل جيلن. حاولت أن تقوم بعملية مونتاج تجمع بها عناصر من جيلن وأخرى من النسر، لكنها لم تقترب في نهاية المطاف من تخيّل صورة أوضح لغاستون.

ـ ماذا تتوقعين قد حدث لتاكاموري؟

سألت شيزو وهي تنظر بقلق إلى ساعة الحائط. كانت الساعة قد بلغت السابعة فعلاً دون أن يعود تاكاموري إلى البيت. ربما توقف كعادته في حانة مع بعض أصدقائه في المكتب.

ـ إنه يفتقر تماما إلى أي إحساس بالمسؤولية... لم يعد إلى البيت بعد ومن المقرر أن يصل ضيفه غداً!

ـ لابد أنه يعي أن الغد هو اليوم المقرر.

ـ بالطبع. وكان قد قرر أن يقصد شركة النقل اليوم للحصول على إذن بالصعود إلى سطح السفينة.

لم يكن مسموحاً في العادة للأشخاص الذين يقصدون الميناء باستقبال المسافرين الواصلين تواً بالصعود إلى ظهر السفينة. فإذا رغبوا في ذلك كان عليهم الحصول على إذن من شركة النقل.

ـ آمل أن يكون الجو حسناً غداً.

ـ بحسب الراديو يجب أن يكون الجو ملائماً.

لم يصل تاكاموري البيت إلا بعد منتصف الليل.

ـ ستدخل السفينة الساعة السادسة صباحاً. ما الذي ستفعله إن وجدت نفسك متعباً إلى حد يمنعك من النهوض من النوم؟

استثارت تومي أخاها لكن تاكاموري غير المكترث أبداً كما هو دائماً وقف أمام المغسلة يغرغر الماء في فمه ويثير ضوضاء يمكن سماعها في كل أرجاء الدار. أخيراً أجابها:

ـ لا تقلقي. مع تأخيرات الجمارك والتفتيش الصحي لن يصلوا الساحل قبل الساعة العاشرة على الأقل. لا داعي للعجلة.

فكرت تومي أن إجابته هذه غير مسؤولة، كما هو دائماً.

بعدها حل يوم الوصول، يوم أحد. استيقظت شيزو وتومي مع بزوغ أول خيط رمادي من خيوط الصباح عبر النافذة ومع انطلاق غناء السنونو على سطح الدار.

كان المقرر بحسب جداول الوصول أن تدخل سفينة «فيتنام» الميناء في السادسة لكن تاكاموري قال إنها ستتأخر حتى الساعة العاشرة لكي تجتاز الجمارك والتفتيش الصحي. ولأنه كثير التساهل دائماً في مثل هذه الأمور لم تدريا إلى أي حد تقبلان حكمه. كان لا يزال يغط في نوم عميق.

الساعة السابعة. لم تتمكن تومي من كبح جماحها أكثر. صعدت إلى الطابق الثاني وتمكنت بصعوبة شديدة من أن تهز أخاها وتخرجه من نومه. مد يده وهو يفرك عينيه المثقلتين بالنوم إلى علبة السجائر إلى جوار سريره ناوياً الابتداء بالتدخين. لكن تومي اعترضت سبيله ونجحت في سحبه إلى الطابق الأسفل وهي تمسك بياقته كما يمكن أن تفعل مع قط.

ـ متى تتوقع أن يصل غاستون الدار؟

لم يجب تاكاموري أمه. جلس يلتهم فطوره محاولاً منع نفسه من التثاؤب. فجأة انفجر قائلاً:

ـ تومي، ستتولين دفع الأجرة إلى يوكوهاما، أليس كذلك؟

الساعة الثامنة. غيرت تومو ي ملابسها إلى بدلة زرقاء من الجرسيه مخططة بأشرطة بيضاء ضيقة ثم وضعت على رأسها قبعة بيضاء كالثلج.

ـ ما أجمل هذا!

كان هذا الإطراء من تاكاموري يهدف بوضوح إلى حث أخته على دفع الأجرة إلى يوكوهاما.

احتارت له تومو ي القميص الذي يرتديه ثم ناولته ربطة عنق وأدخلته في بدلته ودفعته أخيراً خارج الدار دفعاً. كان الوقت حينها قد تجاوز الثامنة والنصف بكثير.

اتخذا من كيودو باصاً متجها إلى شيبويا، حيث استقلا خط طوكيو المتجه إلى يوكوهاما، وهي سفرة تستغرق حوالى أربعين دقيقة.

نظرت تومو ي بعصبية إلى ساعتها:

ـ لا أدري إن كنا سنصل في الوقت المقرر. ستكون الساعة عندما نصل قد بلغت العاشرة والنصف.

بينما القطار يقترب من يوكوهاما لاح الميناء وسفنه على مبعدة. البحر أزرق والسماء صافية.

ـ أي السفن تظنها؟

ـ لا يمكنك رؤيتها من هنا. السفن الأمريكية ترسو عند الرصيف الأمريكي.

ـ كم يستغرق من الوقت الطريق من المحطة إلى الرصيف؟

ـ لنر ذلك. أتخيل أنه يستغرق نحو ساعة بالباص، فهم بطيئون إلى حد فظيع. ليس لدي أية نقود، لذلك لا يهمني إن مشيناها.

اليوم دون بقية الأيام لم تشعر برغبة في مشاجرته. وبالرغم من رفضها

التنازل لوحت لسيارة أجرة أمام المحطة. لاحظ تاكاموري وهو يستقر داخل السيارة في وضع مريح:

ـ سيارة الأجرة هي أنسب الوسائل في نهاية المطاف، ألا ترين ذلك؟

بينما هما يقتربان من الميناء هب نسيم البحر محملاً برائحة الملح قادماً من الشرق. استدارت السيارة حول مركز الحرير المشيد حديثاً وانطلقت باتجاه الرصيف الأمريكي حيث ترسو السفن الأجنبية.

ـ هذا فظيع. لقد رست سفن المسافرين بالفعل.

هتفت تومويي وهي تقفز من السيارة. تبين عند التدقيق أن السفينة الخضراء التي تصورت تومويي أنها «فيتنام» كانت ناقلة هولندية هي «جسن ـ ماركس». خلفها هنالك شاحنة يابانية حمولة ثمانية أو عشرة أطنان هي «سانتوسو ـ مارو» تحمل علم الشمس المشرقة يتدلى مترهلاً من سارية عليها وهي تأخذ شحنتها. لم يكن في المكان غير هاتين السفينتين.

ـ هل أنت واثق أن هذا هو الرصيف الصحيح؟

كانت تومويي قد قصدت يوكوهاما مرتين أو ثلاث مرات لتوديع صديقات من أيام الجامعة ذاهبات إلى أمريكا لإكمال الدراسة. السفن تقلع من هذا الرصيف دائماً، لذلك لا مجال للخطأ. مع ذلك شعرت بقلق.

ـ لا أثر لفيتنام هنا.

ـ انظري هناك!

أشار تاكاموري إلى النهاية القصوى لرصيف التحميل حيث بدا البحر مضبباً. معهما وقف أربعون أو خمسون رجلاً وامرأة متطلعين إلى البحر. حملت الريح أنغام موسيقى تصدر عن آلات عزف نحاسية إلى حيث يقف تاكاموري وتومويي.

ـ هل ذلك هو المكان الذي من المقرر أن ترسو فيه «فيتنام»؟

ـ نعم أيتها الآنسة.

ـ ألا ترى أن الوقت قد تأخر كثيراً على الوصول؟

ـ يبدو أن التفتيش الصحي استغرق وقتاً طويلاً.

بينما سارا باتجاه مجموعة تقف عند نهاية الرصيف جاءت للترحيب بالقادمين سمعا مرة أخرى صوت الآلات النحاسية، وعندما اقتربا أكثر لاحظا أنها فرقة الشرطة في زيّها الموحد الأزرق الداكن والمزين بأشرطة بيضاء. كانت تقف في طابورين وتعزف مارش الكولونيل بوجي.

ـ يا للزحام!

حتى تاكاموري بدا مندهشاً. بعدها لفت نظره شيء ما في مقدمة المجموعة.

ـ تومويي انظري.. إلى هناك!

سيدة شابة، من الواضح أنها ممثلة، أناقتها آخر صيحة تقف حاملة باقة من الزهور أمام المصورين لالتقاط صور لها. حولها أربعة أو خمسة رجال يحتمل جداً أن يكونوا مراسلين صحفيين.

ـ هل تعتقدين أنهم جاءوا للترحيب بغاستون؟

ـ لا تكن أحمق.

بالرغم من هذا بدأ قلب تومويي نفسها يدق بسرعة أكبر.

ـ حسناً، ولم لا؟ إنه في نهاية المطاف سليل نابليون. وليس غريباً على المراسلين الصحفيين أو فرقة نحاسية أن يخرجوا لاستقباله.

فكرت تومويي أن ذلك أمر بعيد الاحتمال. ومع هذا قد يصح ما قاله تاكاموري. سألت نفسها للمرة المليون كيف تُرى يكون شكله؟

فجأة ومن وراء حائل الأمواج البعيد جاء صوت بوق السفينة مثل تثاؤب عملاق.

ـ إنها تدخل!

ظهرت الشاحنة الفرنسية البيضاء «فيتنام» حمولة خمسة عشر ألف طن المطلية حديثاً يقودها زورقان للإرشاد تتقدم على مهل إلى الميناء. انزلقت النوارس فوق مداخل الزوارق برشاقة مكتفية برفرفة أجنحتها البيض.

الفرقة التي كانت تأخذ فترة استراحة انطلقت تعزف من جديد مارش الكولونيل بوجي بنغمة أعلى من قبل.

أخيراً اقتربت السفينة بما يكفي لتمييز وجوه المسافرين المصطفين على طول حافة الدكة مثل طيور صغيرة. اختلط مع السياح الأجانب بعض الشباب اليابانيين الذين مالوا على الحافة ملوحين بقبعاتهم ناحية رصيف التحميل. تعلق بحّار أحمر الشعر من كوة قرب خط الماء. ارتسم على كل وجه تعبير ينم عن الفرح.

عندما مسّت السفينة بصمت رصيف الميناء تحرك المرحبون بالقادمين ملوحين بأيديهم. الصوت الحزين الوحيد كان صوت النوارس التي واصلت عرض الباليه فوق زوارق الإرشاد وقد انتفت الحاجة إليها.

ـ ديكوتشان!

ـ انظري هنا!

انفجرت أصوات مجموعة من الفتيات الواقفات قرب تاكاموري على نحو حاد. اندفع المراسلون الصحفيون مع كاميراتهم إلى ظهر السفينة. عندها فقط أدرك تاكاموري أن هذا الهرج كان من أجل النجمة السينمائية الشهيرة هيديكو تاكامين (المعروفة لدى جمهرة معجبيها باسمها الشائع ديكوتشان) وكانت تعود إلى اليابان على ظهر هذه السفينة مع زوجها. لم تكن السيدة

الواقفة في منتصف سور الدكة ملوحة بيدها بحركة صغيرة ومبدية ابتسامة حلوة إلا هيديكو تاكامين التي يتذكر أنه رأى وجهها في السينما.

ـ إنها ديكو. ديكو تشان على ظهر السفينة.

هتف وهو يلكز توموي.

دارت تومري برأسها جانباً ولم تجب. كل هؤلاء الناس إذن وبضمنهم المراسلون الصحفيون والممثلة التي تحمل باقة زهور لم يأتوا للقاء غاستون بل نجمة سينمائية شهيرة. لقد توقعت دائماً أن ينتهي الوضع إلى ما هو عليه الآن. ومع ذلك لم تستطع أن تكبح شعوراً بخيبة الأمل.

ـ أتساءل أين غاستون؟

ـ نحن لا نعرف حتى شكله.

قال تاكاموري وعيناه لا تفارقان الممثلة على سور الدكة.

عندما دخلت ناقلة كبيرة تحمل رافعة لنصب سلم السفينة انطلق الناس على الرصيف يتراكضون نحوها. وقف المسافرون حاملين أمتعتهم استعداداً للنزول. تاكاموري وتوموي وقد تدافعا بالمناكب مع المحيطين بهما اتخذا مكانيهما أسفل سلم السفينة أيضاً.

كان أول النازلين مسافر مريض حُمل برفق على نقالة بصحبة ممرضتين. أعقبه أجنبي طويل متقدم في العمر مورّد الوجه نزل بخطوات سريعة ملوحاً بيديه. أدركا بسبب عمره أنه لا يمكن أن يكون غاستون. ظهر بعده طالب ياباني يرتدي بذلة جديدة لم تُلبس من قبل، وسرعان ما استحوذت عليه عائلته متصايحة «عزيزنا كنتشان، هنا» فمضى معهم ليستمتع بمسرة لمّ الشمل. بعدها جاءت مجموعة من الراهبات الكاثوليكيات، ورجل جنتلمان ياباني، وأجنبيان...

طوال عشرين دقيقة تواصل نزول المسافرين بينما تاكاموري وتوموي يراقبان أسفل السلم بشعور متزايد بالإحباط. صعد المراسلون الصحفيون والممثلة التي تحمل باقة زهور السفينة للقاء هيديكو وزوجها. وبدا أن كل المسافرين عدا هؤلاء قد غادروا. لا وجود لأي شاب أجنبي يمكن أن يكون غاستون على مرمى البصر.

رزمت فرقة الشرطة معداتها وغادرت. كذلك اختفى المرحبون والمرحَب بهم مع المصافحات والعناق. أصبح رصيف الميناء قطعة بيضاء مهجورة. طار فوق الأمواج نورس وحيد وأطلق صوتاً حزيناً. اقترحت توموي:

ـ دعنا نصعد ونبحث عنه.

ـ هل نفعل ذلك؟

أحس تاكاموري بالاكتئاب وأضاف قائلاً:

ـ هل يمكن أن يكون قد مرّ بنا دون أن نلاحظه؟

صعد الاثنان سلم السفينة وعرضا على الحارس الياباني عند المدخل الإذن بالصعود فأصبحا على ظهر السفينة. كان الداخل مثل فندق مزين بثريات عند السقف ولوحات جدارية زاهية الألوان على الحيطان. وقف المسافرون الأجانب وطاقم السفينة بزيه الموحد قاتم الزرقة يتبادلون الحديث بفرنسية تتدحرج على ألسنتهم بنعومة. الأرضية مغطاة بسجاد باذخ شعرت معه توموي أن كعبيها العاليين يغطسان عميقاً في زغب النسيج.

قال تاكاموري وهو يمسح العرق عن جبينه:

ـ توموي أنا مضطر للذهاب إلى الحمام. يبدو أنني لن أستطيع الصبر أكثر.

ـ ما هذا بحق السماء... لقد اخترت المكان المناسب.

لا يكفي أنهما لم يعثرا على غاستون. تاكاموري أيضاً بدأ يتصرف كالأطفال.

سارت تومُوي بجرأة إلى المكتب الأمامي في الصالون وبادرت موظفاً متوسط العمر له وجه الممثل الفرنسي المتوفى لويس جوفيه بالكلام:

ـ بار لي إيتاليانو؟[1]

سألته إن كان يتكلم الإيطالية.

ـ سي، سي سنيورينا.

ردّ عليها الرجل بابتسامة دافئة وانحنى قليلاً نحوها بإيماءة ذكرتها أكثر بلويس جوفيه.

ـ هل تتكرم بإلقاء نظرة على قائمة المسافرين من أجلي؟ أنا أبحث عن مسافر يدعى غاستون بونابرت.

ـ أسيتا، سنيورينا.

ـ تانتا غراتسي.

عندما التفتت وجدت تاكاموري يتفحص لوحة جدارية على الحائط كان واضحاً أن جرأتها قد سببت له الإحراج.

استغرق الموظف وقتاً طويلاً في البحث في قائمة المسافرين. بعدها طوى السجل بحركة قوية وأشار بأربع أصابع وعلى وجهه ابتسامة لا تخلو من سخرية. «كوارتي كلاسه»، الدرجة الرابعة.

لأن تومُوي وتاكاموري لم يسافرا على ظهر سفينة أجنبية من قبل فإنهما لم يكونا على علم حتى بوجود درجة كهذه.

ـ أين الدرجة الرابعة؟

نادى الكاتب على بحار أزرق العينين يقف بعيداً في زاوية وهمس له بشيء دون أن ينقل عينيه عن تومُوي وأخيها. هزّ البحار كتفيه بسخرية هو الآخر.

---

(1) هل تتكلم الإيطالية؟ (بالإيطالية). م.

قادهما البحار عبر ممر أسطواني تشرف عليه كابينات الدرجة الأولى ثم خرج بهما إلى دكة واسعة كانت رافعة عليها تسحب تحت شمس تعمى لشدتها الأبصار صناديق حمولة من شبكة وتكومها واحداً فوق الآخر.

ـ هنا!

قال البحار وأشار إلى فتحة عند أقدامهم. كان مدخلاً مربع الشكل إلى عنبر السفينة يغور في الأسفل مع سلم معدني شاقولي. أطلقت تومويِ صوتاً يدل على الدهشة. هذه إذن الدرجة الرابعة!

تقرفص البحار ونادى أسفل العنبر:

ـ غاستون بونابرت!

انبثق فجأة رأس من الأسفل كأنه كان ينتظر هذا النداء. لم يكن ذلك على أية حال غاستون بونابرت بل طباخ السفينة الذي يلف مئزراً أبيض حول خصره ويحمل في يده ساطور لحم. كان رجلاً بديناً ذا بطن نائتة ظل يربت على أنفه الشبيه بقطعة زلابية حمراء، وهو ما ينم ربما عن إفراط في الخمر. تطلع إلى تومويِ وتاكاموري وسأل وهو يهز رأسه:

ـ فو شيغشي غاستون؟ ني سي با؟[1]

ـ نعم، نعم.

لم يفهم تاكاموري كلمة من الفرنسية لكنه أجاب بنعم عند سماعه اسم غاستون.

بدا أن الرجل يدعوهما إلى نزول السلم المعدني إلى عنبر السفينة.

ـ هل ننزل؟

(1) تبحثان عن غاستون، أليس كذلك؟ (بالفرنسية). م.

سألت تومويٍ وقد داخلها التردد فجأة بالرغم من شجاعتها. كان باستطاعتها حتى من الفتحة استنشاق رائحة الزيت والطلاء في العنبر الحار المكتظ يختلط بها نوع من النتانة التي تقترن بحظائر الخنازير والأبقار. عندما لاحظ الطباخ أنهما مترددان تكلم إليهما مرة أخرى بفرنسية سريعة.

ـ نعم، نعم.

قال تاكاموري وقد أمسك بالسلم بقوة وبدأ نزوله.

على خلاف السفن اليابانية لا تحتوي السفن الفرنسية على درجة ثالثة.

هنالك العديد من المستويات في الدرجة الأولى، لكن الكابينات تشبه غرف الفنادق المرفهة وسعرها صاعق. في الدرجة الثانية، وهي تدعى أيضاً الدرجة السياحية، يشترك مسافران أو ثلاثة في الكابينة الواحدة. وهي تكلف في رحلة من يوكوهاما إلى مرسيليا مبلغا يصل إلى أكثر من 150 ألف ين.

يجهل معظم الناس أن هنالك وسيلة متاحة أخرى للوصول إلى فرنسا بمبلغ لا يزيد على خمسين يناً. وهي تتمثل في السفر على الدرجة الرابعة في عنبر السفينة. هنا لا توجد بالطبع خدمة خاصة أو اهتمام شخصي من أي نوع، يخدم المسافرون أنفسهم بأنفسهم في وجبات الطعام. أقيمت في الحيز الذي لا يحتاجونه للحمولة في العنبر خطوط من الأسرة المبيتة من القنب تبدو مثل بيوت دودة القز. وفيها يجد المرء عادة عمالاً صينيين غير مهرة شبه عراة يصعدون السفينة في سنغافورة أو هونغ كونغ قاصدين العمل في أجزاء أخرى من العالم. وهنالك عملية تبادل مستمرة، إذ أن عمالاً جدداً يغادرون ويصعد بدلاً منهم آخرون في كل ميناء.

لم يكن تاكاموري وتومويٍ بالطبع يعلمان بهذا وهما يغوصان في أحشاء السفينة كريهة الرائحة.

ـ تاكاموري، أي رائحة زنخة!

ـ لا أدري ما هي؟

بالرغم من أن النهار بلغ أوجه بدا العنبر مظلماً وساكناً سكون الموت. لم تترك المصابيح الكهربائية الصغيرة المعلقة هنا وهناك دون مظلات، أثراً في الظلام. على مبعدة، في زاوية تقع تحت فتحة جانبية فريدة، هنالك عدد من أسرّة القنب. يمكن رؤية ذرات من الغبار في خيوط الضوء المتدفقة عبر الفتحة الجانبية تتراقص في الهواء. على إحدى هذه الأسرة جلس رجل طويل جداً مع حقيبة دوفيل أسطوانية مشدودة بخيط إلى ركبتيه وقد بدا عليه الحزن والقنوط.

ـ غاستون بونابرت؟

هتف تاكاموري وهو لا يزال على مبعدة منه.

ـ وي... نعم، نعم، نعم.

شهقت تومي. «حصان!» الشهقة كل ما استطاعت أن تفعله لتمنع نفسها من التلفظ بالكلمة التي قفزت إلى شفتيها بتلقائية وهي ترى الرجل يقوم ويقترب منهما.

بدا الرجل وقد أظهر الضوء الداخل إلى العنبر من فتحة جانبية صورة ظليّة له وكأنه يرتجف فرحاً وهو يمد يده لتاكاموري. كان وجهه قد اشتوى بالشمس إلى حد جعل اعتباره شرقياً أمراً وارداً دون صعوبة، وهو طويل جداً، له وجه حصان بالفعل!

لم يكن وجهه طويلاً فحسب، أنفه طويل أيضاً. عندما فتح فمه الضخم ليضحك وكشف عن لثته تأكد الانطباع بأنه «حصان».

لأن تومي شابة رومانسية في نهاية المطاف، بالرغم من شخصيتها

الساخرة، فقد حافظت سراً على صورة حلمية لهذا الشاب الفرنسي رافقتها لبعض الوقت. لم يكن من المبالغة أن تأمل من سليل نابليون هذا، إن لم يكن صورة طبق الأصل من تشارلس بوير، فعلى الأقل أن يكون أنيقاً، وسيماً بعض الشيء، وأن يصدر نوعاً من جاذبية الرجولة. لكن غاستون لم يحرز إلا الصفر على كافة هذه الصعد. له وجه السذج الذي لا يمكن اكتشاف بارقة ذكاء واحدة فيه. فإذا كان لابد من مقارنته مع ممثل سينمائي أجنبي فلن يتبادر إلى الذهن سوى الوجه الوحشي الكوميدي للمكسيكي فرناندل الشبيه بالبطاطا. من المستحيل تماماً لفتاة مثل توموي أن تجد فيه أي شيء يمكن أن يجعل قلبها يدق فوق المعتاد.

ـ أقدم لك أختي.

حتى تاكاموري بدا مصدوماً وهو يلتفت ليقدمها.

ـ هل تفهمان يابانيتي؟

سأل غاستون بقلق عميق.

ـ نعم، بالطبع نفهمها.

مد غاستون بحركة خرقاء يداً أشبه بالحافر إلى توموي وهز يدها بقوة. هزة خرقاء زادت من تذكيرها بالحصان. بذلت جهداً كبيراً لتمنع نفسها من إطلاق ضحكة مريرة عندما برقت في ذهنها الفكرة «لقد خُدعنا. خُدعنا خديعة ملكية!»

الإحباط وخيبة الأمل والغم... كل هذه وغيرها من المشاعر ضغطت عليها. انهارت كل الأحلام الوردية التي ظلت ترعاها سراً طوال ثلاثة أسابيع. تشنجت وجنتاها في سيماء تقع بين الرفض والغضب. الأمر برمته غلطة تاكاموري، كل شيء... يا لحماقتنا نحن اليابانيين! قطعنا كل الطريق إلى

يوكوهاما لنرحب في اليابان بصعلوك في جسد حصان. ليس هذا فحسب، بل لقد أكملنا الاستعدادات لاستضافته في بيتنا. انظر فقط إلى ملابسه. إنها بالية إلى حد أن بنطاله ممزق قرب الركبتين. لكنه ليس على مقاسه حتى، إنه أقصر من طوله بستة بوصات.

ـ ما العمل؟

سألت تومويي أخاها بهمسة سريعة لا يمكن لغاستون التقاطها. لو تُرِك الأمر لها لتخلصا منه بسرعة. لكن تاكاموري اكتفى بالإجابة ضاحكاً:

ـ ألا تعلمين ما العمل؟ أولاً نجتاز الجمارك ثم نجد سيارة أجرة. وتعلمين أني اعتدت عليك في دفع الأجرة.

كانت تود بين حين وآخر لو أنها استطاعت أن تصفع مؤخرته صفعة قوية رشيقة.

ـ غاستون.

ـ نعم.

ـ هل تفهم يابانيتي؟

ـ نعم، نعم.

ـ إذن دعنا نخرج من هنا. أين أمتعتك؟

أشار غاستون إلى حقيبة الدوفيل على السرير:

ـ هل هذا كل شيء؟

هز غاستون رأسه.

هنالك فضلاً عن رائحة الطلاء والزيت شيء آخر أسوأ بكثير. وضعت تومويي منديلها على أنفها والتفتت لتنظر إلى الوراء. رأت مرافق صحية

فُتحت بابها على مصراعيها فانطلقت منها تلك الرائحة الكريهة. كانت قد شاهدت منذ عدة سنوات فيلماً بعنوان «سفينة العبيد». وفيه مئتان أو ثلاثمئة عبد أفريقي ظهروا مقيدين بالسلاسل معاً وقد دُفع بهم إلى عنبر شبيه بهذا تماماً.

ـ هل استمتعت بالرحلة غاستون؟

لم يفهم غاستون تاكاموري في المرة الأولى، لكنه التقط المعنى عندما أعاد الكلمات ببطء أكبر.

ـ نعم، كانت جميلة جدا.

عادوا صاعدين السلم محاذرين أن تزل أقدامهم. غاستون الذي اعتاد على السلم تمكن منه ببراعة قرد كبير وهو يناور بساقيه الطويلتين بتمكن على الدرجات. ولأنه كان الأول في الوصول إلى ظهر السفينة فقد وقف ينظر إليهم في الأسفل بوجهه الطويل.

ـ جميل!

بدا أنه يقصد القول إن تومويي جميلة. قدم لها يده بإلفة كبيرة. انزعجت تومويي لكنها لم تتمكن من رفض إيماءته رفضاً قاطعاً بسهولة فقدمت له بدلاً من يدها حقيبتها. فغر فمه الكبير وابتسم بفرح عظيم.

عندما ظهروا على الدكة العليا وجدوا الشمس ساطعة جداً بالنسبة لعيونهم التي تكيفت مع الظلام في الأسفل. وقف الطباخ البدين والبحار اللذان دلّاهما على الطريق إلى أسفل وقد شبك كل منهما ذراعيه. عندما شاهدا غاستون وتومويي معاً صفّرا وألقيا عبارة مشاكسة لغاستون باللغة الفرنسية. ابتسم غاستون مرة أخرى.

بالرغم من أن تومويي لم تكن تعرف اللغة فقد كونت فكرة جيدة عما كانا

يقولان. فكرت أن هذا الشخص يخلو حتى من معرفة حسن التصرف. بسيماء احتقار أبعدت نظرها تتطلع إلى البحر الأزرق وتظاهرت بإهمال وجود كل من غاستون واللذين أطلقا الصفير.

كانت الدكة مهجورة تماما تحت أشعة شمس منتصف النهار. لقد اختفى كل المسافرين وأولئك الذين جاءوا للترحيب بهم من على ظهر السفينة منذ وقت طويل. عندما خطوا نازلين السلم، سحب غاستون خارطة لطوكيو من جيبه. قال:

ـ رجاء، هل تدلاني على نزل جيد؟

ـ نزل؟

ـ نعم، نزل... فندق.

ـ غاستون، أنت ستقيم معنا.

وضح له تاكاموري.

لم يلتقط غاستون مقصده في البداية. كرر تاكاموري ما قاله، وقد فهم هذه المرة.

تجعد وجهه كأنه يوشك على البكاء. تطلع طويلاً إلى تاكاموري ثم مد يده قائلاً:

ـ شكرا لك... أنت شخص عظيم الشفقة.

الفصل الثالث

اللغز

احتاجت عائلة هيجاكي إلى أسبوع لكي تعتاد على زائرها المحير. وخلال تلك الفترة اجتذب غاستون إليه نظرات الدهشة من كل أفراد العائلة، عدا تاكاموري. تومويي على وجه الخصوص كانت منزعجة. أنفها وهو مقياس دال على حالة مشاعرها ظل مزرقاً من الغضب، وكانت تحدق في تاكاموري وكأنها تريد أن تضع كل اللوم عليه.

والحق أن غضبها لم يكن دون مبرر كلياً. لقد بدأت مشاكل مغامرة غاستون منذ اليوم الأول لوصوله. بعد أن غادروا السفينة وافقت تومويي على التاكسي بالرغم من أن اضطرارها أن تدفع الأجرة الباهظة للسفر بين الميناء ومحطة يوكوهاما للمرة الثانية لم يكن مبعث سرور لها. بدا غاستون في سيارة الأجرة مثل طفل في الثالثة من العمر. جلس ملتصقاً بالنافذة وقد سحرته مناظر يوكوهاما في الربيع. وظلّ تاكاموري يشير إلى معالم المدينة أثناء مرورهم بها ويعرفه بها، لكن غاستون بقي يضغط وجهه على النافذة، يمنعه استغراقه في ما يراه عن الإجابة. كان يفتح فمه الكبير بين حين وآخر ضاحكاً مع نفسه، الضحكة الساذجة ذاتها التي أساءت إلى تومويي عندما حياها بها أول مرة على ظهر السفينة. تستطيع تومويي أن تتفهم أنه لابد وأن يتأثر بما كان يرى

في شوارع يوكوهاما إذ هي تختلف كثيراً عن تلك الموجودة في مدينته، كما أنه وصل أخيراً إلى يابان أحلامه. ولكن تبقى تلك الضحكة تفوق ما يستدعيه الموقف.

التفت غاستون إلى توموي وعلى وجهه الحصاني ابتسامة بلهاء وهو يشير إلى مجموعة من الأطفال يلعبون الساموراي بعصي من خشب.

ـ أطفال سان!

استدارت السيارة حول منعطف فأفزعت كلباً هجيناً يرفع ساقه أمام عمود كهربائي. عدا الكلب مبتعدا بسرعة.

ـ كلب سان!

قال غاستون وكان واضحاً أنه يعتقد أن مصطلح «سان» الدال على الاحترام يمكن أن ينطبق على الكلاب كما على البشر.

ما الذي يمكنها أن تفعل سوى أن تهز رأسها قائلة «نعم»؟

ـ كلب سان... خطير.

ـ نعم، هذا خطير على الكلب سان.

كان استرضاؤه أسهل من التنبيه إلى خطئه. بدا أن غاستون مولع بالكلاب. ظل يركز نظره على الكلب الهجين حتى غاب عن نظره تماماً.

لكن هذا كله لا يعد شيئاً يذكر إذا قيس بما حدث فيما بعد. كان الوقت قد تجاوز الثانية عشرة قليلاً عندما وصلوا محطة يوكوهاما.

ـ تومومي، لنأكل شيئاً خفيفاً قبل أن نصعد إلى القطار.

اقترح تاكاموري وهو لا يزال يعتمد على إمكانات أخته الكبيرة، وأضاف:

ـ ماذا لو تناولنا بعض السوشي؟ السوشي في نهاية المطاف هو الطبق الياباني الأول[1].

لابد أن غاستون فهم كلماته لأن وجهه سرعان ما شع وهزّ رأسه بقوة ليعرب عن موافقته.

كانت عيون جميع الموجودين في محل السوشي ـ الخدم والزبائن على حد سواء ـ متجهة إليهم بينما هم يتخذون أماكنهم على النضد. ابتعدت توموي بنظرها جانباً كأنها غريبة عن الرجلين معها. أصغى غاستون إلى شرح تاكاموري عن كيفية أكل السوشي، ثم مد يده فجأة في حقيبته الإسطوانية وسحب قطعة من قماش أبيض لها أشرطة طويلة.

ـ لقد أعطاني هذه بحار على ظهر سفينة يابانية في مارسيليا، تاناكا سان.

قال ذلك بفخر وبصوت عال. بعدها انطلق وأعين كل الموجودين في المحل مركزة عليه يشد الأشرطة على مهل حول عنقه. قال:

ـ لكي آكل السوشي لابد أن أستخدم فوطتي اليابانية.

ثم ضحك ببراءة.

كانت تومري وتاكاموري الوحيدين في المحل اللذين لم ينفجرا في الضحك، إذ أن ما شدّ غاستون حول رقبته كان «الفندوشي» الياباني، وهو غطاء الإلية الذي ما زال بعض الرجال اليابانيين يرتدونه بدلاً من الملابس الداخلية.

* * *

(1) السوشي هو كيك من الرز مغطى بسمك نيئ أو تلف به طحالب بحرية. بعض المطاعم اليابانية متخصصة بتقديمه وحده. م.

في القطار الذاهب إلى شيبويا سأل تاكاموري غاستون بابتسامة ماكرة عن الفندوشي، وكانت القصة التي سمعها هي التالية. قبل يومين من صعوده إلى سفينة «فيتنام» لاحظ غاستون وجود سفينة تحمل العلم الياباني قرب الرصيف. وعند التقصي الدقيق اتضح أنها الناقلة اليابانية «أكاشيرو ـ مارو». مجرد سماع اسم السفينة كان كافياً لإثارته، وهكذا كان من الطبيعي أن ينطلق إلى استكشافها.

تبرع بحار ياباني شاب باسم تاناكا بعرض السفينة عليه، بعدها أخذه إلى كابينته وقدم له الخوخ المخلل والطحالب البحرية والكيك الياباني. لاحظ غاستون من فتحة الكابينة الجانبية قطعة قماش طويلة بيضاء ربطت في نهايتها أشرطة. كانت منشورة هناك لتجف.

ـ ما هذا؟

سأل غاستون مدفوعا بفضوله الذي لا يشبع للتعرف على كل ما هو ياباني.

وجد البحار الشاب نفسه في حرج كبير يمنعه من إخباره الحقيقة، ومع ذلك لا بد أن يقدم شرحاً. أخيراً قال متلعثماً:

ـ تلك... فوطة يابانية.

وكان يوجد في الواقع بعض الشبه بين الفندوشي والفوطة الغربية.

اقترح غاستون مدفوعاً برغبته في أن يحتفظ من زيارته للسفينة بتذكار أن يتبادلا: يعطي تاناكا رباط عنقه مقابل «فوطة» تاناكا. وهكذا لم يجد تاناكا أمامه وقد حُصر في زاوية إلا أن يوافق على التبادل، بالرغم من أنه قد يكون فعل ذلك مع شعور بالذنب متوسلاً في سريرته غاستون أن يسامحه على هذا الخداع.

عندما اتضحت كافة الظروف، أصبح واضحاً أن غاستون لم يقترف أي

خطأ. لقد بلغت براءته حداً أنه صدق ما قاله له تاناكا، فقام في محل السوشي في يوكوهاما بتلك الإيماءة سيئة الطالع بدافع رغبة بريئة في التعبير لتاكاموري وتوموي عن فرحه بوجوده في اليابان.

ولكن على المرء أن يضع نفسه في مكان توموي. فأن تجد نفسها في محل مكتظ بالناس متورطة في الاستعراض المفضوح لمثل هذا الشيء البذيء (لم يكن اليابانيون مستعدين حتى لنطق كلمة «فندوشي» في صحبة مؤدبة) ثم أن يضج المكان بأسره بالضحك على حسابهم، كل هذا يتجاوز الحد. لقد بلغ سخط توموي حداً يكفي لإشعال النار في المحل.

فكرت «حتى لو كان أجنبياً، فإنه أبله... أبله تماماً. أنا أتساءل جادةً إن كانت أبراج عقله سالمة.»

ظلت طوال الطريق إلى البيت، في القطار ثم في الباص، تقف بصمت مشيحة بوجهها جانبا، رافضة التحدث إلى غاستون بالطبع، وحتى إلى تاكاموري.

ـ كوني عاقلة. لم يكن بوسعه تجنب ذلك. ثم أن هذا يومه الأول في اليابان.

حاول تاكاموري وهو يتشبث بالحزام المجاور لحزامها التوسط لغاستون دون نجاح.

ـ إن ذهبتِ إلى الخارج ربما فعلت شيئاً سيئاً مثل هذا.

لكن توموي استمرت تبوز فمها ورفضت أن تجيب.

أما بالنسبة لغاستون فقد جلس وهو يضع حقيبته الدوفيل على ساقيه متطلعا خارج النافذة، منتشياً كما كان من قبل بالمناظر الربيعية ليوكوهاما وطوكيو.

عندما وصلوا البيت حدقت كل من شيزو وماتشان باكتئاب في الرجل الفرنسي. تركت تومويٍ أمر مسامرته للمرأتين الأخريين وقصدت غرفتها مباشرة لتمكث هناك. كانت تتناثر فوق طاولتها المجلات السينمائية التي بحثت فيها عن صور الممثلين الذين أدوا دور نابليون. ولقد زادت سيماء دانيال جلين السوداوية في إحدى المجلات محدقاً بها من غضبها.

ـ وهذه غرفتك...

سمعت تاكاموري في الممر يطلع غاستون على أرجاء المنزل.

ـ رجاءً البيت بيتك تماماً.

ـ هذه ليست نكتة، إنها ورطة!

أرادت أن تصيح بأعلى صوتها.

• • •

اعتقاداً منهم أن غاستون لابد أن يكون متعباً بعد رحلته الطويلة وبحاجة إلى غفوة قادوه إلى غرفته وأعدوا له فراشه. في الساعة الثالثة نزلت تومويٍ وقد هدأ غضبها بعض الشيء إلى المطبخ لتسأل ماتشان أن تعد شاياً وبعض الكيك للضيف. كان في بال ماتشان شيء ما:

ـ تومويٍ سان.

ـ نعم.

ـ هل له صلة بنابليون حقاً؟

ـ يبدو هكذا. لماذا؟

ـ لقد ترك البيت قبل قليل بملابس النوم.

بينما كانت ماتشان تنظف المدخل الأمامي للدار قبل نصف ساعة من ذلك

الوقت، ظهر فجأة غاستون الذي يفترض أنه كان يستريح مرتدياً الكيمونو الصيفي الذي أعاره إياه تاكاموري بدلاً من ملابس النوم.

ـ حذائي...

بدأ يبحث عن حذائه فأتته ماتشان بحذائه الضخم الذي تهرأ وأصبح بحاجة ماسة إلى الإصلاح.

ـ شكراً.

ارتداه على عجل ثم غادر المنزل.

ـ أواه، كلا؟ لماذا لم تمنعيه؟

عندما ميّزت ماتشان نبرة التوبيخ في صوت توموي عبس وجهها.

ـ وكيف لي أن أعرف؟ ظننت أنه يريد أن يتجول في الحديقة فقط.

الكيمونو والحذاء! أي خليط؟ وكم سيكون مصدر إحراج لو شاهده الجيران. ولكن كيف يتسنى لغاستون معرفة أن اليابانيين لا يلبسون الحذاء مع الكيمونو أبداً؟

ـ سأذهب لأبحث عنه. رجاءً استدعي تاكاموري.

طلبت توموي من ماتشان أن تستدعي تاكاموري الذي كان يغفو في الطابق العلوي.

ـ ما الأمر؟

ـ أكثر من أمر! هل كنت مضطراً إلى دعوة ذلك الأبله إلى بيتنا؟

عندما سمع تاكاموري كل ما عندها انفجر ضاحكاً:

ـ أوه، إنه رائع!

اندفعت تومومي إلى الشارع لكنها لم تعثر على أثر لغاستون. فكرت إذا ما

قاده تجواله إلى منطقة الأسواق فسيتكرر ذلك المشهد في محل السوشي. سيجعلهم مادة تندر للجيران. كأن تاكاموري لا يكفي لإزعاجها حتى يصل الآن هذا المعتوه من الخارج ليحل بينهم ويكون مشكلة أشد وطأة من أخيها.

أوقفت مجموعة من الصبيان الصغار كانت أنوفهم رطبة يلعبون في الشارع.

ـ هل مرّ بكم أجنبي من هنا؟

ـ أمريكي يرتدي الكيمونو؟

ـ ليس أمريكياً. ولكن نعم، هو المقصود. أين ذهب؟

في تلك اللحظة عينها وقع بصرها على غاستون يتقدم نحوها بمهل في مشية لاهية. شكله يدعو إلى السخرية بجسده الهائل، يبدو مصارع سومو ملفوفاً في كيمونو قصير جداً وفي قدميه ذلك الحذاء الضخم الفظيع. كان يتبعه كلب هجين رث جائع يضلع في مشيته. عندما رأى توموي ارتسمت على وجهه الحصاني تلك الابتسامة البلهاء التي أصبحت مألوفة الآن.

ـ الكلب سان المسكين، إنه جائع جداً. ألا تعطينه شيئا يأكله.

يا لأعصابه الباردة!

* * *

بعدها حل المساء وحان موعد حفل الترحيب بغاستون. كانت مائدة الطعام التي تقرفصوا حولها مزينة بكل أنواع الأطباق الخاصة. غيّر ضيف الشرف ملابسه وعاد إلى الملابس التي نزل بها من السفينة. جلس مستقيماً على وسادته وقد سحب ركبتيه بحركة خرقاء أمامه. حاول تاكاموري أن يجعله يتربع في جلسته لكن ساقيه كانتا أطول من المعتاد كما انه لم يكن معتاداً على هذا الوضع.

ـ أوه، لا، لا، لا أستطيع!

بدا غاستون وهو يرى كل تلك الأطباق غير الاعتياديه مصفوفة أمامه مستثاراً كالطفل، وبدأ يشير إليها ويعدها:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، عدد كبير كبير من الأطباق.

كادت توموي وهي ترى استمتاعه البريء أن تنسى تحاملها ضده.

ـ هل هذه المرة الأولى التي تأكل بها طعاماً يابانياً، غاستون؟

ـ لقد أكلت الطعام الياباني ذات مرة في باريس.

هنالك مطعم ياباني في باريس يدعى «البيوني» يديره رجل ياباني متزوج من فتاة فرنسية. كان غاستون قد زاره ذات مرة مع بعض الأصدقاء.

ـ ما الذي أكلت فيه؟

سألت شيزو، ثم نظرت نحو تاكاموري خشية أن يكون غاستون عاجزاً عن فهم يابانيتها.

ـ أماه، لا تستخدمي مثل هذه الكلمات الصعبة.

استخدمت شيزو أكثر الصيغ تأدباً للفعل «يأكل».

ـ إذا استخدمت كلمات بسيطة وصمتّ بين العبارات سيفهمك.

كانت نصيحة تاكاموري موجهة للجميع.

ـ غاستون، من الآن فصاعداً سوف ندعوك غاس. غاستون صعب جداً.

ـ نعم، أفهم ذلك.

ـ غاس، ماذا أكلت في البيوني؟

ـ سوكاياكي.

ـ ليس سوكاياكي. الكلمة هي سوكي ياكي[1].

---

(1) سوكي ياكي نوع من اليخنة مصنوعة من شرائح لحم بقر مقطعة إلى رقائق وخليط من الخضروات. م.

كان غاستون فرجة بالفعل. عوداه ينزلان بحركة خرقاء على الطعام في أحد الصحون أمامه، يلتقط بهما لقمة يمسك بها ثم يحملها بحذر نحو فمه فيتقدم الوجه الحصاني باستجابة تامة للقاء العودين، يفتح فمه على اتساعه ثم... هُب! يختفي الطعام في الداخل. شرائح من السمك النيئ، سبانخ... التهم كل شيء بهذه الطريقة. لم يكن في أسلوب تناوله الطعام ما يمكن أن يميزه عن فرس النهر الذي رأته تومويي ذات مرة في أحد أفلام ديزني.

ـ غاس، أنت سليل نابليون، أليس كذلك؟

تمكن تاكاموري أخيراً من طرح السؤال. اتضح أنه ينحدر من الطفل الذي رُزق به نابليون وماريا فاليفسكا.

فكرت تومويي وهي تلاحظ وجه غاستون أن ما يقوله هو الحقيقة. هذا الوجه الحصاني الذي لا تفوق طريقته في تناول الطعام طريقة فرس النهر! لا أستطيع أن أصدق أن يكون جد غاستون ذلك البطل الشجاع الذي تمكن من تحقيق العبور الخطر لجبال الألب والذي واصل مسيره حتى انتصر على إيطاليا. ساورها على حين غرة الشك وأن الرجل يمكن أن يكون زائفاً.

لم تكن تعرف شيئاً عن قوانين مندل في الوراثة ولا قوانين ليتسكو، ولكن بدا غريباً بالنسبة لها أن يختلف العضو الأول في العائلة عن الأخير كل هذا الاختلاف في كل جانب. إن كانا متصلين فعلاً، فأية مأساة!

وإذا تركنا الشكل جانباً لوجدنا أنه حتى في مظهره الشخصي وسلوكه كان يصعب على المرء أن يرى أثراً من نابليون كصعوبة العثور على سمكة في شجرة. لو أن العالم لم يتغير منذ نابليون لكان سليله اليوم يُدعى الكونت غاستون دي بونابرت. حاولت تومويي أن تتخيله في قصر فرساي بثرياته الساطعة يقبل بتبجيل أيدي سيدات أنيقات ويراقصهن الفالس في أرجاء قاعة الرقص.

غير معقول! إن مجرد ربط وجهه الحصاني مع الفالس الرشيق يمكن أن يؤدي إلى تفجير كل ذلك الحلم والتوقعات الرومانسية. ماذا لو أنه يضمر خلف نظرته البلهاء هذه خطة يكيد بها لهم؟ اختلست إليه وقد خطرت لها هذه الفكرة نظرة متفحصة. كان قد توقف عن الأكل وبدأ يتطلع إلى الشباك بنظرة فارغة.

ـ غاستون ألن تأكل المزيد؟

لم يجب.

ـ غاستون.

استدار هذه المرة تجاه تومويٍ وابتسم بحزن.

ـ ما الموضوع غاس؟

سأل تاكاموري بنبرة قلقة وهو يضع جانباً زجاجة الويسكي التي كان يصب لنفسه منها كأساً آخر.

ـ الكلب سان، يريد أن يأكل.

أجاب غاستون وهو يشير إلى صحنه.

ـ الكلب سان؟

فجأة اتضح لتوموي ما يعنيه غاستون عندما استعادت شكله في الكيمونو والحذاء الثقيل وهو يقود ذلك الكلب الهجين المهزول القذر عائداً إلى البيت.

ـ أوو، نعم ذلك الهجين الضال.

اعتاد ذلك الكلب العجوز المنطقة في المحلة. يدخل أحياناً إلى المطبخ ويقلب في أحيان أخرى سطل القمامة مثيراً غضب ماتشان.

نهض غاستون وفتح النافذة. كان من الممكن سماع الكلب يسعل في

الخارج. من الواضح أن الكلاب تصاب بالربو مثل البشر. التقط غاستون بعض الطعام من طبقه ورمى به إلى الكلب، بينما أبعدت توموي وماتشان نظرهما بقرف:

ـ منذ اليوم سيكون الكلب سان صديقكم. كما أنا صديقكم.

أعلن غاستون ذلك وهو ينظر حوله إلى الآخرين وعلى وجهه ابتسامة سعيدة.

حين قصد غاستون غرفته في تلك الليلة تنفست توموي الصعداء. لقد شعرت بإرهاق تام في جسدها وروحها. قالت لتاكاموري باستياء عميق:

ـ الآن، أرجو أن تكون راضياً... بعد أن جئت بهذا الأبله إلى بيتنا.

هز رأسه وأجاب:

ـ ما زال الوقت مبكراً للحكم في ما إذا كان أبله أم لا. ربما فاجأك.

ـ إذا لم يكن أبله فهو شخص مشبوه يدبر خطة ضدنا.

قدّم تاكاموري، الذي كان مسؤولاً عن مجيء غاستون في نهاية المطاف، دفاعاً فصيحاً عنه لكنه فشل في إقناع أخته. يمكن أن يُعزى وجه غاستون الحصاني وحركته البطيئة إلى الإرادة الإلهية وعلى المرء أن يقبلهما إذ ليس في اليد حيلة. لكنها بعد أن أصغت إلى أقواله ولاحظت أفعاله وجدت نفسها مجبرة على الاستنتاج أن عمره العقلي لا يعدو عمر طفل صغير.

ـ كل ذلك يتعلق بالسطح الخارجي. لا ينطبق هذا على فرنسا حسب، لكنه ينطبق على اليابان أيضاً. انظري أي مجموعة نافرة يمثل مثقفونا الذين يصرون على خصوصياتهم.

تكلم تاكاموري باقتناع.

ـ مهما قلت تبقى مسألة الدرجة. الخروج بعد ظهر اليوم بالكيمونو

والحذاء مثلاً... إن ذلك ينم عن خلل في الحس الفطري السليم حتى لو كان لا يعرف تقاليدنا اليابانية.

ـ تلك نقطة جيدة. ربما كان رجلاً عميقاً لا يعبأ بهذه التماهات. على كل حال تومويِ، أنت لا تملكين القدرة على معرفة قيمة الرجال. حتى معي لم تتمكني قط من إدراك حقيقة أني رجل بين الرجال.

رجل بين الرجال؟ شخص مثل تاكاموري ينام طوال ساعات الصباح؟ لا يتوقف عن الإلحاح على أخته من أجل الحصول على مصروفه اليومي؟

فكرت، إن أراد رأياً آخر في الموضوع فليستمع إلى تلك القرقعة في المطبخ! كانت ماتشان تنفس عن مزاجها المتعكر من خلال الصحون. للنساء حساسية دقيقة. عندما يتعكر مزاج ماتشان فإنها تكشف للصحون حقيقة مشاعرها.

قالت تومويِ باستياء:

ـ لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن لأقرباء نابليون فرض أنفسهم على أي شخص مع وجود هذه العينة في العائلة. لقد ضاع ماء وجههم تماماً. لماذا جاء إلى اليابان على أية حال؟

ـ سألته عن ذلك، لكنه لم يعط إجابة مقنعة. إنه لغز، أليس كذلك؟

***

في الصباح التالي أكمل تاكاموري وتومويِ استعدادهما للذهاب إلى العمل.

ـ غاس، ما هي خططك لهذا اليوم؟ كيف تود أن تتجول في أنحاء طوكيو؟

سار غاستون معهما إلى محطة كيودو. كانت في يده خارطة سياحية لطوكيو أشّر عليها تاكاموري بعناية شديدة الأماكن التي يُفترض زيارتها. افترق عنهما في محطة طوكيو.

ـ بعد أن ترى الدايت[1] المجمع الوزاري، اذهب إلى برج طوكيو. إنه أطول حتى من برج إيفل.

ـ أوه، أطول من برج إيفل؟

في غمرة تطلعه الأخرق إلى كل شيء حوله بفضول اختفى غاستون في زحام الصباح.

قال تاكاموري وهو يراقب غاستون المبتعد:

ـ انظري إليه فقط، إنه قادر تماماً على شق طريقه في شوارع طوكيو. لا شيء يدل على الغباء فيه.

ـ هل تظن أنه سيعود سالماً؟

ـ بالطبع سيعود.

ولكن عندما وصل تاكاموري وتوموي إلى البيت في ذلك المساء وسألا غاستون الذي كان قد عاد قبلهما عما رأى في ذلك اليوم اتضح أنه لم ير شيئاً. لقد أهمل خط الرحلة الذي كلف تاكاموري نفسه عناء تأشيره على الخارطة له: الدايت الياباني، مجمع الوزارات، برج طوكيو، وحتى برلسك نتشيجكي[2] الذي حرص أن يحدثه عنه بينما توموي لا تصغي له؛ كل هذه المعالم أهملها.

ـ إذن ما الذي رأيت غاستون؟

ـ معبداً.

قال ثم ابتسم بشيء من الحزن:

ـ والكثير من الأطفال والحمام.

(1) الدايت هو البرلمان الياباني.

(2) مسرح. م

كان قد مر بمارونجي والجنزا[1] دون أن يتوقف للنظر إلى أي شيء فيهما ودخل إلى باحة معبد أمضى فيها النهار يراقب الأطفال والحمام. لماذا نحق السماء عَبَر المحيط إذن وجاء إلى اليابان؟ هذا الرجل يمثل لغزاً بالفعل.

بعدها وقع حادث كشف لهم نمط غاستون. اقترح تاكاموري يوم الأحد أن يأخذه في جولة ليلية في طوكيو. سألت تومو ي:

ـ إلى أين ستذهب به؟ إلى جنزا؟

ـ لا، ليس جنزا. سأريه طوكيو الحقيقية التي لا تعرفينها أنت نفسك تومو ي.

أجاب تاكاموري ضاحكاً وأضاف:

ـ سنذهب نحن الاثنين فقط غاس.

ورغم هذا فإن تاكاموري ما أن تذكر مشكلة النقود حتى سارع إلى إعادة النظر في قراره ودعا تومو ي لترافقهم.

ـ عند إعادة النظر تومو ي، ربما كان نوعاً من التعليم لك مرافقتنا.

حاول أن يجعل الدعوة تبدو اعتيادية دون إلحاح.

ـ هل تنوي إطلاع غاستون على الجانب السيئ من اليابان؟

ـ لا تكوني غبية. لكنك تستطيعين المجيء ومراقبتنا إن شئت.

بعد الانتهاء من الغداء غادر تاكاموري وتومو ي الدار مع غاستون الذي غمرت وجهه ابتسامة سعيدة. كان ما يزال يرتدي البدلة الأصغر من حجمه عدة مرات. استقلوا خط اوداكايو إلى شنجوكو. كانت تلك أول مرة يرى فيها غاستون شنجوكو. أعلن تاكاموري عن فخره أنه يعرف هذا الجانب من المدينة، حتى جحور الفئران فيه.

---

(1) أشهر (وأغلى) مناطق التبضع في طوكيو. م.

ـ لا ضرر من جحور الفئران ولكن إياك أن تأخذه إلى تلك الأماكن التي تمثل عاراً على اليابان.

ـ لا حاجة لتذكيري بذلك.

ولكن ما أن تركا محطة شنجوكو وانطلقوا في الشارع واضعين غاستون بينهما أثناء المسير حتى حدث ما كانت تومو ي تخشاه.

كان غاستون وقد امتلأ إثارة يحدق في كل شيء حوله. تجاوب مع كل شيء ـ أضواء البارات الصغيرة التي تصطف على طول الشارع مثل علب الثقاب والرائحة المغرية للفراخ المشوية وأصوات المنادين يدعون إلى دخول محالهم وصوت الكرات المطقطقة في قاعة الباتشينكو[1].

ـ تاكاموري سان، هذه مفاجأة عظيمة.

ـ ظننت أنك ستحبها. هذه هي القصبة ـ المركز في طوكيو، غاس. اسمع، ألا تحب أن تشرب شيئاً؟

سحبت تومو ي لدى سماع هذه الكلمات معطف أخيها لتعبر عن رفضها. وبينما هي لا تزال تتجادل معه، اقترب شاب يضع يديه في جيبي سترته من غاستون وهمس في أذنه بابتسامة ماكرة شيئاً بألفة وصوت خفيض.

التفتت تومو ي ورأت الرجل ولكن لم تكن لديها فكرة من يكون. أما تاكاموري الذي وقع نظره عليه في اللحظة ذاتها فقد نادى غاستون بسرعة:

ـ غاس، غاس.

أجاب غاستون

ـ انتظر لحظة.

---

(1) لعبة الباتشيكو نوع من آلة للكرات المعدنية الصغيرة توضع عمودياً وليس كما في العرب أفقياً. في المدن اليابانية تكثر المحلات (القاعات) التي لا شيء فيها سوى آلات الباتشينكو م

لاحظا أنه كان يضحك ويتحدث مع الشاب الذي كان لا يزال يضع يديه في جيوبه.

ـ هذا الشاب يريد أن يريني بعض الصور الجميلة لليابان.

ـ لا يهم غاس. هيا بنا.

سحبه تاكاموري من ذراعه وهو يقول ذلك.

ـ لا تسمح لهذا الجلف أن يخدعك.

لم تفهم تومو ي ما كان يحدث إلا بعد أن قدم لها تاكاموري شرحاً سريعاً مفاده أن ذلك الشخص كان يحاول أن يبيع غاستون بعض الصور القذرة.

بالرغم من ذلك لم يفهم غاستون، لكن تاكاموري وتوموي سحباه معهما. ما أن ساروا بضع خطوات حتى لحق بهم ذلك الرجل مرة أخرى. تحداه تاكاموري بصوت خفيض:

ـ حاذر ولاحظ من تقصد بسبابتك. هل تسعى إلى معركة؟

سارعت توموي وقد داخلها الخوف إلى الانتقال خلف أخيها والتشبث به بقوة. بالرغم من قوتها كانت تقصد أخاها في مثل هذه الأحوال من أجل الحماية.

ـ لا تحاولي الفرار أيتها السيدة.

ـ نحن لا نحاول الفرار.

قال تاكاموري بصوت أجش وهو يحمي توموي وأضاف:

ـ لكني أتساءل هل تعرف من يكون هذا الأجنبي؟

ـ ماذا؟

ـ تفحصه جيداً. ألا تتذكره؟ ألم تر صورته في الصحف؟... يبدو أنك ما زلت عاجزاً عن التعرف عليه؟ إنه بطل الملاكمة البرازيلي السيد غاستون

ومن المقرر أن يدخل حلبة النزال الأسبوع القادم لمقابلة يونيكورا. أنا وهذه السيدة من العاملين في الديلي هيرالد.

بعدها نادى تاكاموري غاستون الذي كان يتطلع إلى قاعة الباتشينكو غير منتبه تماماً للدراما التي كانت تجري حوله.

ـ مستر غاستون، رجاءً.

ـ نعم، نعم.

ـ ارم بقاطع الطريق هذا أرضاً.

تكلم تاكاموري بالإنجليزية التي لم يكن غاستون ولا الشاب يفهمانها. وقف الأخير متردداً لبرهة وقد ركز عينيه على تاكاموري وتوموي. ولكنه عندما رأى غاستون يسحب نفسه من قاعة الباتشينكو ويبدأ بالسير باتجاهه تراجع عدة خطوات إلى الخلف واختفى في نهاية الزقاق الواقع بين قاعة الباتشينكو والحانة.

عندما انتهى الأمر بدأت توموي ترتجف بعنف وقلبها يدق.

ـ تاكاموري.

كان تاكاموري يمسح العرق عن جبهته.

ـ علينا أن نخرج من هنا توموي.

أسرعوا مبتعدين ساحبين غاستون معهم. كانت وجوه الناس في الشارع، أغلبهم تناولوا بعض الشراب، تبدي تعبيراً غريباً عندما يرون غاستون.

ظلت توموي ترتجف حتى عندما بلغوا التقاطع أمام صالة موساشينو.

ـ لقد أنقذتنا فعلاً من ذلك الشخص تاكاموري. كانت حكاية طريفة.

بدأ تاكاموري وهو يرى أسهمه ترتفع في عيني أخته بالتباهي:

ـ كان بوسعي التصدي لعشرة مثله.

ـ لنتوقف ونستريح في مكان ما. إن قلبي يدق.

كانوا يقفون أمام مشرب القهوة كولون. يمكن من الخارج سماع نغمات لحن فرنسي عذبة. المحل تخصص في نوع من التقليد الأخرق للأجواء الفرنسية، وقد عُرف بما يسوده من «مزاج فرنسي».

ـ أنا واثق أنك ستحبه غاستون.

ـ هذا المكان فظيع.

قال تاكاموري معترضاً وعلى وجهه تعبير ينم عن الاشمئزاز. وأضاف:

ـ إنه مكان لاستعراض الثقافة الفرنسية يبعث في نفسي الألم.

لكنهم اضطروا إلى الدخول لعدم وجود مكان آخر مناسب في المنطقة. كان الداخل معتماً عتمة حوض لتربية الأسماك. وحتى خلال ساعات النهار، ظلّ الضوء القادم من الخارج محجوزاً بستائر سميكة وهو ما جعل الضوء الكابي الصادر عن المصابيح المعلقة على الحيطان المطلية بلون ذهبي يضفي على وجوه الزبائن الجالسين تحته الهيأة الشاحبة لسمكة في حوض أسماك.

الواقع أن تاكاموري فكر وهو يتطلع حوله الآن أن الوجوه نفسها، حتى بمعزل عن الإضاءة، لها صفة سمكية. عينا ذلك الشاب المولع بالفن صاحب الحاجبين المعقودين على سبيل المثال، الذي بدا أنه يتأمل مشكلة فلسفية ما، كانت تشبه تماماً عيني سمكة بوري رمادية. وتلك الفتاة التي تجلس وعلى وجهها تعبير عن الاستغراق في عالم آخر مصغية إلى أغنية فرنسية محلاة بالسكر تشبه سمكة قاتلة، من نوع عشر سمكات بقرش واحد. وكان الرجل الكهل الذي يتحدث إليها بصوت مكتوم مقرفاً كسمك القودي. لم يتمكن

تاكاموري قط من فهم ما يجده الناس في مشارب القهوة هذه. لم يكن ينتمي إلى ذلك النمط الذي يتنهد بعمق وهو يحتسي قهوته المرة ويصغي إلى «أغنية فرنسية» عن «روح شاعر».

كان مقهى كولون يجتذب فئة خاصة من الشباب الياباني المغرم بكل ما هو فرنسي. كما أن الشباب «الروس» في طوكيو، الذين يرتدون ما يتخيلون أن العمال الروس يرتدونه من ثياب، يتجمعون في حانات معينة ليغنوا الأغاني الشعبية الروسية. مثلهم كان هؤلاء المولعون بكل ما هو فرنسي يتدفقون إلى مشارب القهوة مثل الكولون وعلى رؤوسهم البيريات الفرنسية متأبطين الكتب الفرنسية ليطلقوا التنهدات على وقع الأغاني الفرنسية. تاكاموري، الذي لا يشعر بالاسترخاء في مثل هذه الأماكن، لا يجد نفسه في مكانه الطبيعي إلاّ عندما يكون في الحانات المجاورة.

ولكن لأن تومويي هي من يدفع الفاتورة ولأنهم تعرضوا لتلك المغامرة المزعجة، فإنه لم يجد بديلاً عن اللحاق بها وبغاستون إلى ذلك المحل.

ما أن جلسوا حتى التقطت تومويي أوساكو، الرجل الذي يعمل معها في المكتب، جالساً إلى طاولة مجاورة. نادت عليه. وضع فنجان القهوة الذي استقر بين أصابعه بأناقة جانباً وقد أدهشته رؤيتها واقترب من طاولتهم. كان يبالغ في أناقته وعلى وجهه تركز ذلك التعبير الذي يميز سمك الأنقليس كما هو دائماً.

ـ تاكاموري، أود أن أعرفك على السيد أوساكو الذي يعمل في مكتبي. إنه حفيد البارون أوساكو.

ـ إذن فأنت هو تاكاموري. لقد حدثتني تومويي كثيراً عنك.

بدا صوته أشبه بصوت امرأة.

ـ وهذا...

ترددت تومو ي لحظة. ثم أضافت:

ـ غاستون بونابرت. وصل من فرنسا وهو يقيم معنا.

عند سماع أوساكو كلمة «فرنسا» توترت عضلات وجهه فجأة. ولكنه لم يكن الوحيد في ذلك. الشاب والشابة اللذان يجلسان خلف طاولتهم التفتا ونظرا إليهم بفضول.

ـ هلاّ تفضلتم بالسماح لي بالجلوس معكم.

ـ تفضل.

أجاب تاكاموري وهو يربت على وجهه بانزعاج. أدرك أن كل من كان في المحل حرص على التنصت لحديثهم. أحس بالتململ يسري في كل جسده.

دون مقدمات أخرى سحب أوساكو كرسياً وبدأ يوجه كلامه إلى غاستون مباشرة.

ـ إنها ميزة كبيرة أن أتمكن من التحدث إلى رجل فرنسي حقيقي.

ـ نعم، نعم.

مد غاستون يده وصافح أوساكو.

ـ كل من يقصد هذا المقهى عاشق للفن الفرنسي.

عندها فقط تصادف أن نظر تاكاموري باتجاه الباب. هناك كان يقف قرب الباب الشخص ذو السترة الذي حاول أن يبيع غاستون صوراً قذرة. ولم يكن وحده. كان معه رجل قوي البنية يرمي على كتفيه معطفاً رياضياً زاهي الألوان. هنالك احتمال كبير أن يكون من الملاكمين السابقين. كانا يضغطان وجهيهما على الباب الزجاجي بين الحين والآخر ليتمكنا من رؤية طاولة تاكاموري بشكل أفضل.

تطلع تاكاموري حوله بهياج شديد بحثاً عن باب خلفية للخروج. وغاص قلبه حين أدرك تعذر ذلك. عليهم إذن أن يواجهوا التحدي عند البوابة الأمامية.

ـ هل أعجبتك طوكيو؟ إنها مدينة قذرة جداً، أليست كذلك؟ باريس الآن مدينة رائعة... المركز الفني للعالم... أشجار الكستناء ونهر السين. طوكيو مكان فظيع. لا يمكن أن تقارن نفسها مع باريس، ما رأيك؟

استمر أوساكا وهو يوجه كلامه إلى غاستون وتوموي ينتقد طوكيو واليابان بهذه النبرة. كان النفور من البلد الذي ولدوا فيه والمدينة التي يعيشون فيها من الصفات المميزة لهؤلاء المولعين بفرنسا. وكان من الصعب تحديد إن كان غاستون يتابع الحديث أم لا. حدق بعيون مفتوحة على اتساعها بأوساكو وفمه فاغر إلى النصف.

حتى تاكاموري، وبالرغم من كل بلاهته في مثل هذه الأمور، أدرك أن أوساكو لم يكن في الواقع يتحدث إلى غاستون على الإطلاق، بل لأخته توموي.

ـ إضافة إلى ذلك فإن اليابانيين هذه الأيام يقلدون كالقردة الثقافة الأمريكية في كل شيء. يقلدون كالقردة الثقافة الأمريكية... غاستون، هل تفهم معنى كلمة «قرد»؟

ـ قرد؟

بدا صوت غاستون ناعساً.

كلما صادف تاكاموري شخصاً مثل أوساكو في حانة أو مقهى، أصبح جلّ همه الخروج بأسرع وقت ممكن. وليس السبب قناعته بخطل كل ما يقول هؤلاء، لكنه لم يكن في المقام الأول ماهراً في هذا النوع من التفكير المجرد. عموماً، بدا له على نحو ما أن أوساكو يجانب الصواب في إظهار الاحتقار لناسه ومدينته أمام شخص أجنبي وفتاة مثل توموي.

لكنه لا يجد مفراً من البقاء. ما زال قطاع الطرق على الباب يركزون أنظارهم عليهم. كان واضحاً أنهم متربصون.

ـ قرد!

قال أوساكو بصوت عال دون أن يعي ما كان يمر بعقل تاكاموري.

ـ تومويي، كيف تقولين «قرد» بالفرنسية؟

ـ ثق أنني لا أعرف.

ـ قرد... أي نسناس.

التفت أوساكو إلى غاستون وبدأ يقلد حركات القرد.

ـ أووه، قردا!

قال غاستون بصوت عال وهو يهز رأسه، ثم أضاف:

ـ أنت قرد، كما أفهم.

انفجرت تومويي بالضحك. بدأ أوساكو وقد انزعج بتحريك الشاي بملعقته بقوة. لم يكن لديه ما يقول.

ربما حدس غاستون أن كلماته قد أساءت إلى رفيقه. التفت مكتئباً نحو تاكاموري وتطلع إليه بوجه حزين. اقترحت تومويي وقد أصابها الإحراج أن يغادروا المكان. ودون أن تنتظر استجابة أمسكت حقيبتها ونهضت.

ـ أنا ذاهب أيضاً.

قال أوساكو وهو يقوم من مكانه كذلك.

حدج تاكاموري الباب مرة أخرى. عندما لاحظه الرجل ذو السترة ينظر باتجاهه أخفى نفسه في الظلال بسرعة.

وقف أوساكو وتومويي لا يعلمان بالخطر الذي ينتظرهما جنباً إلى جنب قرب الطاولة. حاول تاكاموري أن يخفي نفسه خلف غاستون.

عرض أوساكو:

ـ تومو ي، دعيني أدفع الحساب.

ـ لا، بالتأكيد لا.

مد كلاهما يده إلى الفاتورة. لم يأبه تاكاموري أي الاثنين سيدفع ما دامت محفظته لن تُمس. اختلس نظرة أخرى إلى الباب من مخبئه خلف كتفي غاستون. لم ير أحداً هناك. ربما كان الرجلان مختبئين.

ـ تومو ي، لحظة رجاءً.

أمسك تاكاموري وقد أصابه الارتباك بأخته وهي توشك أن تسبق الآخرين إلى الباب. سيكون الوضع فظيعاً لو أنها خطت إلى الخارج وهوجمت فجأة.

ـ هل من مشكلة تاكاموري؟

بدا كلامها، ربما لوجود أوساكا، متكلفاً بعض الشيء.

ـ لدي شيء هام أقوله لك.

تطلعت إليه تومو ي بريبة تاركة المجال لأوساكو وغاستون ليسبقاهما.

ـ بعدك، مسيو.

فتح أوساكو الباب وعلى وجهه ابتسامة وقاد غاستون بألفة بالغة من ذراعه.

ـ ما الأمر؟

نظرت تومو ي إلى تاكاموري.

ـ فقط انتظري هنا لحظة.

ـ ما المشكلة؟

كما توقع تاكاموري تماماً، ما أن وصل أوساكو وغاستون إلى الشارع حتى ظهر قاطعا الطريق ووقف كل منهما على جانب.

ـ أوه، ذلك الرجل نفسه!

هتفت توموي وهي تمسك بذراع تاكاموري.

ـ بالضبط!

ـ ما العمل؟

التفت الرجل الثاني، الذي ربما كان ملاكماً محترفاً، نحو تاكاموري وتوموي. أوساكو، الذي شحب وجهه وتلوى، نظر هو الآخر باتجاههما. همس له قاطع الطريق بضع كلمات وبدأ يبتعد، أما أوساكو فقد تبعه ووجهه المرتعب ما زال ملتفتاً ناحيتهما. تبعهم غاستون وعلى وجهه ابتسامة ودودة.

قالت توموي: سأتصل بالشرطة.

ـ ليس حلاً. ليست لدينا فكرة عن المكان الذي يأخذانه إليه.

صمتت توموي برهة. تصاعد إلى وجنتيها غضب شاحب وبدأ أنفها يرتعش. كان تاكاموري يعرف من تجربته الطويلة أن لا تهديد بالعنف يمكن أن يوقفها أبداً عندما تكون حالتها هكذا. قالت بتصميم:

ـ سأذهب معهم. هيا معي. لن نسمح لهم بعمل ما يشاؤون.

ثم أضافت وقد لاحظت أن تاكاموري لم يجب مباشرة:

ـ هل أنت خائف؟ أيها الجبان!

ـ حسنا إذن، هيا بنا.

حتى تاكاموري، الذي كان في نهاية المطاف رجلاً، لم يرد أن تعده أخته جباناً. فضلاً عن ذلك فهم ثلاثة بينما العدو اثنان. ولكن ما عساه يرتجي من المرتخي أوساكو هذا؟ وماذا عن غاستون؟ إذا ما فهم الحالة فإنه سيهب للنجدة بكل تأكيد.

راقب قاطعا الطريق تاكاموري وتوموي يقتربان.

ـ حسناً، دعوهما جانباً.

استطاع تاكاموري أن يجعل صوته يبدو خشناً في الأقل.

بدا أن أوساكو اكتسب قوة جديدة. بصوته الأنثوي عالي النبرة رجاهما أن لا يستخدما العنف.

ظهر فجأة قاطعا طريق آخران لم يُلاحظ وجودهما من قبل من حيث لا أحد يدري واتخذا مكانيهما إلى يمين ويسار تاكاموري وتوموي. بدا أحدهما كالأبله. كان فمه شبه مفتوح وهو يعبث بدمية صغيرة في يده.

لم يلاحظ المارة مصيبتهم. على مسافة ليست بعيدة في الشارع يمكن أن يصلوا بهم إلى صف من الحانات معروف أنها وكر لأشقياء شونجوكو هؤلاء. هنالك زاوية مظلمة خلف محطة شنجوكو يغطي صوت القطارات المستمرة في المرور بها على كافة الأصوات الأخرى حيث تطبق على المكان رائحة البول الراكد دائماً. أدرك تاكاموري أنهم يقادون إلى ذلك المكان.

فجأة توقفت تومي على نحو حاد ونادت اثنين من الطلبة كانا يمران بهم:

ـ أرجوكما النجدة! قطاع الطرق هؤلاء يهددونا!

تطلع الطالبان إليها وعلى وجهيهما تعبير يدل على الاستغراب سرعان ما أصبح خوفاً عندما اتخذ الرجل صاحب المعطف الرياضي الزاهي، الذي بدا واضحاً أنه القائد، وضعاً يدل على التأهب للهجوم.

ـ عفوا أيها الأولاد.

قال القائد بصوت خفيض وعلى وجهه ابتسامة:

ـ بالغت فتاتي قليلاً في الشراب.

بلغ خوف الطالبين حداً جعلهما يقفان جامدين، عاجزين عن الحركة. وهنا قدم لهما القائد بالصوت الخفيض نفسه ولكن بحدة أكبر نصيحته:

ـ ألا تعتقدان أن من الأفضل لكما الذهاب؟

عادة ما يعجز المثقفون الطامحون عن إبداء أية مساعدة في مثل هذه الحالات. لم يتطلب الأمر حسابات كثيرة من الطالبين ليدركا أنهما لن ينتفعا بشيء من توريط أنفسهما في هذا الأمر، وهكذا أسرعا في الابتعاد وقد تشنج وجهاهما خوفاً.

حتى القائد قال وهو يراقب ذهابهما مضطراً:

ـ الأوغاد الجبناء... أين الشجاعة؟

أحتار أوساكا الذي كان تحت مراقبة الشخص الأول ذي السترة تلك اللحظة بالذات التي غفل بها قطاع الطريق فانطلق هارباً صارخاً بصوت جهوري له صرير الحك على معدن.

ـ الوغد!

هتف حارس أوساكو، لكنه وجد وهو يتقدم للحاق به أن أوساكو قد ابتعد مسافة كبيرة. ركض أوساكو مصطدما بالناس، معترضاً الفتيات اللواتي كن في طريقه، مستقيما كالسهم دون خجل أو اهتمام بالمظاهر وظل يعدو حتى اختفى عن الأنظار.

أحيراً أدرك الناس في الشارع الحالة. توقفوا برهة ونظروا إليهم. لكنهم لم يختلفوا عن الطالبين. لم يرفع أحد أصبعاً لتقديم المساعدة.

ـ غاس، توموي، الآن!

صاح تاكاموري وهو يقذف بكل ثقل جسده على المتخلف عقلياً صاحب الدمية الذي كان يحرس توموي، أمسك بيدها وأنطلق راكضاً. شقا طريقهما

عبر الزحام. كانت تومويي تشعر بالوهن. لم تتذكر شيئاً عن الدقائق القليلة التالية، لكنها رأت عندما استعادت وعيها كاملاً أن غاستون لم يكن معهما. كانت يدها لا تزال في يد تاكاموري، لكنهما كانا يقفان الآن في الشارع الرئيس الذي كان ضياء النيون فيه باهر الإضاءة كأنه النهار.

وقفت تومويي تستريح مستندة إلى عمود إضاءة، غاض الدم من وجهها تماماً وهي تلهث. هنالك كابينة شرطة أمام محطة شنجوكو. قاد تاكاموري أخته التي ظلت عاجزة عن الكلام إلى تلك الكابينة ودون أن يضيع أي وقت في تقديم التفسيرات قال باستعجال:

ـ رجاء تعالوا معنا. يحاصر بعض المشاكسين صديقاً من الخارج.

ـ أين؟

سأل رجل الشرطة بصوت واقعي هادئ. فهذا الأمر بالنسبة له مسألة روتينية.

ما الذي حل بغاستون في تلك الأثناء؟ عندما رأى أوساكو يهرب صارخاً، ثم سمع تاكاموري يدعوه مع تومويي، ثم رآهما يهربان أيضاً أدرك أخيراً أي نوع من الرجال حوله. بدأ مثل الروبوت يتحرك بتثاقل نحو حشد اليابانيين الذين كانوا يراقبون الموقف من مسافة تضمن لهم الأمان بعيون عكست الخوف والفضول.

ـ هيي! انتظر لحظة!

صاح عليه قاطع الطريق صاحب الدمية:

ـ ألن تشتري هذه الصور؟

ظلّ غاستون صامتاً.

ـ أتشتري هذه الصور أم لا؟

توقف غاستون وهز رأسه وقد علت وجهه الطويل ابتسامة.

ـ أصدقائي...

ـ لا يعنيني في شيء أمر أصدقائك. أنا أتكلم إليك... هيي، أتعاني من رخاوة في أحد براغيك أم ماذا؟

تقدم القائد منه ببطء فتراجع الجمع الراصد. ركز الرجل عينيه الباهتتين على غاستون وتفحصه على مهل من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه. بعدها التفت إلى تابعه وعلى وجهه تعبير عنيف:

ـ ما الذي تعنيه بحق الجحيم؟ إن هذا ليس من أبطال الملاكمة. انظر إلى يدي الوغد. هاتان اليدان لم تدخلا الحلبة قط. حسنا، نشينو، تول أمر العناية به.

اقترب منه نشينو، وهو قاطع الطريق الذي اقترب من غاستون وأصدقائه أول مرة، ويداه ما زالتا في جيبيه.

لقطاع الطرق قيم هم أيضاً. هنالك فخر كبير جداً في مهاجمة مصارع شهير على سبيل المثال، أكبر من الفخر الموجود في تخويف طالب مدرسة. وكانت مكانة نشينو في العصابة سترتفع درجة لا محالة إذا ما ضرب شخصاً ضخماً له جسد بقرة. فضلاً عن ذلك فهو رجل أجنبي.

ـ أنتم أيها الأمريكان الملاعين! تطوفون في كل مكان في اليابان كأنكم تملكون البلد!

سحب نشينو يدين ملفوفتين بقماش أبيض من جيبه واتخذ وضع الكاراتيه.

ـ وداعاً للجميع. وداعاً!

صاح غاستون وعلى وجهه ابتسامة بدا وكأنها ملتصقة بوجهه.

قفز نشينو إلى أعلى في الهواء وانقض عليه بكلتا يديه ورجليه، موجهاً

ضربات إلى بطنه وركبتيه. انطوى جسد غاستون الهائل على نفسه وقد ندت عنه آنة عالية.

ـ أوو، لا، لا... تسي ما في مال...[1]

ـ أيها اللقيط أزرق العينين!

بدا أن غاستون قد نسي في غمرة ألمه كل يابانيته. انقض عليه نشينو للمرة الثانية ثم الثالثة. راقب الحشد المشهد بمشاعر مختلطة. شعروا في آن واحد بتعاطف موجع مع غاستون وبمتعة واخزة ـ وهي تلك المتعة التي جربها اليابانيون منذ وقت طويل عندما استطاع المصارع الياباني الضئيل ريكيدوزان من هزيمة المصارع الأضخم منه بكثير المدعو شارب بروذرز. لم يحاول أحد مساعدة الأجنبي.

أخيراً رفع غاستون ذراعه ببطء وتطلع طويلاً إلى وجه نشينو. فكر المتفرجون «لقد ثار غضبه الآن وسوف يردّ الهجوم.» ولكن غاستون بدلاً من أن ينتصب بجسده الكبير لكي ينقض على مهاجمه، اكتفى بحماية وجهه الشبيه بالبطاطا بذراعه. بقي واقفاً هناك لبعض الوقت يغطي وجهه دون حراك. تطلع الزحام بصمت وقد حبسوا أنفاسهم بانتظار أن يتحرك هذا الأجنبي الغريب. أما نشينو، الذي كان يستعد لهجومه اللاحق، فقد نظر إليه مع بقية قطاع الطرق بذهول. قال غاستون وهو يزيح يده عن وجهه:

ـ أوه، لا، لا.

سالت من عينيه دموع كاللؤلؤ:

ـ أوه، لا، لا. يجب ألا تفعل هذا... لماذا تحاول أن تؤذيني؟

يقال إن الأبقار تذرف الدموع إذا ضُربت دون وجه حق. وقد ارتسم على

---

(1) «أنت تؤذيني.» بالفرنسية. م.

وجه غاستون الاكتئاب القاتم نفسه الذي يُرى على وجه البقرة إذا ما أساء سيدها معاملتها.

ـ انظر! إنه مجرد طفل بكّاء ضخم!

قال أحد قطاع الطرق باستخفاف، ذلك الذي يحمل دمية وله وجه أبله.

تضرع إليهم غاستون قائلاً:

ـ نحن جميعاً... أصدقاء. جميعاً... أصدقاء!... لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

ظل يكرر الكلمة الأخيرة مرات ومرات.

لم يتمكن جمع اليابانيين الذي يقف يراقب المشهد من ملاقاة نظرة التوسل التي ألقاها عليهم وبدأوا ينتشرون في كل الاتجاهات. قائد العصابة أيضاً، الذي كان يلقي معطفه على كتفيه، استدار فجأة وابتعد. لقد شعر كلٌّ من المهاجمين والمتفرجين، لسبب أو لآخر، بشيء ما أشبه بالخجل ينفجر في قلوبهم.

بعد أن غادر الجميع، بقي غاستون واقفاً في مكانه لم يحد عنه قيد أنملة. وهناك وجده تاكاموري ورجل الشرطة.

ـ غاس!

صاح تاكاموري وأمسك بيده. انتشرت على وجه غاستون ابتسامة الصبي الصغير التي تميزه. لاحظ تاكاموري أن بنطلونه قد تمزق وتلطخ بالدم.

عادا إلى كشك الشرطة، وبعد مرور ساعة مضت في الإجابة عن كل أسئلة الشرطة، انطلقوا إلى البيت.

ـ هل كان الضرب مؤلماً غاس؟

ـ لا، أنا بخير.

امتنع تاكاموري عن الكلام تقريباً طوال الطريق إلى البيت. كان ضميره يؤنبه. لماذا ترك غاستون خلفه وولى هارباً؟

فكرت تومويي وهي تنظر إلى الخارج باتجاه أضواء النيون تمر خلف نافذة السيارة: أن يبكي بهذا الشكل... رجل بضخامته. ألا يملك أي احترام لذاته؟ أن يدعهم يضربونه دون حتى أن يحاول الدفاع عن نفسه... ومع هذا الجسد الهائل أيضاً! لكنها أحست بالرغم من ذلك بمودة تجاه هذا الرجل لأول مرة، ذلك النوع من المودة الذي يمكن أن تشعر به أم تجاه ابنها المعوّق.

فكر تاكاموري، كان المفروض أن لا أصطحب غاستون إلى شنجوكو في الليل على الإطلاق. شعر بالرغم من كل ما عُرف عنه من انعدام الإحساس بالمسؤولية وتبسيط الأمور أنه مسؤول بعمق عن ما حدث ويود الاعتذار عما صادف غاستون من سوء الطالع.

ـ غاس، لا تجعل المشاعر السيئة تسيطر عليك بصدد ما حدث. ليس كل اليابانيين كهؤلاء الذين رأيتهم الليلة.

هز غاستون رأسه وهو ينظر أمامه باستقامة. بدا تائهاً مع أفكاره. كان باستطاعة تاكاموري فهم مشاعره. أن يقطع كل هذا الطريق عبر العالم إلى يابان أحلامه ليُضرب في يومه الأول في البلاد ويرفسه اليابانيون بالأقدام.

ـ تومويي، كانت تلك كارثة حقيقية.

حدست تومويي حزن أخيها فحاولت رفع معنوياته:

ـ هوّن عليك. انتهى كل شيء. عندما أصل البيت سأعمل كيكة لك ولغاستون.

عندما وصلوا إلى البيت أخيراً، استعاد غاستون ابتسامته وطبعه الودود المعتاد. وضع أصبعاً على فمه وقال للآخرين:

ـ لنتفق على أن لا نقول شيئاً لأمكم أو ماتشان. لنبق الأمر سراً. سنقول لهم أني وقعت ومزقت بنطلوني، حسناً؟

فهم تاكاموري وتوموي أن غاستون لم يشأ أن يكون سبباً في قلق أمهما وماتشان. فكرت توموي: قد يكون جباناً ينقصه احترام الذات، غير أن له قلباً طيباً بالتأكيد. شعرت أن بإمكانها أخيراً فهم صفاته الإيجابية فبدأت تنظر إليه بعيون جديدة.

كانت كيكة الشكولاتة التي أعدت لتساعدهم على نسيان أحداث المساء مفاجأة عظيمة لغاستون. قذف بها بفرح إلى فمه الكبير الذي ظل بالرغم من التقدير الذي اكتشفته توموي حديثاً في نفسها تجاهه يذكرها بفم فرس النهر.

فجأة ارتسم على وجه غاستون انطباع شديد الجدية وقد توقف عن الأكل واستدار ناحية تاكاموري:

ـ لدي أمر مهم أريد أن أناقشه معك.

ـ ما هو غاس؟

تردد غاستون. نقل نظره بين شيزو وتوموي وكأنه يجد صعوبة في الكلام بوجودهما. فهم تاكاموري في الحال وقال:

ـ غاس، هل نصعد إلى الطابق الثاني؟

ـ نعم، نعم.

صعد غاستون السلم بخطوات بطيئة مسبوقا بتاكاموري. توموي، التي بقيت في غرفة الطعام، فتحت الراديو وانتظرت عودتهما. لقد أزعجها أن غاستون، الذي زادت جديته فجأة، لم يدعُها لتنضمّ إليهما. كانت شديدة الفضول لسماع ما لديه.

بثّ الراديو قطعة موسيقية مفضلة لديها هي «تابو». لم يكن تاكاموري

وغاستون قد نزلا بعد. فكرت إن كان عليها أن تصعد وتتنصت. هي امرأة في نهاية المطاف، ومثل أغلب النساء كان لديها ولع بمعرفة أسرار الآخرين.

أخيرا سمعت وقع خطوات أخيها على السلم. عندما التفتت إليه لاحظت على وجهه كدراً عميقاً، وهو أمر بعيد كل البعد عنه. سألت بصوت خفيض ولمعت عيناها:

ـ ما الخطب، تاكاموري؟

ـ يقول غاس إنه يريد أن يغادرنا.

أجاب تاكاموري وهو يضع يديه في حزامه.

الفصل الرابع

المستوحد

ـ هل يقول إنه يريد مغادرتنا؟

ـ نعم.

أطرف تاكاموري عينيه ليمنع نزول دمعه.

ـ إذن فهو غير سعيد معنا. بعد كل ما فعلناه للترفيه عنه! أعتقد أنه لؤم.

ـ لا، ليس ذلك.

ـ لا بد أن صدمة ما حدث في شنجوكو كانت كبيرة عليه جداً. ربما خاب أمله في اليابان.

فكرت تومويي في سرها أن تقصيرها وأخيها في الدفاع عنه يستحق اللوم لكن هذا الضيف يجب أن يتحلى بقدر أكبر من الشجاعة فيرد. هنالك ملايين اليابانيين في نهاية المطاف والثمر الفاسد يوجد على كل الأشجار. أن يلتقي بحفنة صغيرة من اليابانيين فيسببوا له كل هذا الاضطراب لأمر تعوزه الرجولة. اختلج انف تومويي انزعاجاً.

ـ هذا ما تصورت أنه السبب في البداية. لكن غاستون يقول إن ذلك ليس سبب رغبته في المغادرة.

ـ ليس السبب؟ ما السبب إذن؟

ـ يقول إنه يريد أن يتعرف على الكثير من اليابانيين. يريد فرصة اللقاء بكل الأنواع.

جلس تاكاموري أمام أخته. لف ذراعيه حول ساقيه وأراح ذقنه على ركبتيه. ظل لبعض الوقت يحدق في بقعة واحدة على الأرضية غارقاً في أفكاره.

ـ ألا ترين أن غاس رجل غريب الأطوار؟

قطع تاكاموري تأملاته قائلاً وأضاف:

ـ إنه شاذ الطباع بالفعل، فهو لا يشبه الغالبية العظمى من المسافرين والسواح. لا تهمه رؤية برج طوكيو أو بوذا الكبير في كاماكورا. كل ما فعله منذ وصوله هو التجوال ومصاحبة الكلاب والأطفال. إنه يسحرني فعلاً لكني لا أملك أدنى فكرة عن ما يحمل في رأسه.

ـ ولكن لا بد أن لديه سبباً يدعوه لزيارة اليابان.

ـ لقد سألته، يبدو خجلاً من البوح به. ومع ذلك، أنا واثق أن لديه غاية محددة في رأسه. لقد جاء لتحقيق شيء ما.

ـ من الصعب أن يكون مهرّباً، ما رأيك؟ أو جاسوساً أرسل لنبش أسرار قوة الدفاع عن النفس؟ هل تعتقد أن ذلك ممكن؟

كانت الصحف تحفل بأخبار الأجانب الذين اعتقلوا بسبب التهريب. وهم عادة ما يقصدون طوكيو تجتذبهم عالمية المدينة قادمين من موانئ مثل هونغ كونغ وسنغافورة. هذا الموضوع هيمن على الأحاديث في شركة ديسانتو التجارية التي تعمل فيها تومويي.

ـ هل أنت مجنونة؟

نظر تاكاموري إلى أعلى نحو السقف، وعندما فكر في غاستون في الطابق العلوي أطلق زفرة. استرجع هايكو باشو الشهير عن عزلة الإنسان في الخريف وطبّقه على ظروفهم الحالية:

«حلّ عمق الربيع.

وأنا أتساءل:

حاري، كيف يعيش؟»

سمعا درجات السلم تصرّ تحت خطوات غاستون الثقيلة. بعد مرور دقيقة فتح غاستون باب الغرفة ودس رأسه الحصاني بخجل داخله.

ـ سمحا لي.

ـ غاس، تعال واجلس معنا.

دخل غاستون الغرفة. نظر ببعض الحزن إلى تومو وأحنى ركبتيه بحركة خرقاء ليجلس.

ـ تومو سان. لقد تحدثت إلى أخيك. أنا شاكر حقاً عطفك. لكني أقول لتومو سان أورفوار.

حثه كل من تاكاموري وتومو على البقاء معهم. أصغى غاستون بأدب وهو منكس الرأس ثم أجاب:

ـ شكراً، شكراً لكما، لكني...

كرر ذلك مرات ومرات كالببغاء لكنه لم يستطع أن يضيف إليه شيئاً. قال تاكاموري في محاولة لطرح حجة لبقائه:

ـ غاس، تقول إنك تريد أن تقابل الكثير من اليابانيين لكنك تستطيع أن تفعل ذلك وأنت معنا.

قالت تومو وهي تضم جهودها إلى جهود أخيها:

ـ هذا صحيح، غاستون. أي نوع من الناس تريد مقابلته؟ سنفعل كل ما بوسعنا من أجلك. ألسنا كذلك تاكاموري؟

استقرت يدا غاستون بحركة خرقاء على ركبتيه. لم يسبق لتاكاموري وتوموي أن شاهداه على هذه الحال من قبل. فهو الذي اعتاد أن يسارع إلى هزّ رأسه إلى أعلى وأسفل مبدياً علامة الموافقة المألوفة، ظل رأسه هذه الليلة ساكناً بعناد.

أخيراً استسلم تاكاموري:

ـ إذن لا مفر من الأمر. توموي، علينا أن ندع غاس يفعل ما يراه الأفضل... ولكن أرجوك يا غاس أن تعود إلينا متى ما شعرت بالرغبة في ذلك. ما دمت في اليابان لديك بيتٌ هنا.

قال ذلك بتأثر.

عندما تم حسم كل شيء، نهض غاستون. قصد غرفته وأنزل أربع رزم ملفوفة في صحف فرنسية. أعطى واحدة لتاكاموري وأخرى إلى توموي.

ـ تفضل، تاكاموري سان. تفضلي، توموي سان.

وطلب منهما أن يعطيا الرزمتين الأخريين لأمهما التي كانت قد أوت إلى فراشها بالفعل، وإلى ماتشان. عندها هتفت توموي مستغربة:

ـ غاستون، هل تفكر بالمغادرة هذه الليلة؟

ـ نعم، الليلة الآن.

لم يكن ذلك ليخطر على البال!

ـ غاس، ذلك مستحيل! أنت لا تملك مكاناً تقضي فيه الليل.

ـ لا تقلقي. لا تقلقي. في السفينة لم أجد ضيراً من النوم حتى على ظهر المركب.

انبثقت في كل وجهه ابتسامة. قالت توموي:

ـ سأستدعي أمي وماتشان.

عندما علمت شيزو بقرار غاستون المغادرة أسرعت إليه وحاولت هي أيضاً أن تثنيه بكل الوسائل عن عزمه. ولكن مهما أخفى من أسباب، لم يكن بوسع أحد إقناعه بالبقاء.

ـ أنا جبان. ربما أكون في حال أسوأ غداً. عندها سأرغب في العودة إلى دار تاكاموري. لكني حزمت أمري هذه الليلة.

اعتذر باستفاضة، وهو يتطلع إلى تاكاموري وتوموي، لأنه يسبب لهم كل هذا الإزعاج.

اقترحت شيزو وقد انشغلت بجدية:

ـ تاكاموري حاول على الأقل أن تعد له مكاناً يقيم فيه.

لكن تاكاموري لاحظ أن قرار غاستون في أن ينطلق لوحده لم يكن قابلاً للتغيير.

ـ لا، أعتقد أن أفضل ما يمكن أن نفعله الآن هو أن ندعه يذهب كما يشاء.

وقف غاستون وهو يحمل حقيبته الأسطوانية في باب الدار مع كافة أفراد العائلة الذين اصطفوا لتوديعه. كان الأمر مفاجئاً وغير متوقع إلى حد أن ماتشان نسيت لدهشتها أن تخرج حذاءه وكان لابد من تذكيرها بذلك. اكتفت بالوقوف معهم تحدق فيه.

لوح غاستون حتى لماتشان:

ـ وداعا ما تشان. شكرا لك.

عبّر في حالة أقرب إلى البكاء عن شكره لكل واحد منهم.

ـ وداعا، غاس. كن حريصاً على العودة إلينا.

عندما وصل إلى ظلمة الشارع استدار جسده الهائل إليهم مرة أخرى ولوح بيده دون مهارة. عندما مضى في سبيله التحق به رفيق.

ـ إنه ذلك الكلب!

صاحت تومويي. الكلب الهجين الذي صادقه غاستون ظهر فجأة من اللامكان وبدأ يضلع خلفه. غمغمت تومويي:

ـ لا أفهم. أنا ببساطة لا أفهم.

***

كانت النجوم تتوهج، لبعضها لمعان حاد بينما تغمر بعضها الآخر عتمة لطيفة. شعر غاستون وهو يتطلع إلى سماء الليل النحاسية ترشها سحب لامعة من النجوم وكأن أجنحة نبتت له وأنه مدعو إلى الطيران نحوها.

لقد أحب غاستون منذ الطفولة التطلع إلى النجوم. كان قد أمضى معظم ساعات الليل على ظهر السفينة القادمة إلى اليابان شابحاً ببصرة إلى السماء. رأى النجوم في السماء الحليبية للبحر المتوسط في الصباح الباكر، والنجوم الصغيرة الساطعة في الليل الأفريقي المعتم، والنجوم فوق المحيط الهندي، وهي لا نهائية العدد مثل هذه التي يراها في ليلته الآن.

النجوم لا تتحرك أبداً. لكنه هو... هو قطع كل هذا الطريق إلى اليابان. وهو يجد نفسه هذه الليلة وحيداً مرة أخرى.

إلى أين يتجه؟ لم يكن لديه وجهة يقصدها. وليس لديه مكان ينام فيه هذه الليلة. لكن هذه الطريقة في الحياة هي ما اختار لنفسه.

ـ أيها الكلب سان.

خاطب الكلب الهجين الذي جثم عند قدميه:

ـ الكلب سان ليس لديه مكان ينام فيه، مثلي.

عندما بدأ مسيره لحقه الكلب مترنحاً وهو يسعل دون توقف.

ـ لا، لا أيها الكلب سان. وداعاً.

لكن الكلب اكتفى برفع رأسه والتحديق فيه. هنالك شيء يثير الشفقة في تلك العينين كأنهما تتوسلان غاستون أن لا يذهب بدونه. تربع غاستون على الأرض وربت على رأسه. شعر وهو ينظر في عيني الكلب الحزينتين أنه يفهم ما كانتا تحاولان قوله. لم يكن للكلب سيد يرعاه فهو قبيح وعجوز ويعاني من هذا السعال السيئ. إنه وحيد منقطع في هذا العالم مثله تماماً. هو نفسه كان من قبل شاباً له جسد ضخم معافى. لكنه جبان، ساذج، ظل يتنقل من فشل إلى آخر. لابد أن الكلب قد رُشق بالحجارة وطورد أينما حلّ. غاستون هو الآخر ظل منذ طفولته موضع ضحك أخوته وأصدقائه وسخريتهم.

في المنطقة التي جاء منها غاستون، سافوي، يُسمى الرجال الضخام البسطاء بالحور. ذلك أن خشب شجر الحور لا ينفع في شيء سوى صناعة أعواد الثقاب. إنه لا يعدّ نوعاً جيداً من الخشب المنشور، وهو لا يمكن أن يستخدم في إقامة الأعمدة والعوارض. وهكذا أطلق أصدقاء غاستون عليه كنية «الحور».

لكن غاستون ظل دائماً ميالاً إلى الوثوق بالناس. كان يفكر أن ليس كل الناس في هذا العالم ولدوا أذكياء وأقوياء مثل نابليون. ليست الأرض حكراً على الأذكياء والأقوياء. لابد أن يتاح حتى للمخلوقات الضعيفة والمثيرة للشفقة ـ مثله ومثل هذا الكلب العجوز ـ المساهمة بشيء ما خلال مدة حياتهم. بين هذا الحشد الكبير من النجوم أيضاً، هنالك نجوم تشبههما... لا تشع كل النجوم بنور قوي واثق، هنالك نجوم أقل إشعاعاً من سواها. وحتى

الشخص الضعيف من أمثاله، إذا ما سكنته الحياة، وإذا ما أفاد فائدة تامة من الحياة الموجودة داخله، أمكن له أن يقتطف شذرة من جمال النجوم لنفسه.

ـ حسنا إذن، تعال معي أيها الكلب سان.

قام غاستون ومضى، وتابعه الكلب وهو لا يزال يسعل.

* * *

للثعالب جحورها ولطيور الهواء أعشاشها. بينما عينا غاستون مركزة على النجوم اللامعة مثل اللؤلؤ في سماء الليل، استدار حول منعطف وبدأ يمشي باتجاه الشرق. لم يستطع ركوب الباص لأن الكلب لا يسمح له بالصعود معه، كما أن موارده المحدودة لم تسمح له بالاستمتاع بميزة التاكسي. كان غاستون الذي لا يملك إلا القليل مما يمكن التباهي به، يزهو بقدرته على قطع مسافات طويلة مشياً. لكن أهم المشاكل الآن هي الحصول على مكان يبيت فيه هذه الليلة. وكما قال لتاكاموري فإنه أمضى الكثير من الليالي في «فيتنام» على ظهر السفينة المكشوف. يمكن لمحطة القطار أو السلالم المؤدية إلى كنيسة أن تقدم له الخدمة نفسها، سيكون بإمكانه هناك انتظار طلوع النهار.

الأمر الحسن أنه وحيد مرة أخرى. شعر بالرغبة في الاعتذار لتاكاموري وتوموي عن مثل هذا الشعور، فلقد كانا في غاية اللطف معه وهو الغريب عنهما تماماً، ولكنه بالرغم من ذلك جرّب إحساساً بفرح عظيم في هذه العزلة والحرية اللتين لم يعرفهما لوقت طويل. طالما حلم أن يمشي في طرقات طوكيو الغريبة بهذا الشكل دون أن يزعج أحداً. ولكن يا لها من مدينة هائلة!

وجد نفسه في شارع يضج بالحركة تضيئه أنوار النيون الباهرة. عندما استشار خارطته أدرك أن هذا لابد أن يكون شيبويا، لكنه وجد عندما توقف ليتفحص المكان أنه سانجينتشايا، ما زال في ضواحي طوكيو. بالمقارنة مع

باريس التي يمكن للمرء أن يقطعها من الشرق إلى الغرب في ساعتين، بدت طوكيو مثل صحراء شاسعة يصعب التوافق معها. وبالرغم من أن الساعة هي العاشرة ليلاً فإن هنا ضجة ونشاطاً تساويان ما هو موجود في مونتبارناس في وضح النهار. كل هذا الحشد من الناس في هذا المكان الضيق!

صفوف من البيوت الخشبية مبنية في تلاصق شديد حتى أنها تشبه قرص العسل، رجال يلبسون القباقيب الخشبية، أمهات يحملن أطفالهن على ظهورهن، باعة عصائب المعكرونة، صالات الباتشينكو؛ لقد أصابه كل ما رأى بالرهبة. تاكاموري قال له «في طوكيو فائض من الناس. مشكلة السكان هي سرطان اليابان.» الآن يفهم غاستون ما قصده.

ـ شيبويا... أين؟

سأل فتاة تقوم على دكان لبيع التبغ في مركز سانجيتشايا. أجابت الفتاة التي كانت تشبه كثيراً ماتشان وهي تشير إلى الشرق:

ـ هنالك.

ـ هل يوجد نزل؟

ـ نزل؟

ـ نعم، فندق.

لماذا نظرت إلى غاستون بسخرية وازدراء واكتفت بالضحك دون أن ترد على سؤاله؟

انطلق غاستون مع الكلب مرة أخرى باتجاه الشرق. مرا بسانجوكو، أوهاشي. أمسك غاستون الخريطة التي أعطاها له تاكاموري بيده واستذكر أسماء الأقسام التي مرّ بها من المدينة. لقد مضت عليه ساعتان ماشياً منذ ترك كيودو.

ـ الكلب سان، هل تعبت؟

خاطب غاستون الكلب الذي كان يتشمم كوماً من القمامة. حتى ساقاه هو أعياهما التعب.

للثعالب جحورها ولطيور الهواء أعشاشها. لابد للإنسان أيضا من مكان يرتاح فيه.

عندما وصل غاستون قمة منحدر جفل لما رأى. لقد انتشرت حوله أينما نقّل نظره الفنادق والنزل. بنايات كتب عليها كلمة «فندق» بحروف كبيرة من النيون الأحمر، ونُزل يابانية في مداخلها فوانيس ولها أسماء مثل كونكاكو، سيكيريسو، فندق الربيع، نزل سامبي. لم ير غاستون لا في فرنسا ولا في أي بلد آخر مثل هذا الحشد المزدحم من الفنادق. كان ذلك بالتأكيد مظهراً آخر يدل على الكرم الدافئ الذي تُعامل به اليابان ضيوفها الأجانب! فكر بإعجاب دافئ أن اليابان بلد عطوف جداً في الواقع.

عندما وقف غاستون أمام بناية تحمل علامة نيون تبرق عليها بحروف كبيرة كلمات «فندق رأس التل» ثم تنطفئ لتبرق من جديد، وجد سبباً آخر يدعوه إلى الإعجاب بالخدمات الممتازة التي تقدمها اليابان لزوارها من السواح. تحت اسم الفندق كُتب:

ليلة كاملة: 800 ين

ساعة واحدة: 400 ين

لم يكن الرتز نفسه وهو الفندق الباريسي الشهير ليبدي هذه العناية بضيوفه. لا يزعج زائر الفندق أمرٌ مثل خشيته من أن تكلفه غرفته أكثر مما توقع. ما الخدمة التي تفوق اطلاعه على الكلفة الحقيقية للغرفة مقدماً؟ ثم هذا التمادي في التعاطف بتوضيح كلفة التوقف من أجل راحة قصيرة.

في غمرة إعجاب غاستون الشديد بهذه الطريقة في ترتيب الأمور فتح باب الفندق يتبعه الكلب ودخل. لم يكن المكان يشبه أي فندق رآه من قبل: لا وجود لصالة أو مكتب استعلامات هنا. كان عليه أن ينادي مرتين قبل أن يسمع وقع خطوات تأتي من نهاية الممر.

جاءت فتاة ترتدي الكيمونو الياباني مسرعة من نهاية الممر للترحيب به. كانت شفتاها مطليتين بلون أحمر فاقع. عندما رأت غاستون وقفت عابسة:

ـ هل لديكم غرفة نوم؟ 800 ين؟

أضاف غاستون «800» عندما تذكر الحالة المزرية لمحفظته.

لم تجب الفتاة. سأل مرة أخرى:

ـ هل لديكم غرفة نوم؟

ـ هل أنت لوحدك؟

سألته وهي تستطلعه بريبة من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه.

ـ نعم، وحدي... لا، هذا الكلب معي، لكنه سينام في الخارج.

التفتت الخادمة ونادت بصوت عال إلى شخص ما في الداخل.

ـ تانيدا سان، هلا جئت إلى هنا لحظة.

اختفت، لكن غاستون استطاع سماعها تتكلم بصوت خافت.

ـ إنه أجنبي غريب الأطوار. يقول إنه يريد غرفة لنفر. ما العمل؟

ـ لنفر واحد؟

كان الصوت الذي أجابها لرجل.

ـ نعم، لنفر واحد.

ـ هذه مشكلة. هل هو أمريكي؟

ـ لا أعلم.

ـ حسنا... ليكن. لا حيلة لنا في الأمر. دليه على مارغريت.

استطاع غاستون أن يحكم من نبرة الحوار أنه لم يكن ضيفاً مرحباً به. تساءل متعجبا لماذا لا يريدون قبول ضيف منفرد؟ لماذا لا تريد الفنادق اليابانية إيجار غرف لضيوف منفردين؟ هكذا هو الحال إذن، هكذا إذن[1]. أدرك غاستون الآن أن فندق رأس التل لم يُشيد لتقديم الخدمات للسواح الأجانب. لا بد أن له غاية جديّة أخرى. ليس هذا مكانه. استدار وكان على وشك الخروج من الباب عندما عادت الفتاة.

ـ تفضل رجاءً.

قالت وهي تقدم له صندلاً. بلغ به الجبن أنه لم يرفض دعوتها.

ـ الكلب سان أيضاً...

ـ هذا الشخص لديه كلب.

نادت تانيدا مرة أخرى وقد أصبح الانطباع على وجهها ساخراً.

ـ يقول إن معه كلباً.

في تلك اللحظة فُتحت الباب الأمامية ودخل رجل وامرأة. كان الرجل في منتصف العمر له وجه الجنرال توجو[2]. عندما رأت المرأة غاستون سارعت إلى إخفاء القسم الأسفل من وجهها بوشاحها وأخفت نفسها خلف الرجل. حيّت فتاة الاستعلامات الاثنين بأسلوب بادي الأدب مقارنة بموقفها من غاستون.

---

(1) بالفرنسية في الأصل: Çest ça. م.

(2) هديكي توجو قائد عسكري ياباني ورئيس وزراء اليابان السابع والعشرون (1941 ـ 1944). م.

قادته خلال الممر الذي كان يخيم عليه صمت مخيف غريب. استطاع من مكان ما أن يسمع صوت ماء يتدفق. اضطر بسبب طول قامته والسقوف الواطئة إلى أن يحني رقبته كالسلحفاة. عندما نظر إلى أسماء الغرف لاحظ أنها كلها تحمل أسماء زهور: الورد، الكرز، المكحلة... وهكذا، وأن هنالك أمام كل غرفة زوجين من الصندل. كان غاستون الساذج الوحيد في هذا الفندق الذي يتجول ببراءة في الممرات بحثاً عن غرفة لنفر واحد. لم يفهم سبب الظلام المطبق على المكان كله وسيادة هذا الصمت الغريب.

عندما وصلت الفتاة إلى الغرفة المسماة مارغريت، وضعت المفتاح في القفل وفتحت الباب. كانت الغرفة تختص برائحة غريبة، رائحة الجص أو الطلاء. روائح جسدي الرجل والمرأة اللذين أخليا الغرفة لتوهما لا تزال عالقة في الجو.

ـ أيها السيد الأجنبي، نحن نستلم النقود مقدماً هنا.

وضحت له الفتاة وتعمدت تكرار كلمة «نقود» باليابانية والإنجليزية لتضمن أن يفهم ما تقول.

ربما وجد من يبلغ بهم انعدام الأخلاق التسلل ليلاً دون دفع الحساب بعد قضاء حاجتهم. لسد الطريق أمام هؤلاء تطلب الفنادق من هذا النوع الدفع مقدماً. دفع لها غاستون النقود وقد استحوذت عليه الدهشة. حدجته بنظرة ازدراء أخرى واختفت في الممر.

جلس غاستون بحذر على حافة السرير. عليه غداً أن يبحث عن مكان آخر، مكان يستطيع أن ينام فيه فعلاً.

ـ متشان، متشان.

فجأة سمع صوت رجل على الجانب الآخر من الحائط.

ـ يجب أن أذهب إلى الحمام.

ـ اهدأ ودعني أنم.

ـ لا أستطيع السيطرة.

ـ أنت تمنعني من النوم... إن كنت مضطراً استعمل المغسلة.

صُعق غاستون. حبس أنفاسه وأصغى. ما سمعه كان دون شك صوت ماء متدفق. من الواضح أن الرجل فعل ما قالته «ما تشان» وتبول في المغسلة في زاوية الغرفة.

دفعت الصدمة غاستون إلى أن يقفز من سريره. لقد أغضبه أن يريق الرجل مائيته في المغسلة ذاتها التي يستخدمها الضيوف الآخرون في غسل وجوههم. سعل بصوت عال يضمن سماعه في الغرفة المجاورة.

توقف الصوت المتدفق على نحو حاد، لكنه سمع بعدها صوت الماء يتدفق من الحنفية. لقد فتح الرجل الحنفية ليغرق بها الصوت الآخر بينما هو مستمر في ما هو عليه.

لقد سافر غاستون كثيراً ورأى الكثير، لكن هذا الأمر سبب له صدمة جعلته يفقد كل رغبة في غسل وجهه ويديه، فجلس على سريره مكتئباً. ومع ذلك، ولأنه قطع المسافة بين كيودو وشيبويا كلها مشياً فقد بلغ به التعب حد أن عينيه بدأتا تنغلقان.

ـ تاكاموري سان، توموي سان، بون نوي[1].

اضطر قبل أن يأوي إلى الفراش أن يذهب إلى الحمام. خطا إلى الممر بحذر وهناك وقع نظره على مشهد غريب.

---

(1) ليلة سعيدة. بالفرنسية. م.

امرأة يابانية تفتح شباكاً في نهاية الممر وتوشك أن تقذف بنفسها منه. إنها المرأة التي دخلت مع الرجل الشبيه بالجنرال توجو. عندما رأت غاستون بدأت تتراجع بخوف. كانت تحمل حزمة ملابس ضخمة، لكن عاستون لم يستطع أن يتخيل ما كانت تحتويه. حول عنقها ضمادة متسخة. كانت قصيرة وهزيلة. بدت وجوه النسوة اليابانيات لغاستون خالية من التعبير مثل أقنعة مسرح النو، وهذه المرأة لا تعد استثناء. لم يستطع أن يستقرئ ما كان يدور في رأسها

بقيت المرأة لبعض الوقت تنظر بعينين ملؤهما الخوف إلى هذا الأجنبي الهائل شديد الشبه بالحصان. أخيرا تكلمت:

ـ ما أنت؟

كان في صوتها غضب واستهجان.

لم يستطع غاستون أن يتخيل سبباً يجعلها غاضبة منه. شع وجهه بتلك الابتسامة المعتادة ناحيتها. ولابد أن ذلك منحها بعض الشجاعة لأن كلماتها التالية كانت:

ـ أنا أكره الأميغو.

وأميغو هو المصطلح الدال على الاستهجان الذي يُستخدم للإشارة إلى الأمريكيين.

ـ اغرب عن وجهي!

في تلك اللحظة ذاتها، ومن غرفة عبر الممر قرب السلم، صاح رجل بصوت عال:

ـ هيي! شخص ما! تعالي بسرعة!

نظرت المرأة وقد أجفلتها الصيحة في كل الاتجاهات حولها مثل فأرة

محاصرة ثم انطلقت وهي تلتقط رزمتها إلى نهاية الممر. لكنها عادت وقد رأت الضوء ينبثق في غرفة الخادمة تنظر بوجه مرتعب إلى غاستون وصاحت:

ـ أين غرفتك؟ بسرعة! خذني إلى غرفتك.

قبل أن يتمكن غاستون من قول أي شيء، عرفت بابه التي بقيت مواربة قليلاً وأسرعت منطلقة إلى داخلها للاختباء، ولحق بها غاستون.

ـ أرجوك، ساعدني! أرجوك!

كررت رجاءها عدة مرات وهي تسمع أصواتاً في الممر تقترب من الباب.

نظر غاستون مطرقاً نظرة فارغة من التعبير إلى وجهها اليائس المتشنج. كررت:

ـ ساعدني، ساعدني!

شبكت يديها متوسلة أمامه كما تفعل أمام بوذا. كانت أصابعها طويلة ونحيفة كالإبر.

في الممر تبادلت الخادمة والرجل الذي صاح حواراً بصوت مسموع. أصغى غاستون، كلاهما يستخدم كلمة «شوبن». كان يعرف أن هذه الكلمة تعني «يتبول» واستنتج من الحديث بين الاثنين أن ذلك كان ذنبها. إذن، ذلك ما حصل! غطت وجهه ابتسامة واسعة وهز رأسه دلالة الفهم. هذه المرأة، شأنها شأن الرجل في الغرفة المجاورة، كان عليها أن تذهب إلى الحمام لكنها اضطرت لعدم قدرتها على السيطرة أن تبلل الفراش. مثل هذا الأمر لابد وأن يكون مصدراً لعار عظيم. استرجع بحزن حقيقة أنه كان يبلل الفراش في طفولته وأنه تعرض لاحتقار أخوته لهذا السبب. شعر غاستون أنه يستطيع الآن أن يفهم التشنج الذي ارتسم على وجه المرأة ونظرة اليأس.

ـ من هنا.

وضع أصبعه على شفتيه يطلب منها توخي الهدوء وأشار إلى شباكه. رفعت المرأة تنورتها كاشفة ساقين قصيرتين ممتلئتين تشبهان الفجل الياباني، وتسلقت حافة الشباك بمهارة قرد. من هناك قفزت إلى الأسفل وهي تشد رزمة الثياب إلى جانبها. سمع غاستون صيحة ألم، لابد أنها آذت نفسها أثناء السقوط. تردد صدى صيحتها خلال الظلام.

سمع الاثنان في الممر الصيحة أيضاً. سرعان ما اقتُحمت غرفة غاستون واندفع الجنرال توجو والخادمة إلى الداخل. عندما لاحظا أن المرأة قد هربت بالفعل التفت الجنرال توجو بغضب شديد:

ـ لماذا سمحت لتلك المرأة بالهرب بحق الجحيم؟

قال غاستون وقد ارتسمت على وجهه جدية كبيرة:

ـ شوبن... أنت تفعل ذلك أيضاً. تخطئ إذا أثار غضبك أنها فعلت «شوبن».

عند سماع تلك الكلمات تصاعد غضب الجنرال توجو. احمّر وجهه مشتعلاً بالغضب.

* * *

ـ اخرج من هنا.

بالرغم من أن الساعة كانت الثانية صباحا فقد قُذف بغاستون خارج الفندق من قفا عنقه كما لو كان قطة.

كم كان عناداً ووقاحة من ساذج مثله أن يهب لنجدة الآخرين. قبل أن يغادر الفندق عنّفه الجنرال توجو بشدة:

ـ لماذا تدس أنفك في شؤون الآخرين وأنت لا تعرف اليابانية؟

حينها عرف غاستون لأول مرة أن لكلمة «شوبن» معنيين. ولسوء الحظ لم

يكن يعرف سوى المعنى المذكور في قاموسه، المعنى الفسيولوجي. شرح له الجنرال توجو بإيماءات غاضبة وسيل من اللعنات المعنى الأخر للكلمة: عندما تسرق العاهرة محفظة الزبون وتهرب بها ليلاً بحجة الذهاب إلى الحمام فإن هذا يسمى «شوبن» أيضاً ويُكتب بحروف المعنى الآخر ذاتها.

التفت الجنرال توجو إلى مدير الفندق:

ـ لقد سرقت تلك العاهرة ملابسي. لا يهمني كون هذا الحمار أجنبياً. يجب عليه أن يدفع لي تعويضاً عنها. وعليك تقع مسؤولية إجباره على ذلك.

لم يستطع غاستون ملاحقة يابانيته، لكنه لم يجد صعوبة في فهم ما كان الرجل يبتغيه. أخيرا تمكن المدير من تخليص غاستون من المأزق، لكنه طلب منه بعدها أن يغادر الفندق.

ـ أنا آسف، أيها السيد الأجنبي، لكني مضطر إلى أن أطلب منك المغادرة. في مثل فندقنا ليس بوسعنا استضافة زبائن لا يحسنون التصرف.

أعاد على مضض الثمانمائة ين التي دفعها غاستون وأضاف:

ـ شيزوكو، اقذفي بذلك الكلب الهجين أيضاً. إنه يمنع النوم عن الجميع بعطاسه.

وهكذا قُذف بغاستون والكلب خارج الفندق معاً.

* * *

كانت النجوم لا تزال تلمع في سماء الليل. اقتفى الكلب العجوز ظلّ غاستون الطويل بوفاء. هنالك على امتداد الشارع فنادق أخرى لا تزال مفتوحة لأداء أعمالها ـ كورويوريسو، كونكاكو، فندق أيوبا ـ لكن غاستون افتقد إلى الشجاعة اللازمة لدخول أي منها.

بالرغم من وجود هذه الكثرة من الفنادق في طوكيو، لم يكن أمام غاستون

مكان هادئ ينام فيه. حتى هو لم تفته رؤية هذا التناقض الذي تنطوي عليه هذه الحالة بالنسبة لحبيبته اليابان.

واصل مسيره باتجاه الشرق. الآن وقد تجاوز الوقت الثانية صباحاً، صارت كافة المحلات مغلقة وليس هناك إلا عمود إضاءة هنا وآخر هناك يقف مثل رجل عجوز يعكس ضوءاً كابياً. كاد الشارع يخلو من المارة.

فكر غاستون، كل ما أفعله ينتهي إلى الفشل. كان يعي بألم نواقصه، فالأمر لا يقتصر على هذه الليلة. كل ما يفعله يتوج بمثل هذه النهاية. ظل سوء الطالع الذي تسبب في قذفه خارج الفندق لمساعدته امرأة في ضيق نفسه يطارده منذ طفولته. كيف يتسنى لشخص مثله فعل ما هو خيّر أو جميل للآخرين؟

شيبويا في الثانية صباحاً ساكنة سكون الموت. المقاهي ودور السينما والمحال كلها مغلقة ومسدودة المصاريع. هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها غاستون شيبويا، لكنه أدرك في الحال أن هذا القسم من المدينة كان أكثر حركة وزحاماً من سانجيتشايا التي مر بها من قبل.

تناهى إلى سمعه في الأزقة الخلفية أصوات غناء عالية، ربما كانت لرجال عائدين من الحانات بعدما أمضوا الليل في الشراب. بدا وقع أغانيهم في أذن أجنبي مثل غاستون شرقياً حزيناً. كانت تشبه الأغاني العربية الحزينة التي سمعها يوماً في عدن.

شعر بالقنوط. هدّ التعب ساقيه من كثرة المشي. الواقع أن التعب سرى في كل جسده. لكنه انشغل بالكلب أكثر منه بشأن نفسه. لقد مرّ الكلب المسكين بيوم طويل. توقف وتطلع حوله بحثاً عن مكان قد يكون مفتوحاً. لكن الأضواء الوحيدة في الشارع كانت لأعمدة الإضاءة وتلك التي تشع من واجهات المحلات التي أغلقت أبوابها منذ وقت طويل أثناء الليل.

بعدها سمع شخصاً ما يناديه بصوت خفيض:

ـ هيي، أيها السيد، ما زال الليل في عزّ شبابه. ما رأيك بالمجيء؟

كان مصدر الصوت فتحة مظلمة بين دار سينما ومحل مجاور لها. حين تمعن في المكان تجسد أمامه شبح امرأة كما لو أنه خارج من كهف فرأى وجهها. كانت المرأة التي تلف عنقها بضمادة. صاحت دهشة حين رأته:

ـ يا إلهي! أميغو الفندق.

أطرف غاستون عينيه بحزن. بالرغم من أنه طُرد في منتصف الليل من الفندق بسبب هذه المرأة فإنه لم يشعر بأي رفض لها. لم يكن بوسع غاستون البسيط أن يضمر الرفض أو الكراهية تجاه أي شخص. حتى في طفولته، وبغض النظر عن الفخاخ التي ينصبها له أقرانه أو التعامل القاسي الذي يلقاه منهم فإن مزاجه كان من النوع الذي لا يسمح بكراهية مضطهديه. بالنسبة له أن يكره أبغض الواجبات. بدلاً من ذلك، كان يندفع بسرعة إلى الوثوق في حسن نية الآخرين وصداقتهم، أو في الأقل الرغبة في أن يثق بهم. وهكذا لم يبد على وجهه الآن أية علامة تدل على أنه يرفض أو حتى يتذكر الحادث الذي وقع في الفندق.

ـ ماذا حدث؟ ألم تكن مقيماً في ذلك الفندق؟ بفضلك استطعت الهرب لكني آذيت مؤخرتي عندما سقطت. ما زالت تؤلمني.

أشارت إلى وركها مع ضحكة كشفت عن لثة أسنانها الحمراء. ثم سألت:

ـ ولكن ما الذي حصل لك؟

ـ طلب مني أهل الفندق أن أغادر.

علت وجهه ابتسامته المعتادة وهو يمسح عينيه بإرهاق.

ـ أو! هل طردوك؟

نظرت المرأة إلى وجه غاستون بدهشة. لا يزال في نظرتها شيء من الحذر. أضافت:

ـ ولكن إذا بقينا نقف هنا قد يأتي أحد رجال الشرطة. دعنا ندخل.

قطع غاستون خطوتين أو ثلاثاً ثم قال وكأن خاطراً عنّ له لتوه:

ـ طعام...

ـ ماذا؟

ـ طعام... للكلب... ولي.

وأشار بحزن إلى معدته. وقفت المرأة بعض الوقت تحاول تكوين حكم بشأنه. بعدها، وكأنه نجح في الاختبار، دعته أن يدخل معها. اختفت في الشق الشبيه بالكهف بسرعة فأر من فئران رصيف الميناء. كان غاستون قد سمع بأن مدن الشرق، مثل تلك الموصوفة في ألف ليلة وليلة، تكثر فيها الممرات المتاهية الحافلة بالألغاز والغموض، لكنه لم يتوقع قط أن يجد مثل هذه الممرات في طوكيو. سار في أعقاب المرأة التي اختفت في الظلام وهو يحاول أن يجعل حجمه أصغر ما يمكن. سمع المرأة تناديه من مكان ما تحت قدميه:

ـ ما الذي تفعله؟ هنا، هذا هو السلم.

تمكنت عيناه وقد ألفتا المكان أخيراً من تمييز سلم حجري أمامه. كان حائط دار السينما العالي يرتفع على أحد جانبيه. إنه مخرج طوارئ للهرب في حالة الحريق أو الزلزال.

عندما بلغ قعر السلم، أشعلت الفتاة مصباحاً يدوياً. مسح غاستون العرق عن جبينه بيده الضخمة. رأى قرب قدميه على الأرض رزمة الملابس التي يتذكرها مما حدث قبلاً.

ـ الزم الهدوء.

حذرته المرأة بصوت خافت وأطفأت المصباح اليدوي.

ـ سأذهب وأحضر لك شيئاً تأكله.

صعدت السلم من جديد بسرعتها الأولى نفسها واختفت في الظلام.

جثم غاستون وقلبه في فمه على الأرضية الإسمنتية، ذراعاه حول ساقيه، وانتظر بصمت، يكاد لا يجرؤ على التنفس. أما الكلب العجوز فقد ظل يلعق يديه بلطف.

تطلع غاستون إلى أعلى نحو السماء ورأى أنها ما تزال مرصعة بجمهرة عريضة من النجوم اللامعة. وجوده حيث هو، في بلد بعيد ينتظر امرأة لم يلتق بها قبل هذه الليلة قط لتحضر له الطعام أشبه بالحلم. بعدها تذكر تاكاموري وتوموي. تساءل: كيف تنظر لي توموي سان؟ ابتسم وهو يفكر في انفها الصغير المرفوع إلى أعلى. لابد أن الأخ والأخت يتساءلان عن السبب الذي دعاه إلى أن يعبر البحار ويأتي إلى اليابان النائية. لكنه لم يستطع أن يخبرهما عن غايته، على الأقل حتى الآن. ربما تمكن في يوم ما من تقديم الشرح. لكن عليه أولاً أن يلتقي بالمزيد والمزيد من اليابانيين ويتخذ قراراً.

ـ هل هو وحيد؟

ـ معه كلب.

سمع صوت المرأة فوق السلم. بدا هذه المرة أن معها امرأتين أو ثلاثاً. أضاءت إشعاعات المصباح اليدوي درجات السلم فرأى غاستون سيقاناً بيضاً تنتهي إلى أحذية موحلة وقباقيب سحقها طول الاستعمال على الدرجات.

ـ هل أنت مجنونة؟ تأتين بأميغو إلى هنا؟

ـ إنه إنسان طيب. هذا الشخص إنسان طيب.

فجأة توقف الصوت. أضاءت ثلاث نساء مصابيحهن على غاستون الذي ظلّ مقرفصاً على عقبيه. بدا وكأنهن يتفحصن قطة تُركت لوحدها.

الفصل الخامس

ناسك الشرق

ـ هل هذا هو الشخص المقصود؟

سألت إحدى النساء بصوت عال زاعق وهي توجه بريق مصباحها اليدوي إلى وجه غاستون وقد طرفت عيناه. كانت ترتدي ملابس متنافرة: سترة حائلة اللون وبنطلوناً رجالياً وحذاء أحمر ذا كعب عال. المرأة الثالثة وكانت بدينة ومدورة كالبيضة ارتدت بدلة بالية وقبقاباً خشبياً. قرفصت الأخيرة قرب غاستون وعلى وجهها المتطلع إليه ابتسامة. كان من الممكن رؤية لباسها الداخلي الطويل بين ساقيها المكتنزتين، وهو ما جعل غاستون يبعد عينيه عنها في ارتباك.

ـ ألا يكون هذا الرجل من الهاربين من العدالة؟

نظر إليها غاستون كما لو أنه متهم هارب. طمأنتها المرأة الأولى.

لم يكن مستغرباً أن غاستون بدا لهن كالهاربين من السجن ممن شاهدن في أفلام الجريمة الأمريكية. فضلاً عن ذلك، من المعروف أن عدداً من الأجانب المطلوبين للشرطة بتهم المخدرات والتهريب كانوا يتجولون طلقاء في طوكيو.

ـ انظري إلى قوة جسده كيمي. أليس من الأفضل أن نبقيه معنا؟

كن يتحدثن بيابانية الأزقة الخلفية التي لم يتعلمها غاستون في مدرسة اللغات. كان بالكاد يفهم كلمة واحدة مما يقلن، لكنه أدرك بالرغم من ذلك موضوع الحديث. ما أزعجه أكثر من الحديث أن المرأة التي لها شكل البيضة وتقرفص قربه كانت تمرر أصابعها على فخذه. أدرك غاستون المهذب دائماً أنه لا يزال يرتدي قبعته. أسرع إلى خلعها واعتذر عن سوء تصرفه.

ـ أرجو المعذرة.

ـ أوو، إنه يتكلم اليابانية!

هتفت المرأة ذات الحذاء الأحمر بدهشة. وأطلقت المرأة التي تدعى كيمي ضحكة عالية.

ـ خفضي صوتك!

حذرتها المرأة الأولى التي كانت تلف عنقها بضمادة وقد أخذت غاستون تحت جناح حمايتها. نشرت صحيفة أمامه ووضعت عليها صحنا مشروخاً به طعام. تعرف على الأجسام الصفر المدورة على الصحن بأنها صفار بيض، ولكن ما هذه الأشياء التي تبدو مثل كسر خبز متعفنة وقد اخترقها عود رفيع؟

ـ إنها أوو ـ دن[1]. ألم تأكل من قبل أوو ـ دن؟

ـ من أين له معرفة ذلك؟ إنه أجنبي.

قالت كيمي. راقبت غاستون وهو يتناول بابتسامة حزينة إحدى كرات صفار البيض ويقذفها في فمه.

ـ اوو، لقد أكلها!

ـ هذا ما فعل.

---

(1) خليط من اللحم والخضروات. م.

راقبته النسوة باهتمام كما يمكن أن يتابعن قرداً في حديقة الحيوان يحاول أن يحلق نفسه بموسى كهربائية.

قدم غاستون قطعة من الأو-دن للكلب المقعي إلى جانبه.

ـ هل هذا كلبك؟ هل له اسم؟

ـ نعم، نابليون.

لم يعرف غاستون لماذا قال إن اسم الكلب نابليون، لكنه قرر في تلك اللحظة أن يسميه باسم جده الشهير.

ـ أنا... الكلب... لا مكان... تنام.

قال وهو يبتسم بوهن.

ـ يقول إنه لا يملك مكاناً ينام فيه.

بدأت النساء مداولات بأصوات تشبه زقزقة السنونو.

بدا هذا الرجل البسيط الذي وقع بين أيديهن مثل حيوان مدجن عليهن رعايته. وجدنه ممتعاً ومثيراً للفضول. كل من صادفن حتى الآن من الأجانب أمريكيون متبجحون، وقد بدا غاستون بتواضعه الجم نقيضاً كاملاً لهم.

ـ أليس معك أية نقود؟

سحب غاستون محفظته وعرضها عليهن. عندما صرف نقوده إلى الين في جمارك يوكوهاما سأله الرجل الكهل المسؤول بالإنجليزية غير مصدق «هل هذا كل ما لديك؟» لم يزد ما بحوزته عن ثلاثة آلاف ين. كان لدى غاستون بالإضافة إلى ذلك بالطبع تذكرة العودة إلى وطنه ولكن لم يكن هنالك شيء آخر في محفظته.

قالت المرأة التي ترتدي الحذاء الأحمر وهي تشير إليه بأسى:

ـ إذا كان لديه ثلاثة آلاف ين فهو يستطيع أن يحصل على مكان يبيت فيه أينما شاء.

ـ لا تكوني غبية. ما الذي سيفعل غداً. عليه أن يأكل أيضاً في الغد.

لم تكن المرأة التي تلف ضمادة أكبر الثلاثة سناً فحسب ولكنها كانت كما يبدو أكثرهن ذكاء. التفتت إلى غاستون وأخذت المحفظة من بين يديه ودستها في جيبه تماماً كما تفعل الأم مع طفل يغادر إلى المدرسة وهي تقول:

ـ اخف هذا جيداً وحافظ عليه.

لم يفهم غاستون السبب الذي يجعل هذه المجموعة من العواهر تبدي كل هذه الشفقة تجاهه. المرأة التي سرقت زبونها في فندق قمة التل فلم تبق عليه أي شيء بما في ذلك ملابسه تحولت الآن إلى هذا الشخص اللطيف المتعاطف:

ـ ماذا عن سكن داتشي؟

ـ ذلك اللعين، سيخدعه ويسرق ثلاثة آلالاف ين قبل الصباح.

ـ إذن ماذا عن سنساي[1]؟

اقترحت المرأة البدينة كيمي.

ـ تلك فكرة جيدة.

لزمت النسوة الثلاث الصمت لدقيقة يفكرن.

ـ ما رأيك؟ هل تود أن تذهب إلى سكن سنساي؟

ـ نعم، سكن سنساي.

---

(1) تدل كلمة سنساي في اليابانية على احترام شديد، وهي تستخدم في مخاطبة الشخص وفي الكلام عنه في آن واحد. م.

ـ إنه رجل عجوز طريف. ولكنه إن سألناه فسيسمح لك بالمبيت معه هذه الليلة. وقد يوفر لك عملاً تقوم به.

الآن وقد أجمعن الرأي وقفن واصطحبن غاستون ونابليون إلى أعلى السلم كما لو أنه سيد من سادة الساموراي. لم يكن ثمة أحد في الشارع.

ـ رجاءً خذي هذه.

سحب غاستون ورقة نقدية من محفظته وحاول أن يعطيها لواحدة من النساء.

ـ ما هذه؟

ـ نقود مقابل الغذاء.

ـ لا تكن أحمق، ألم تنقذني من إلقاء القبض عليّ هذه الليلة. أعتقد أن بإمكاني تقديم بعض الأو ـ دن على الأقل.

لم يكن غاستون يعرف وجهتهم. عبروا خط السكة الحديد ووصلوا ممراً مائياً ضيقاً كان ماؤه مسوداً تفوح منه رائحة المجاري وتصطف على طوله سلسلة من البارات الرخيصة بدت متداعية كما لو أنها ديكورات لأحد الأفلام. في هذه الساعة من الصباح لم يكن أيٌّ منها مفتوحاً.

لم تتوقف النسوة اللواتي كن يألفن المكان لاستكشاف الطريق بالطبع وتواصل بينهن تيار من الحديث المتدفق بينما هن يمضين في طريقهن عبر متاهة من الأزقة المتداخلة جعلت غاستون يشعر بارتباك كامل. سواء استدرن إلى اليسار أو اليمين كانت الأزقة تبدو متشابهة بالنسبة له. بل بدا حتى أنها تمضي في استدارات متواصلة على شكل حلقات. لكنهم وصلوا أخيراً إلى موقف مقابل بار مغلق مثل بقية البارات.

لم يتجهن إلى باب المدخل بل درن حول البناية. رأى غاستون سلماً يتجه إلى الطابق الثاني ولم يكن من السعة بما يتيح له العبور منه.

ـ انتظر هنا دقيقة.

قالت له المرأة ذات الوشاح وصعدت السلالم تتبعها المرأتان الأخريان. تردد صدى خطواتهن على السلالم الخشبية في الليل الصامت.

ـ سنساي!

سمعهن ينادين. كن يحاولن أيقاظ شخص في الداخل. أضيئت نافذة في الطابق الثاني. لا صوت عدا أنين نابليون الهادئ في الليل الساكن. تساءل غاستون بقلق ما الوقت الآن؟ داخله الخوف في الحقيقة. من يكون هذا الرجل سنساي الذي يوشك على مقابلته؟ كان خائفاً من نوع المعاملة التي يمكن أن يتلقاها هو الأجنبي المغمور على يد اليابانيين. صحيح أن النسوة كن عطوفات معه بما يكفي، لكنه بعد تجربته في شنجوكو أدرك أن يابانيته كانت ضعيفة وإذا لم يحذر فقد يسيء فهم ما يجري له من جديد.

لكنه عقد العزم أن لا يبدي الشك بهذا الرجل مهما كان. سيثق به حتى لو تعرض للخداع، سيواصل ثقته بالناس. تلك واحدة من المهمات التي نذر نفسه لإنجازها في اليابان. لقد ترك خلفه عبر البحار عالماً يزخر بالشك والريبة. الثقافة والمعرفة التي ترفض أن تدخل في قلب الآخر وترى إرادته الطيبة. كان ينطوي على قناعة راسخة بأن الضرورة الكبرى لعالم اليوم هي الثقة بالناس. لقد نذر غاستون البسيط نفسه للمحافظة على ثقته بالناس بوصف ذلك أولى الخطوات في مشروعه.

ـ هاي، أنت يا من هناك!

نادت عليه إحدى النساء من أعلى السلم.

ـ حسناً، سأصعد.

كما توقع، كان السلم ضيقاً جداً حتى أنه حشر نفسه فيه بصعوبة. وكان

السقف منخفضاً أيضاً، وقد ارتطم رأسه به مرتين. أخيراً وضع يديه على جبهته لكي يحمي رأسه.

هنالك رائحة عطنة في الغرفة الصغيرة أعلى السلم، وعلى لحاف رث تبرز منه حشوته من القطن جلس رجل عجوز نحيف كالقصبة. كان يستند إلى الحائط ويمد ساقيه أمامه. ارتدى بنطلوناً ولكنه بدلاً من القميص كان يضع عليه بلوزة نسائية حمراء.

ـ إذن سنعود إلى سكننا.

قالت واحدة من النساء. لم يجب الرجل العجوز. صب سائلاً أسود من إبريق الشاي إلى كوبه وشربه بصوت مسموع. حتى بعد أن غادرت النسوة لم يقل شيئاً وظل يشرب وعيناه مثبتتان على غاستون يتمعن فيه عن كثب.

أخيراً قال:

ـ أنت لست أمريكياً، أليس كذلك؟ من أين أنت؟... لا، لا تحتاج إلى الإجابة. سأجد ذلك بنفسي. قرب وجهك أكثر.

فعل غاستون كما طلب منه ووضع وجهه الحصاني الطويل مباشرة أمام السنساي. ركز الرجل العجوز نظره فيه متمعناً لبعض الوقت.

ـ هذا أمر طريف!

ـ نعم، نعم.

ـ تلك النقطة أعلى الأنف لابد أنها تدل على أن لديك بطلاً عظيماً في شجرة العائلة.

هم غاستون بالإجابة لكن الرجل العجوز أوقفه.

ـ أنا عرّاف. أريد أن أقرأ وجه الرجل الذي سيمضي الليلة معي... نعم، لا بد أن لديك سلفاً عظيماً.

تمكن غاستون من فهم حوالى نصف ما كان الرجل العجوز يقوله حسب، لكنه توقع معنى ما كان يقول بسد الفراغات بمخيلته. وضّح بصوت خافت:

ـ نابليون.

سقط الكوب بصوت مسموع من يدي الرجل العجوز على السجادة البنية المحمرة.

ـ نابليون! هذا يوضح الأمر. إذن لم أكن على خطأ. كما ترى أستطيع أن أعرف شخصية الإنسان من وجهه... نسيت أن أقدم نفسي. أسمي تشوتي كاواي وأنا عرّاف شرقي.

ـ اسمي غاس.

قدم غاستون الاسم الذي أطلقه عليه تاكاموري بمودة.

ـ غاس؟ غاس؟ ليس الغاز الذي يخرج من هنا.

قال الرجل دون أن يبتسم وهو يشير إلى وركه الهزيل.

ـ إنه اسم طريف. لكن وجهك غير عاديّ في الواقع.

ـ نعم، نعم.

ـ لك سحنة نادراً ما يراها المرء هذه الأيام.

ثم خفض الرجل رأسه وسأل:

ـ لديك مشروع عظيم في رأسك، أليس كذلك؟

ـ مشروع؟

ـ شيء ما تخطط له. أستطيع أن أراه بين حاجبيك. لماذا جئت إلى اليابان؟

لم يفهم غاستون يابانية الرجل فهماً كافياً يسمح له بالإجابة. الرجل العجوز بدوره سحب سؤاله مباشرة.

ـ لا، من الفظاظة أن أسأل. لنذهب إلى النوم الآن. يمكن أن نتكلم غداً.

مطّ نفسه بكامل طوله على اللحاف كما لو كان قد نسي كل ما قيل.

ـ هنالك بعض البطانيات على الرف، هناك خذ ما تشاء منها.

وقبل أن يتم كلامه بدأ بالشخير.

أطفأ غاستون الضوء وغطى نفسه ببطانية. لم يتحرك الرجل العجوز قربه إطلاقا في نومه. شعر غاستون فجأة بشيء يزحف أعلى ساقيه ويسبب له شعوراً بالحكة. ربما كان قملاً. أي رجل هذا بحق الله؟ هل هو ناسك من النوع الذي رآه في الرسومات الشرقية القديمة؟

عندما استيقظ غاستون في الصباح التالي وجد أن الناسك قد نهض قبله وأشعل ناراً في موقد الطبخ. لا يزال يرتدي القميص النسائي الأحمر.

ـ إن كنت قد صحوت، يمكن أن تذهب لتغتسل.

فعل غاستون ما قيل له.

نزل السلم الضيق. في أسفل السلم وجد نابليون متمدداً يستقر حنكه على مخالبه. تطلع إليه الكلب بحزن واشتياق.

وقفت امرأة، ربما نادلة من أحد البارات، أمام حمامات عمومية عبر الشارع لكنها جفلت وابتعدت حين رأت غاستون. تقع حنفية ماء الاغتسال مباشرة إلى جانب الحمام.

عندما عاد غاستون إلى الغرفة، وجد أن الرجل قد وضع بعض السردين المقلي في صحن. قال:

ـ لا أدري إن كنت قادراً على أن تأكل شيئاً كهذا.

ولكن بالنسبة لغاستون المتضور جوعاً لم يجد السردين يوماً ألذ منه

حينها. لم ينس أن يكوم رؤوس السردين إلى جانب صحنه لنابليون. سأل العجوز وهو يضع ملقطيه الخشبيين.

ـ لمن هذا؟

ـ هذا للكلب سان.

أخبر غاستون العجوز مرتبكاً أنه أتى معه بكلب.

ـ إذن فأنت تحب الكلاب؟

مرة أخرى تفحص العجوز وجه غاستون متمعناً:

ـ أنت غربي غير عادي تماماً... ألست كذلك؟

ـ نعم، نعم.

ـ يعتقد الناس أني غريب أيضاً. صدق أو لا تصدق، كنت ذات يوم مدير مدرسة.

ارتسمت على وجهه نظرة حزينة وهو يتكلم.

ـ وها أنا ذا أعيش في مكان كهذا وأكسب عيشي من قراءة الطالع. كذلك أكتب رسائل الحب للنساء وأسمع شكواهن. يابان اليوم تثير اشمئزازي كثيراً. قل كيف تبدو لك اليابان بوصفك أجنبياً؟

اكتفى غاستون بابتسامة حزينة وهي استجابته المعتادة للأسئلة التي لا يفهمها.

ـ حتى رجل عجوز مثلي، يعيش في جحر كهذا، يستطيع أن يقول لك ما تفتقد إليه يابان اليوم... الثقة بالناس. السياسيون والمثقفون أكثر ريبة من الثعالب والغرير. يشك السياسيون بكل المُثل ويشك المثقفون بالإنسان نفسه. هذه حالة تبعث على الحزن.

صب لنفسه كوباً من شاي أسود يشبه الدواء وواصل الكلام بانفعال متزايد:

ـ وحدهم الناس العاديون من أمثالك وأمثالي من يمتلك الثقة أحدهم بالآخر. أولئك النسوة اللواتي جئن بك إلى هنا يوم أمس على سبيل المثال...

يمكن لهن أن يبعن أجسادهن ويسرقن ما أمكنهن لكنهن في قرارة أنفسهن طيبات واثقات بالناس... ثقة تصل حد الحماقة. إن لهن دفئاً في المشاعر تجاه الآخرين وقلوباً صافية. وهي صفات لن تجدها لدى السياسيين والمتعلمين.

جلس غاستون ويداه على ركبتيه يهز رأسه بالرغم من أنه لم يفهم إلا أقل من نصف ما كان يقوله الرجل بانفعال مشبع الأنفاس برائحة السردين.

ـ صفاء القلب... لا يحتاج إليه اليابانيون، يعتقدون أنه شيء زائد لا فائدة منه على الإطلاق في حياتهم ونجاحهم. تلك هي مأساة بلدنا الفقير. لسنا فقراء في الجوانب المادية. اليابان فقيرة في الروح.

انتفض جسده الذابل بغضب وطني بينما هو يقول ذلك.

اعتذر من غاستون لانسياقه مع عاطفته وسأله:

ـ ولكن سيد غاس، ما هي خططك؟

ابتسم غاستون بوهن وأجاب:

ـ لا أمتلك مكاناً لإقامتي. سأبقى سائراً مع كلبي لا أكثر.

ضم العجوز ذراعيه ووقف لدقيقة يفكر.

ـ إذا كانت هذه حالتك لماذا لا تبقى معي هنا؟ أحببت وجهك الطويل هذا كثيراً. هذه أول مرة يقيم فيها أجنبي معي، لكن هذا أيضاً قد يكون كارما من وجودي السابق؟

ـ لا أمتلك أية نقود. أود أن أعمل إن توفر عمل.

ـ لا مشكلة في هذا. كونك أجنبياً قد تستطيع أن تحصل على عمل الرجل السندويج.

ـ الرجل السندويج؟

ـ نعم. هنالك العديد من المطاعم هنا في شيبويا. يمكن أن تتجول في المكان تحمل لوحات إعلان لأحد المطاعم على كتفيك. هذا ما نسميه نحن اليابانيين رجل السندويج. أو يمكن لك أن تصبح عرافاً مثلي وتقرأ للناس طالعهم. قارئ طالع غربي! من المؤكد أن هذا سيلقى شعبية كبيرة.

ـ لكني لا أعرف أي شيء عن قراءة الطالع.

ـ لا صعوبة في الأمر. قد يكون الأمر غريباً إذا استخدمت عصيان الكهانة كما أفعل، لكن بإمكانك تجربة الكارتات.

ـ لكن في هذا خداع للناس.

ـ إطلاقاً. أنت تمنح الناس الموجوعين الذين يقصدونك الشجاعة وتجدد قدراتهم. هذه هي الغاية من كهانتي.

بعدها خفض العجوز صوته وهو يواصل تبرير مهنته:

ـ بالطبع تضطر إلى الكذب إلى حد معين، لكنه كذب غايته خيّرة. سأباشر تعريفك بالمهنة هذه الليلة.

بدأ العجوز في التو واللحظة يعلم غاستون مبادئ أساسية معينة في فن الكهانة. الخطوة الأولى أن تتعلم قراءة الكف. هكذا يتمكن العراف من كسب ثقة ربونه. لابد من الحصول على هذه الثقة منذ البداية.

ـ ولا بد أن تخاطب المرأة بطريقة تختلف عن تلك التي تخاطب بها

الرجل. على سبيل المثال، في حالة المرأة التي يبدو عليها أنها ربة بيت، تحدق في يدها مطيلاً النظر وتقول باهتمام كبير: «مرّ بك كثير من سوء الطالع... والمشكلة أن لك قلباً بالغ الطيبة. لذلك يستغل الناس طيبتك دائماً.» إذا قلت لها هذا تأكد أنها لن تخالفك الرأي في شيء. سيد غاس، هل تفهم ما أقول؟

عندما لم يجب غاستون ابتسم العجوز بفخر مكشراً عن أسنانه الصفر.

ـ إحدى النتائج التي خلصت إليها من دراستي للناس أنه لا وجود لامرأة يابانية واحدة لا تؤمن أن كل ما رأته يهون إزاء ما هو قادم. كلهن يحملن هذه الفكرة مزروعة بقوة في عقولهن.

أردف العجوز يشرح مجموعة من التقنيات الأخرى في قراءة الطالع:

ـ والآن، إذا كان الزبون فتاة شابة، لا بد من استخدام وسيلة أخرى. أيسر الطرق للفوز بثقتها هي القول «ها! هذا بالفعل أمر خارق للعادة! لم أر خطاً كهذا من قبل. لابد أنك مفرطة الحساسية. أنت شخصية معقدة جداً.» ولن تخطئ في اتخاذك هذا السبيل لأن كل واحدة من فتيات المدن مقتنعة أن لديها حساسية تفوق ما يمتلكه الشخص العادي وشخصية معقدة جداً. ويمكن أن تمضي أبعد في هذا السبيل وتخبرها «حساسيتك العظيمة هذه كانت في الغالب مصدر معاناة عظيمة لك.» يحلو لهن التفكير في أنفسهن شخصيات مأساوية. ستهز ثماني نساء من كل عشر رؤوسهن موافقات عندما تقول لهن هذا. بين حين وآخر قد يصل حب المشاكسة بطالبة كانت تحتسي الخمر أو امرأة من البارات ما يدفعها إلى إنكار أنها شخصية مأساوية وتقول إن الحياة بالنسبة لها ملهاة. ولكن حتى في هذه الحالة يمكن لك أن تأخذهن إلى حيث تريد بالقول: «قد يبتسم وجهك، لكن قلبك يبكي. لن تخدعيني. أستطيع أن أرى أي شخص حساس ومعقد أنت.» على أية حال، إذا تمكنت

من الفوز بثقتهن بهذه الطريقة بقراءة الكف، فأنهن سيصغين بانتباه لأي شيء تقوله لهن بعد ذلك.

بهذه الطريقة أكد العجوز لغاستون أن العرافة ماهي إلا الفوز بقلب الزبون.

ـ أنت نفسك، عندما كنت شاباً... لا، عفواً، أنت لا تزال شاباً... مررت بتجربة الفوز بفتاة. قراءة الكف أمر يشبه ذلك كثيراً.

طرفت عينا غاستون. كان قريباً من فهم ما يقول العجوز بيابانيته الغريبة، لكنه لم يلق من الفتيات طوال حياته إلا الازدراء بسبب وجهه الحصاني المستطيل، لم يحظ بحب فتاة واحدة له. فضلاً عن ذلك فإنه بسبب جبنه لم يفكر حتى في المبادرة والعمل على الفوز بحب امرأة.

لكن ما أقلقه الطريقة التي سيتمكن بها من رفض مقترح العجوز المقدم إليه بحسن نية تامة. في المقام الأول، كيف سيتمكن بيابانيته الضعيفة من الوصول إلى هذه الدرجة من الفصاحة المهذبة؟

حلّ المساء. بدأت ظلال الليل تزحف تدريجيا إلى غرفتهما في الطابق الثاني.

ـ هل نخرج؟ الآن سأريك اليابان الحقيقية.

خلع العجوز بلوزته الحمراء القديمة وبنطلونه وارتدى الهاكاما والهاوري[1] كما هي عادته حين يخرج من أجل رزقه. حين غادرا البيت كانت البارات على امتداد الشارع قد أضيئت بالفعل. حيّت النادلات على أبوابها العجوز ثم أبدين دهشة وهن يرين غاستون معه. ظهر نابليون من اللامكان وانتظم خلفهما في مشيته المائلة المعتادة.

(1) الهاكاما تنورة رجالية منقسمة تُعد لباساً رسمياً والهاوري معطف يُرتدى مع الهاكاما. م.

ـ إنه يقيم معي... لا تكنّ حمقاوات. ليس أمريكياً. إنه رجل فرنسي... رجل فرنسي.

شرح العجوز لهن بفخر.

لكنه نظر حين وصلا الشارع الرئيس بشيء من الحزن إلى غاستون وشرح له الجانب الأقل راحة من عمله.

ـ طوكيو مقسمة إلى مناطق ـ كل اليابان كذلك ـ وكل منطقة يسيطر عليها سلّاب يبتز الناس مقابل حمايتهم. أنت أجنبي، ولكن إذا كنت ستساعدني فافترض أن علينا أن نمرّ ونقدمك. سوى السلّاب الصغير هنالك الصبيان الكبار. قبل عام كانت عصابة هاشينو تسيطر على كل شيء. ولكن ثمة حدثاً كبيراً في العام الماضي اضطرت الهاشينو بعده أن تختبئ ولم تظهر مذاك. طوال فترة توليهم الأمر كانت الحوادث يعقب أحدها الآخر. لم يترددوا في ممارسة القتل...

ـ القتل؟

التقط غاستون الكلمة الوحيدة التي فهمها وكررها.

ـ نعم، القتل. لديهم متخصص بالقتل يدعى أندو. كان عليّ أن أعرف. كنت معلمه.

توقف العراف الذي كان ذات يوم مديراً لمدرسة ونظر بحزن إلى غاستون. أردف وقد دفعته الذكرى والانفعال إلى الكلام بسرعة أكبر:

ـ قبل عدة أعوام عندما كنت أدرس في مدرسة ابتدائية في تشيبا، انتقل صبي إلى مدرستنا من طوكيو. كان كل طلبتنا يحلقون رؤوسهم على وفق التعليمات الخاصة بصبيان المدارس في ذلك الحين. لكن هذا الفتى كان له شعر طويل. كان طيباً ومتفوقاً في دروسه. بل لقد حصل على مقعد في

الجامعة. فقدت الصلة به لنحو عشرين عاماً لكني التقيت به صدفة ذات يوم مرة أخرى. كنت يومها قد صرت عرافاً وهو... هو أصبح رجل عصابة. قد تكون الحرب هي المسؤولة، لكنه فقد كل ثقة بالإنسان، كل ثقة بالعالم... لقد تحول إلى عدمي كامل. ولأنه خريج جامعي وتميز في الجيش بوصفه رامياً دقيقاً، لم يستغرق الكثير من الوقت ليشق طريقه إلى الصدارة في عصابة الهاشينو.

واصل العجوز كلامه بصوت خافت لكن غاستون لم يعد يصغي له. كانت المشاهد حوله قد استحوذت عليه: المحال المضاءة بألوان متعددة على جانبي الطريق، واجهات دور السينما الساطعة بنور النيون، السلع الجميلة المعروضة في واجهات المحال، وحشد من الناس يتجولون دون غاية حوله. بوابة محطة شيبويا تطلق موجة كبيرة من الناس عائدين إلى بيوتهم بعد يوم عمل. يمتصهم تيار المارة في الشارع لتعقبهم موجة أخرى. في باريس، في سنغافورة، في هونغ كونغ، كما هو الحال هنا في طوكيو، يعيش بشر لا حصر لهم... يعيشون ولا هدف لهم إلا التشبث بالحياة لأطول وقت ممكن.

كان هنالك قرب المحطة قارئو الطالع شيباً وشباباً يرتدون ملابسهم على طريقة تشوتي وينتظرون الزبائن بصبر في حلقة الضوء الباهت التي ترسمها الشموع في كل كشك.

* * *

لو كان غاستون قد وصل المحطة قبل نحو عشر دقائق لربما رأى تاكاموري في واحدة من الموجات البشرية. لكن ثرثرة تشوتي منعت لقاءهما مرة أخرى. كان تاكاموري قد توقف مع صديقه إيجيما في مكان صغير لتناول الطعام يدعى أوتافوكو حيث جلس في تلك اللحظة ذاتها يشرب البيرة ويحشر في فمه الفول السوداني.

ـ تاكاموري سان، لقد ثقلت فاتورة حسابك. أتمنى أن تدفعها اليوم.

لم تزعجه كلمات النادلة الخشنة وقد تعود على تأفف تومو ي.

* * *

انطلقت القطارات فوق رأس غاستون محدثة جلبة عالية. كلما مرّ واحد منها تساقطت على الرصيف قطرات من سائل أسود. كان نابليون يتشمم حاوية قمامة وينبشها.

في الظلال، التي لم يكن يبددها إلا ضوء شمعة واهن، مدّ العجوز رأسه إلى امرأة كهلة محدودبة ترتدي ملابس بائسة يهمس لها بصوت خافت. المرأة تنظر بين حين وآخر إلى راحتيها وتهز رأسها قليلاً موافقة على ما يقول. دون شك، العجوز يضع موضع التطبيق النصيحة التي قدمها لغاستون في كيفية الفوز بثقة الزبون.

ـ لم تكن حياتك يسيرة. ولأنك راغبة في التضحية بنفسك من أجل الآخرين، هنالك دائماً من يستغل طيبتك هذه.

خلال ساعتين لم يظهر إلا زبونان. الأول ثنائي بدا كأنهما محطوبان، ثم هذه المرأة. بعد أن يغادر كل زبون يرمي تشوتي أجرته المئة ين في محفظة كبيرة من جلد التمساح.

ـ سيد غاس. هل تستطيع أن تأكل شينا ـ سوبا؟

ـ شينا ـ سوبا؟

ـ نعم. إنها معكرونة على الطريقة الصينية. شهية جداً، صدقني.

في نحو التاسعة والنصف أوقف العجوز عربة سوبا مارة وقدم لغاستون وجبة المساء. بدت شينا.سوبا اليوم، شأنها شأن الأو ـ دين في الليلة الماضية، طعاماً شرقياً غريباً جداً لغاستون ومع شهيته النهمة لا يمكنه إلا أن يجدها شهية. أكل نصفها وقدم النصف الآخر لنابليون، وإن أحس بأسف لفقدانه.

بين التاسعة والنصف والعاشرة والنصف لم يظهر أي زبون. جلس غاستون على مبعدة عشرة أمتار في ظلمة نفق القطار. كان العجوز يناديه بين حين وآخر.

ـ لا بأس في جلوسك هناك دون عمل تنتظر، ولكن ألا تود أن تجرب يدك قليلاً بقراءة الطالع من ورق اللعب.

أحس غاستون بتعاطف عميق مع هذا الرجل العجوز ومع المرأة المحدودبة التي مدت له راحة يدها ليقرأها. كان لها وجه بالغ الحزن. أيكون لها طفل رضيع مريض؟ هل وصلت في حياتها إلى طريق مسدود ولم تعد تعرف إلى أين تنقل وجهتها؟ كان بإمكانه أن يرى ما وراء النفق ملايين النجوم تتلامع في السماء كما في الليلة الماضية تماماً.

هنالك على الأرض بشر بعدد نجوم السماء! وغاستون الذي سافر كل هذه المسافة البعيدة إلى اليابان كان يعي ذلك وعياً حاداً. وهو يفهم أيضاً أن هنالك عدداً من حالات سوء الطالع والمصاعب وأسباب الحزن منثورة على الأرض بعدد النجوم في السماء. تمنى غاستون أن يقدم المساعدة لكل هؤلاء البشر التعساء. وبالرغم من بلادته وحمقه أراد أن يفعل شيئاً من أجلهم. لكنه لم يكن إلا أجنبياً لا يملك إلا السير في الشوارع وفي أعقابه نابليون.

الحادية والنصف. انحسر حجم الحشود في الشوارع إلى حد بعيد. مرّ قطار في الأعلى وهز بنية النفق أسفله. تساقطت بضع قطرات من السائل الأسود على الرصيف في الأسفل.

ـ أعجب لموت السوق هذه الليلة؟ إنه كئيب فعلاً.

طلب العجوز من غاستون أن يحل مكانه ريثما يذهب لقضاء حاجته. ما أن غادر الكشك حتى تقدم من ظلال نفق القطار رجلٌ طويل يرفع ياقة معطفه المطري. بدا مريضاً يضع يده على فمه ويسعل.

توقف فجأة عندما اجتذبت نظره الشمعة وغاستون يقف قربها. له وجه مكفهر ينذر بالشؤم. بل التعبير على وجهه أكثر من مشؤوم؛ هنالك ظل معتم لتعاسة بادية عليه. خداه مرتخيان وهو يبدو كمن يعاني من الحمى. في عينيه ومض شرس.

نصب نفسه بثبات أمام غاستون وسأل بصوت أجش:

ـ من أنت بحق الجحيم؟

عندما وجد أن غاستون لا يجيب، سأل مرة أخرى:

ـ من أين أنت؟

انكمش غاستون إزاء تحديقة الرجل الثاقبة إلى الجدار خلف الكشك. داهمه الخوف ذاته الذي أحس به عندما هاجمه قطاع الطرق في شنجوكو. تمتم:

ـ أنا... أنا أجنبي.

تطلع الرجل في غاستون من أعلى إلى أسفل لكنه لم يخرج يديه من جيبي معطفه المطري. بعدها انثنى جسده فجأة بفعل نوبة سعال عنيفة. وقف غاستون يحدق فيه.

ـ ما الذي حدث لسنساي؟

سأل الرجل عندما توقف عن السعال.

ـ ذهب إلى شو بن.

ـ شو بن؟

ـ لا، شوبين.

أجاب غاستون بصوت واجف. كان الخوف قد بلغ به حداً أن الكلمات

اليابانية لم تكن تخرج منه صحيحة. أخرج الرجل من جيبه منديلاً أبيض وبصق فيه بتأن ثم مسح فمه. سمع غاستون من لامكان دقات تعلن الوقت: إنه الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة. تدفق صدى الدقات عبر السقوف السود للبنايات والسماء الحافلة بالنجوم المتلألئة.

ـ ما الذي تفعله هنا في هذا الكشك؟

ـ ليس لدي مكان أبيت فيه... سنساي طيب... أبيت في بيت سنساي.

ـ متشرد! كم مضى عليك وأنت تقيم معه؟

أجاب غاستون أنه لم يقم معه إلا ليلة واحدة. دعا لو أن الرجل العجوز يظهر بسرعة. لكنه لم يسمع وقع خطوات من جهة الطريق العلوي المظلم كالكهف. كل ما تناهى إلى سمعه صوت جرش قطار آخر يمر في الأعلى.

ـ إذن فقد التقيت سنساي الليلة الماضية لأول مرة؟

بدت على وجه الرجل الذي لم يكن يضيئه إلا نور الشمعة الكابي ابتسامة واهنة.

ـ ساعدني أيها الأجنبي.

أردف عندما امتنع غاستون عن الإجابة:

ـ أحتاج إلى مساعدتك. لدي ثقب في عجلة سيارتي ولا بد أن أبدلها.

لم يكن مستوى غاستون في اليابانية يصل به حد إدراك أن صيغة المخاطبة التي استخدمها الرجل معه قد أصبحت شديدة التهذيب فجأة.

ـ ساعدني. سأدفع لك مقابلها.

اتخذ قلب غاستون الوجِل موقفاً دفاعياً تجاه الرجل. إذا ما ذهب معه قد يحدث أي شيء. وهذه الفكرة جعلته ينكمش مبتعداً عنه. لكن الرجل عانى عندها من نوبة سعال عنيفة أخرى.

فكر غاستون أن الرجل مريض. وقال لنفسه وهو يرى معاناة الرجل من ألم شديد: أنت لا تزال ترتاب في الناس. لماذا قطعت كل هذه المسافة إلى اليابان؟ أما زال يتعذر عليك الثقة بالناس؟

ـ سأذهب معك.

أتبعد غاستون يمشي في أعقابه.

اجتازا النفق وانعطفا يساراً إلى زقاق مظلم. على يسار الزقاق حائط إسمنتي رمادي كأنه بطن أحد الحيوانات، يمتد أمامهما إلى مسافة بعيدة. هنالك قرب الحائط سيارة سوداء يصعب تمييزها في الظلام. قال الرجل لغاستون:

ـ العجلة الأمامية. أيها الأجنبي، اخرج الأدوات من السيارة.

دفع غاستون جسده إلى داخل السيارة ممتثلاً لما طلب منه من خلال الباب نصف المفتوح. هنالك في الداخل رائحة عطر.

ـ في الخلف، تحت المقعد الخلفي. هنالك حقيبة سوداء، هل تراها؟

سأل الرجل وهو يقف في الخارج دون أن يخرج يديه من جيبيه. تحسس غاستون المكان ووجد شيئاً ملفوفاً في قطعة قماش سوداء بين المقعد الخلفي والنافذة الخلفية. سأل:

ـ هل هي هذه؟

ـ نعم، هي هذه. لا تكسرها.

دس الرجل نفسه في السيارة.

ـ تناولها بعناية. هاتها.

أوحى الرجل أنها كانت شيئاً قابلاً للكسر، لكن الجسم الملفوف بالخرقة السوداء بدا ثقيلاً في يد غاستون. بدا وكأنه مصنوع من النحاس أو الحديد

ـ اجلس!

قال صوت قادم من فوق رأسه مباشرة. حينها فقط أدرك أن هنالك رجلاً أخر يتمدد على المقعد الأمامي.

ـ أندو، لقد التقطت شخصاً غريباً بالفعل.

تكلم الرجل في المقعد الأمامي بصوت خافت مع الرجل في المعطف المطري.

ـ ما الذي حدث للعراف العجوز؟

ـ سأشرح لك فيما بعد. شغل السيارة.

أغلق الرجل في المقعد الأمامي باب السيارة ودون أن يستأذن من غاستون شغل المحرك. هدرت السيارة بصوت رتيب ثم تحركت.

ـ لا...

ـ لا...

قلد الرجل الذي يدعى أندو غاستون.

ـ سنأخذك معنا.

ـ الكلب سان.

ـ ماذا؟

ـ نابليون سان...

التفت غاستون إلى الوراء ورأى في الضوء الواهن الذي يلقيه ضوء الشارع أن المغفل المهزول كان يعدو بأقصى ما يمكنه خلف السيارة. ضغط غاستون وجهه على النافذة:

ـ آآآآ، نابليون سان...

لكن نابليون كان طاعناً في السن مريضاً. ضيّع وجهته وارتطم بأعمدة الإضاءة حتى اضطر أخيراً إلى التوقف عن المطاردة وبقي واقفاً هناك. ظلّ غاستون يراقبه حتى تحول إلى نقطة في الظلام ثم اختفى.

شعر غاستون لأول مرة في حياته بالغضب يتصاعد في أسفل معدته مثل خثرة سوداء من الدم. كان هذا الكلب أول من تلقى مساعدة منه بعد وصوله إلى اليابان. إنه أكثر من مجرد كلب، لقد ظل يلازمه اليومين الأخيرين، يشاركه حياته. رأى في عيني ذلك الكلب القبيح انعكاساً لحزنه هو نفسه. كيف سيتمكن الكلب من العيش بدونه؟

ـ سأخرج من السيارة!

ضغط غاستون على كتف أندو الذي كان يجلس إلى جواره. كان وزنه من الثقل أن أندو طرفت عيناه بألم. سقطت الحزمة السوداء على الأرضية وخرج منها جسم ثقيل. كان مسدس كولت.

الفصل السادس

ليلة في سانيا

لم يحاول الرجل ذو المعطف المطري أن يوقف غاستون أو يستعيد مسدسه. غلبته قبل أن يتمكن من إبعاد يد غاستون الثقيلة الضاغطة بكل ثقلها على كتفه نوبة سعال أخرى. وضع كفّه على فمه وسعل بعنف.

لو كان غاستون قد انتهز هذه الفرصة لتمكن من استعادة المسدس الذي كان مرمياً عند قدميه. لكنه حين رأى جسد أندو يهتز بألم شديد ورأى للحظة في عينيه ذلك البريق الحزين الذي يظهر في عيني حيوان يُقاد إلى الذبح سحب يده ببلاهة منصاعاً لطيبة قلبه.

مسح أندو فمه بمنديل أبيض، ثم فتح المنديل وتفحصه على ضوء ولاعة سجائره. ارتسمت وشيعة حمراء من الدم تشبه الحرير تختلط بصاقه. حدق أندو في الدم.

فكر غاستون أن هذا الرجل مريض. استدار بظهره إلى النافذة الجانبية وتذكر بتعاطف جسد أندو المتقبض بحزن قبل لحظات وضوء النظرة الغريبة الذي برق في عينيه المظلمتين وانطفأ. ذهب غضبه كلياً. عندما انحنى أندو بمهل واستعاد المسدس لم يعد غاستون قادراً على إيقافه. ظلّ السائق في تلك الأثناء يلقي نظرات حادة على المقعد الخلفي بينما هو يقود السيارة. كان سيوقف السيارة مباشرة لو أن غاستون حاول أن يقيد حركة أندو.

ـ هل أنت على ما يرام أندو؟

ـ نعم.

ـ أليس معك أي دواء؟ لأنك لم تأخذ دواءك تعاني بهذا الشكل... توجد أدوية جيدة الآن حتى للتدرن الرئوي. لا يبدو عليك أنك تريد أن تتحسن أو تشفى.

ـ ما الفرق إن كنت حسن الصحة أو سيئها؟

أجاب أندو بصوت أجش:

ـ لن يحصل قاتل مثلي على الكثير من المتع من حياة طويلة.

بعدها التفت نحو غاستون وبنصف ابتسامة رفع يده التي تحمل المسدس. أبقاه مصوباً نحو غاستون لبعض الوقت مستمتعاً بمراقبة الوجه الحصاني الطويل لهذا الأجنبي وهو يتشنج رعباً. وضع أصبعه على الزناد وسحبه ببطء.

لم يحدث شيء. علا صوت خافت فقط ولم ينطلق من المسدس شيء.

ـ لا تحاول الهرب أيها الأجنبي... سيكون ثمة رصاصات في المرة القادمة. هل تتكلم الإنجليزية؟

سأل أندو بالإنجليزية. عندما امتنع غاستون عن الإجابة، كرر سؤاله:

ـ أقول هل تتكلم الإنجليزية؟

هز غاستون رأسه بضعف:

ـ أنا... أنا... رجل فرنسي.

ـ تي![1]

من الغريب أن الرجل ذا المعطف المطري عبّر عن دهشته بالفرنسية «تي يه فرنسيه؟ مون ديو!»[2] كان في كلامه لكنة خفيفة لكن فرنسيته مفهومة.

---

(1) «مرحباً.» بالفرنسية.

(2) «هل أنت فرنسي؟ يا إلهي!» بالفرنسية.

ـ أندو، هل تتكلم الفرنسية؟

سأل السائق بصوت منخفض وهو يقود السيارة نحو منعطف.

كانوا في جادة واسعة تمتد من كومابا إلى ميغورو.

ـ درستها منذ وقت طويل.

ـ ما الذي تنوي أن تفعل بهذا الفرنسي الوغد؟

ـ نستطيع أن نستخدمه بدلاً من الرجل العجوز. كونه أجنبياً يجعله مفيداً لنا فائدة خاصة عند الهرب.

أجاب أندو وهو يدفع الرصاصات إلى مخزن المسدس في راحة يده. بدت المحال على طول الشارع من نافذة السيارة مجرد أضواء مضببة. لم يكن بوسع أحد من الماشين على الأرصفة أن يخمن أن غاستون كان في السيارة يرتعد هلعاً.

• • •

كان ينوي أن يحتسي كأساً واحدة فقط ويتجه إلى البيت، لكنه لم يسيطر على نفسه كالعادة وهكذا قام بجولة مع صديقه إيجيما إلى أوتافوكو وهيروشيتشان وهوتا وبارات أخرى. قبل أن يعي ذلك بدأت دقات الساعات في محال طوكيو في شيمبويا تعلن منتصف الليل. خطر له في تلك اللحظة وجه أخته الغاضبة مما يفعل. ظل حتى وقت قريب قادراً كلما عاد إلى البيت متأخراً أن يتسلل إلى الدار من خلال باب المطبخ الذي تتركه ماتشان مفتوحة القفل تقديراً له. لكن لصاً هجم قبل شهرين على دار عائلة أيوامي القريبة، ومنذ ذلك الحين صارت تومويي تتأكد بنفسها أن كل أبواب الدار بما فيها باب المطبخ، وحتى البوابة الرئيسة، تكون محكمة الإغلاق قبل الساعة العاشرة. سياج الدار منخفض بما يسمح بالتسلق وعبوره، لكن الطريق الوحيد لدخول الدار الآن هو بدق جرس الباب. وبالطبع تومويي هي من يأتي ليفتح له الباب.

قال لإيجيما:

ـ أنت محظوظ لأنك تعيش في شقة.

ـ لا تكن سخيفاً. ليس لدي زوجة تعتني بي عندما أعود.

ـ على الأقل ليس لديك أخت سليطة اللسان تنكد عليك.

سار تاكاموري بعد أن افترق عن إيجيما ببطء نحو المحطة ليصعد الباص عائداً إلى البيت وهو يفكر طوال الوقت، أي عذر يمكن أن ينتحل هذه الليلة؟ حفلة تخص الشركة واضطررت للبقاء لأجامل أصحاب الشأن... التقيت بصديق قديم من أيام الجامعة... يمكن أن يفكر بأشياء كثيرة أخرى. المشكلة انه استخدم كل هذه الأعذار من قبل. لن تُخدع.

ثم هنالك استراتيجية الهدية. يمكن أن يشتري موزا بمئة ين ويدفعه نحوها ما أن تفتح الباب. يمكن أن يقفز إلى الدار ويعلن «الكثير من فيتامين سي... تغذية كاملة... هدية صغيرة عربون الأخوة.» هذه الخطة نجحت بين حين وآخر لكنه هذه الليلة أفرط في الشراب حتى لم يبق معه مئة ين. ليس معه غير تذكرة الباص ومحفظة فارغة.

فجأة رأى شيئاً جعله يتوقف بسرعة. رأى كلباً رثاً عجوزاً هزيلاً يضلع سرعان ما تعرّف عليه. كان ردفه البارز يشبه لوحاً من الخشب.

ـ هذا هو الكلب الذي أتخذه غاستون رفيقاً!

كان تاكاموري قد حدّث إيجيما عن غاستون بينما هما يشربان معاً. لم يبق معهم أكثر من أسبوع لكنهم بدأوا يشعرون وكأنه سقط عليهم من سماء زرقاء بعيدة. له قلب نادراً ما يلتقي المرء بمثله في هذا العالم الأناني. شخصية أصيلة ومودة لا تنقطع.

ـ يكفي أن تعرف أن هنالك رجالاً مثله في العالم لكي تتغير نظرتك للحياة.

هذا ما وضحه تاكاموري لإيجيما.

ضلع الكلب الذي شمله غاستون بعنايته ماراً به واختفى عند منعطف في الشارع المظلم.

إذن فغاستون لابد أن يكون في شيبويا! نسي تاكاموري كل ما يتعلق بالعذر الذي سيقدمه لتوموي وبدأ يعدو خلف الكلب. عند الزاوية التي اختفى فيها الكلب رأى عرافاً عجوزاً يستعد لإغلاق دكانه في نهاية الليل.

* * *

بدأت خيوط رفيعة من المطر تضرب نوافذ السيارة بزاوية حادة ثم تسيل عليها وتجعلها تبدو كما لو كانت مشروخة.

ـ أندو، لقد نزل المطر.

ظلّ أندو يضغط وجهه على النافذة دون أن يجيب.

ـ هل تذهب إلى سانيا؟

ـ ماذا؟

ـ هل نذهب إلى سانيا... أم نمر على ميتشيكو؟

لم يجب أندو فأردف صاحبه:

ـ قد تكون ميتشيكو مُراقَبة، أنا أعرف أنك تريد أن تراها لكن في ذلك خطراً شديداً.

ـ نعم.

ـ أعتقد أن من الأفضل لنا أن نجد ملجأ في سانيا هذه الليلة.

ـ قد تكون على حق. أتركُ الأمر لك.

دس أندو المسدس في جيبه ووضع سيجارة في فمه. سأل وهو يستدير إلى غاستون:

ـ هل تدخن أيها الأجنبي؟

هز غاستون رأسه بقنوط. في ضوء الولاعة التي أشعلها أندو انكشف لبرهة جسد غاستون الضخم متكوراً في الزاوية مثل دب وصورة وجهه الجانبية مدفوناً إلى النصف في ذراعيه. بدا أن غاستون بالرغم من بلادته قد أدرك الموقف الذي تورط فيه.

أغمض غاستون عينيه ومرّت خلف جفنيه مجموعة من الصور. المرأة التي أعطته شيئاً يأكله. العرّاف العجوز وجسده الشبيه بشجرة يابسة. السائل الأسود الذي تقطّر كلما مرّ قطار على السكة. ثم صورة نابليون المثيرة للشفقة بمشيته الغريبة يعدو خلف السيارة.

كانت الشوارع الليلية المبللة بالمطر تتلامع سوداء. مرت بهم عدة سيارات. استرق غاستون نظرة إلى لوحة المقاييس. إبرة مقياس السرعة الفسفورية تشير إلى 40 كم.

ـ لقد وقعنا بالفخ أندو.

هتف السائق فجأة.

ـ هنالك نقطة تفتيش للشرطة.

يمكنه على مبعدة في الطريق الذي بدا مثل نهر أسود رؤية أربعة أو خمسة رجال يحملون مشاعل.

ـ شرطة؟

ـ يبدو ذلك.

ـ لا تتحرك.

قال أندو بصوت خفيض ولكنه حاد لغاستون الذي بدأ يغير جلسته. وضع يده في جيب معطفه المطري. أحس غاستون بجسم صلب ينضغط على ضلوعه.

ـ لن أتردد في إطلاق النار. أعني ما أقول.

تطلع غاستون وهو يسند رأسه بيديه الكبيرتين الضخمتين إلى أندو في توسل صامت طلباً للرحمة.

ـ أنا... أنا أريد أن أعود.

ـ الآن أيها الأجنبي، اضحك وتظاهر بأنك تحدثني... خصوصاً عندما ينظرون داخل السيارة. هل تفهم؟ اضحك!

ـ أريد أن أعود!

ـ حسنا. ولكن اضحك! بار لوني بار تكوا.[1]

ارتسمت على شفاه أندو ابتسامة واهنة، لكنه أبقى اليد التي تضغط المسدس قريبة من أضلاع غاستون. اقترب منهم شرطي شاب يحمل مصباحاً في يده اليمنى. ضغط السائق بقدمه على دواسة التوقف في انصياع وأوقف السيارة.

ـ ساكر فلك... فو ديابل، نوبا مونسيو.[2]

تظاهر أندو بوجه ضاحك أنه كان يتحدث مع غاستون. حاول وهو يطلق سلسلة من الكلمات الفرنسية غير المترابطة أن يعطي انطباعاً بحوار ودي.

إن كان له أن يهرب، الآن هي فرصته. ركز غاستون نظره على رجل الشرطة الذي كان له وجه صبياني تحت قبعته. وبما أن المسدس بقي مغروساً في أضلاعه فإنه لم يقل شيئاً لكنه حاول أن يعبر عن يأسه بنظرة عينيه. لسوء الحظ كلما زادت جديته زاد الانطباع المرسوم على وجهه الحصاني الطويل كوميدية.

---

(1) «تكلم بأي شيء.» بالفرنسية.

(2) «أيها الشرطي المبجل... اذهب إلى الجحيم، أليس كذلك يا سيد؟» بالفرنسية

ـ فل دي بوتان دي كرابو.[1]

ـ عفواً.

نقر رجل الشرطة على نافذة السيارة بأطراف أصابعه.

ـ نحن نفتش السيارات كلها.

ـ كيل بت رانس.[2]

حافظ أندو على المظهر العادي دون أن ينسى الابتسامة. عندما فتح غاستون النافذة غاص مسدس الكولت أعمق في جانبه.

ـ كاكا ميرد بيبي.[3]

ـ أوو، أجنبي.

قال رجل الشرطة وقد غلب على سلوكه مباشرة شيء من التحفظ.

ـ خذ!

وضع غاستون بيأس خرقة بيضاء بين يدي رجل الشرطة. فتح رجل الشرطة المذهول الخرقة فسقط منها على الجانبين شريطان طويلان. كانت المئزر الذي سبب من قبل مشكلة لغاستون.

اعتذر أندو وهو يبتسم بسخرية لرجل الشرطة:

ـ لقد شرب هذا الأجنبي أكثر من طاقته. إنه كوميدي حقيقي. هل نستطيع أن نمضي في سبيلنا أيها الضابط؟

ـ حسناً، انطلقوا.

---

(1) «أيها التافه يا ابن العاهرة.» بالفرنسية.

(2) «اساق حيوانات أليفة.» بالفرنسية.

(3) «أنبوب البول.» بالفرنسية.

أشار رجل الشرطة الشاب وهو لا يزال مذهولاً. بدأت السيارة تتحرك من جديد عبر تثيث المطر وسرعان ما تركوا المصابيح الصفر بعيداً خلفهم.

ـ هل سبق لك وأن رأيت شيئا كهذا؟

قال السائق متعجبا وهو يلتفت إلى الخلف.

ـ هذا الشخص ليس في كامل قواه العقلية.

ـ ربما هو كذلك، لكننا تمكنا بفضله من العبور. أيها الأجنبي، هل أنت معتاد على مثل هذه الأفعال المجنونة؟

* * *

في تلك اللحظة ذاتها، كان تاكاموري يتلقى تقريراً عن فعاليات غاستون من تشوتي العراف.

ـ لقد اختفى عندما ذهبت لأتبول. كل متاعه ما زال هنا.

بالتأكيد كانت حقيبة غاستون الدوفيل، وهي كل ما يملك، مطروحة على الأرض.

ـ لقد انتظرته لساعة لكنه لم يعد.

ـ أين تعتقد أنه اختفى؟

ـ هذا ما لا أعرفه.

ـ ألا تستطيع أن تعثر عليه باستخدام عصيك الخاصة بالعرافة. ألن تخبرك عن مكانه؟

ـ لا، لا أعتقد.

أجاب الرجل العجوز بارتباك وصوت خفيض.

* * *

ازدادت شدة المطر. انطلقوا في السيارة لساعة أخرى. لف غاستون ذراعيه على رأسه المتدلي وبدا له اهتزاز السيارة الإيقاعي وكأنه حديث بشري. يشبه صوت تومو ي حيناً، ويشبه صوت تاكاموري حيناً أخر. عليك أن تهرب غاس. عليك أن تهرب. فجأة صار يشبه صوت العراف العجوز الحاد وهو يخاطبه. لا لم يكن صوت تشوتي بل صوت أخر، همسُ شخص آخر لا يستطيع أن يتبين وجهه. أما زلت تشك في الناس؟... ألستَ من قرر أن يثق بكل الناس. خلف جفنيه المغمضتين ارتفعت مرة أخرى صورة النجوم تتلامع في سماء الليل، ثم نابليون وهو يلاحقه مذهولاً حتى خارت قواه وتوقف.

ـ ها قد وصلنا أندو.

رفع أندو ياقة معطفه المطري وفتح باب السيارة.

ـ انزل أيها الأجنبي.

هطل المطر على وجه غاستون ورقبته. أسلم نفسه لمصيره وهو يكشف جسده الشبيه بجسد الفيل للمطر الأسود في هذه البلاد الغريبة. فتح السائق راديو السيارة. مغن يدندن أغنية عاطفية.

أيتها اللطيفة لا تكوني قاسية

حبيبتي لا تكوني دون قلب

ـ إذن سأمضي في طريقي.

أغلق السائق الباب ولوح بيده. هز أندو رأسه مجيباً ثم تحرك مقترباً من غاستون وأشار له أن يتبعه.

هبّ عبر المطر ما يشبه رائحة حيوان تقريباً. كان أمامهم صف طويل من البيوت التي بدت مثل حظائر الحيوانات، قربها صف من العواهر تحت مظلاتهن ينتظرن الزبائن.

ـ أين نحن ذاهبون؟ هنا؟

سأل غاستون بدهشة. أجاب أندو متجهماً وهو يضع يديه على وجهه ليتقي المطر:

ـ هذه سانيا. سانيا. ما زلنا في طوكيو لكن ذراع الشرطة لا تصل هذا المكان. لذا الأفضل لك أن تذعن...

تطلع غاستون حوله ورأى أن كل البيوت نُزُل في الواقع، لكنها تختلف كثيراً عن تلك الموجودة في شيمبويا. كانت كلها قذرة، متداعية، وفي الشرخ المرتسم على شباك كل واحدة إعلان مفاده الليلة مقابل أربعين يناً. لم يكن ما يُصدّق أن مبيت ليلة يمكن أن يكون بهذا السعر الزهيد. دخل أندو في أحد هذه البيوت.

ـ هل لديك غرفة خاصة؟ غرفة لاثنين؟

ـ إن أردت أغطية ستكلفك 300 ين.

أجاب الرجل من الداخل لكي لا يريا وجهه.

ـ حسناً.

دفع أندو ورقة بثلاثمئة ين عبر فتحة صغيرة في الباب.

ـ اذهبا إلى الطابق الثاني. الباب الثانية على اليمين. من الأفضل أن تُدخلا أحذيتكما إلى الغرفة وإلا فإنها قد تسرق.

سار غاستون يتقدمه أندو وصعدا السلالم. كانت رائحة الحيوانات التي أحسها من قبل تنتشر في المكان كله، في الغرفة التي دخلاها وكذلك في الممر. السجادات على الأرض بنية بفعل القدم، والحيطان خربش عليها النزلاء السابقون، والبطانيات مكومة في زاوية. ليس في الغرفة الضيقة شيء آخر. بدت لغاستون غرفة في الجحيم. صحيح أن مأوى تشوتي كان أكثر فوضى من هذه الغرفة، لكنه على الأقل يمنح الإحساس أن فيه حياة.

ـ لا تترك أحذيتك في الممر.

حذره أندو.

ـ ومن الأفضل لك أن تكوّر ملابسك وتنام عليها كوسادة. بخلاف ذلك سيسرقونها منك في الليل أيها الأجنبي.

استند أندو إلى الحائط وبدأ وهو يسعل بصوت خشن بتلميع مسدسه بمنديله.

ـ هل نأوي إلى أسرتنا؟

بعد أن رتبوا أسرّتهم على السجاد، خلع أندو معطفه وقميصه وبنطلونه وفعل ما نصح غاستون أن يفعله. طواها كلها ووضعها تحت وسادته. كان قد بدا بكامل ملابسه طويلاً نحيفاً. الآن وهو في قميصه الداخلي اتضح أن له بنية متينة. لم يكن الجسد الذي يتوقعه المرء لرجل يسعل دماً وضع مسدس الكولت في المركز تماماً من سريره مبدياً في ذلك حذر الرجل الذي يعيش من مسدسه، فإذا ما فاجأه عدو في نومه كان ذلك الموقع هو الأفضل. يمكن الوصول إليه بأقصى سرعة.

ـ أيها الأجنبي، ألن تأوي إلى فراشك؟ الساعة الآن هي الثانية صباحاً.

قال أندو بصوت منخفض، وأضاف:

ـ ولكن دعني أحذرك، نومي خفيف. سأسمعك إن حاولت مغادرة الغرفة.

ابتسم غاستون بحزن. كان لا يزال يرتعش خوفاً وقلقاً، لكن شيئاً في داخله أخبره أن عليه أن يبقى في مكانه.

أطفأ غاستون المصباح 30 واط وزحف إلى سريره. خرج جزء كبير من ساقيه خارج الأغطية. والأسوأ من ذلك أن الأغطية مشبعة برائحة غريبة، لم تكن رائحة عرق أو الرائحة المعتادة للجسد. ليست في أغطية الفراش وحدها

ولكن في الحيطان والسقف أيضاً. كل شيء يطرح تلك الرائحة الغريبة الكريهة. أغمض عينيه وأصغى إلى المطر يضرب على زجاج النافذة. سمع من مكان ما ضحكة زاعقة لامرأة حزينة متوترة. أصبح المطر أكثر إلحاحاً وبدا صوته مثل فرقعة حبات الفاصوليا. بدأ أندو يسعل من جديد. وكان في صوت سعاله شيء حزين أيضاً.

ـ مريض؟

سأل غاستون بصوت منخفض. عندما لم يجب أندو، سأل مرة أخرى:

ـ هل أنت مريض؟

ـ أعاني من التدرن الرئوي. كيف تقول ذلك بالفرنسية، لقد نسيت. مرّ وقت طويل منذ درست الفرنسية.

ـ توبر كالاس.

ـ هل تلك هي الكلمة؟ توبر كالاس. إنها كلمة فظيعة.

استدار في سريره وواجه غاستون.

ـ أنت، هل أنت فعلاً صعلوك متشرد؟ لماذا جئت إلى اليابان؟

لم يجب غاستون.

ـ لا تريد أن تقول؟ لا تقل إذن، لا يهمني ذلك على أية حال.

ـ ما عملك؟

ـ عمل؟

ضحك أندو ضحكة منخفضة خشنة:

ـ أعتقد أنك تستطيع أن تسمي قتل الناس من أجل المال عملاً.

ـ قتل الناس؟

لاحظ أندو نبرة الخوف في صوت غاستون فربت على أغطية السرير الأجنبي بأصابعه.

ـ لا تخف. إن لم تحاول شيئا لن أقتلك. هنالك شيء أود أن تساعدني فيه.

ـ ما هو؟

ـ أنوي قتل رجل. ليس من أجل المال هذه المرة.

لم يقل أندو المزيد. بدأ يسعل من جديد. امتزج صوت السعال مع صوت المطر وبدا وكأنه يتواصل دون انقطاع.

***

لم يكن بوسع غاستون بالطبع أن يعرف شيئاً عن سانيا هذه، المعروفة باسم الغابة السوداء ـ كاسبا طوكيو. بيوت خشبية رخيصة يُطلق عليها تأدباً تسمية نُزل تمتد بمحاذاة الشوارع. نحو مئة وخمسين منها.

وكما علم غاستون بدهشة، يمكن للمرء أن يحصل على سكن هنا بمبلغ لا يتعدى أربعين يناً (في مهاجع السكن المشترك)، ويمكن مقابل مبلغ أقصاه ثلاثمئة ين الحصول على غرفة خاصة. في بعض النزل التي تسمى نُزل المئة، مئة ين يحصل المرء مقابلها على مكان في سرير ذي طوابق. وكانت هذه الأسرة ذات الطوابق مكدسة في صفوف مثل صحون دودة القز. أما في مهاجع السكن المشترك فهي تزدحم بمجموعة متنوعة من كل صنف من الرجال، لكن غرف الثلاثمئة ين تكون مخصصة في الغالب للعوائل. وهي عادة عوائل شغيلة يعرضون أنفسهم للعمل اليومي، وكذلك عوائل متشردين وقوادين وأصحاب سوابق.

تمكنت مجموعة من هؤلاء الشغيلة، بالرغم من أنها تعمل بأجور يومية، من ضمان عمل تقصده يومياً بانتظام، بينما بقيت مجموعة أخرى في الشارع

تنتظر كل صباح شاحنة تأتي وتأخذهم إلى حيث تكون حاجة إليهم في ذلك اليوم. القوادون يعيشون من الدخل الذي تأتي به النساء اللواتي يعملن لحسابهم. لكن قوادي سانيا كانوا من صنف مختلف عما هو موجود في المناطق الأخرى من طوكيو. هنالك في سانيا عدد من العوائل جاءت إلى طوكيو من الريف لتحصل على رزقها لكنها واجهت أوقاتاً صعبة وعسيرة. استأجرت إحدى غرف ثلاث مئة ين وتمكنت بشكل ما من أن تكيّف نفسها معها. تعني ثلاث مئة ين يومياً تسعة آلاف ين في الشهر. قد يبدو أن هذا المبلغ يمكن أن يوفر لهم العيش في مكان أفضل. ولكن لأن هؤلاء الناس كانوا يحصلون على أجر يومي، لم يتوفر بأيدهم تسعة ألاف ين دفعة واحدة. لم يكن أمامهم إلا أن يدفعوا أجرة ثلاث مئة ين يومياً ويزدحمون معاً، الزوجة والزوج والأطفال.

في بعض هذه العائلات يلعب الزوج دور القواد ـ بموافقة الزوجة بالطبع ـ وبذلك تذهب الزوجة وتقف على الشارع لتغوي الزبائن وتقودهم إلى غرفتها. في أثناء ذلك يكون على الزوج والأولاد اخلاء الغرفة والانتظار حتى تنتهي الصفقة.

في حوالى الساعة الثامنة ليلاً، تبدأ عشرات من النساء الوقوف في الأزقة المظلمة بين تلك النُزل، ومنذ تطبيق قانون مكافحة الدعارة لم يكن يتوفر مكان آخر في طوكيو يمكن لكل هذا العدد من النساء الانتشار فيه على طول الشوارع مستعدات لمزاولة المهنة. كان زبائنهن في الأيام الماضية يتكونون حصراً تقريباً من شغيلة النهار الذين يعيشون في المنطقة نفسها، ولكن ظهر مؤخراً زبائن قادمون من مناطق أخرى في المدينة حرمهم القانون من متنفس مناسب لشهواتهم. وكانوا يأتون زاحفين كالنمل إلى سانيا. مع منتصف الليل يزداد عدد العواهر في الأزقة زيادة كبيرة. ولأن النساء في سانيا لا يخضعن

لتنظيم ولا يعملن بإمرة مسؤول، صار بإمكان أية واحدة أن تعمل هنا. تروى قصة امرأة تشاجرت مع زوجها وتركت البيت في نوبة غضب فذهبت لمشاهدة فيلم في أسا كوسا. بعدها وقد أنفقت كل ما لديها من نقود وجدت زبونا هناك وعادت إلى البيت في الصباح التالي.

حتى الشرطة، عدا حالات القتل أو غيره من الجرائم الخطرة، كانت تغض الطرف عن هذا النوع من الدعارة ما لم يحدث أن يتعثر رجل الشرطة بمشهد لا يستطيع أن يسكت عنه. لكن الدعارة ليست كل ما يحدث في هذا المكان. في هذه النزل الشبيهة بحظائر الحيوانات، تنتشر جرائم الابتزاز والسرقة وغيرها دون رادع.

الأيام المطيرة في سانيا خطرة على نحو خاص. والسبب أن العمال الذين يعيشون في النُزل لا يخرجون إلى العمل في مثل هذه الأيام المطيرة، ويكونون في مزاج متوحش على نحو خاص. وكانت الليلة التي أمضاها أندو وغاستون هناك واحدة من الليالي المطيرة المشحونة بالخطر.

«قتل الناس»، كان أندو قد تلفظ بهذه العبارة المخيفة بلامبالاة، وظلت تتردد في عقل غاستون.

أغمض عينيه وحاول أن ينام لكن النوم لم يزره. كان صوت المطر الأسود الذي يضرب السقف متصلاً بأذنيه، وثمة شيء يزحف أعلى ساقيه... بعوضة؟ قملة؟ أنا أحلم، لا بد أنني أعيش كابوساً مزعجاً، قال لنفسه. لا يزال يعيش في بيت تومومي. ثقل البطانية اليابانية على صدره أورثه ذلك الحلم المخيف. لا، إنه في الواقع في غرفة تشوتي الضيقة. انظر، الرجل يتنفس قربه بعمق وهو ناسك الشرق، ذلك الرجل الهزيل الذاوي كالقصبة.

لكن الرجل الذي يتنفس قربه لم يكن تشوتي أو تاكاموري. كان قاتلاً

وعلى مقربة منه مسدس كولت في متناول يده متى شاء. قد يغوص غاستون في غفوة قصيرة لبعض الوقت، لكنه يفتح عينيه بعد ذلك مرة أخرى ويختلس نظرة إلى ذلك الجسد الممدد قربه.

بدأ ضوء الصباح ينبثق في سانيا.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

بالرغم من أن غاستون لم يبد إلا حركة بسيطة في مغادرة فراشه قفز أندو وصاح به. بعدها وقد فهم هزّ رأسه:

ـ آه، إلى الحمام. من الأفضل لك ألا تحاول شيئاً غريباً.

ـ لا، لا، أنا...

ـ لا فائدة من محاولة الهرب. هناك طريق واحد يؤدي إلى خارج البناية. أستطيع أن أسمع خطواتك من هنا. حاول فقط، سأعلم مباشرة إن كانت وجهتك نحو الباب.

هز غاستون رأسه وخطا بهدوء إلى الممر. لم يكذب أندو. كان هنالك سلم واحد فقط يقود إلى الطابق الأول. فضلاً عن ذلك كان الحمام كما تدلّ الرائحة يقع في نهاية الممر مقابله.

طرفت عينا غاستون وهو يمشي. مسح وجهه الحصاني بيديه الكبيرتين وكفكف دموعه.

على جانبي الممر عدد من الألواح الخشبية المائلة التي تآكل الورق عليها. بالإمكان سماع رجل يشخر بعمق من الفتحات الموجودة في الألواح. ورائحة الحيوان نفسها تنتشر في كل مكان أيضاً. فجأة سمع غاستون صوتاً خفيضاً يناديه:

ـ هي! هي!

توقف غاستون ونظر خلفه ولكنه لم ير أحداً.

ـ هي! هي!

أدرك هذه المرة أن الصوت كان يأتي من شرخ في أحد الألواح يقع أمامه مباشرة.

ـ من؟

ـ أنا. هل تتذكر؟ شيبويا؟

بعدها استطاع أن يميز الصوت. كانت ذلك صوت المرأة التي أعطته الأو ـ دن ليأكله.

ـ أوو، أنت!

ـ اخفض صوتك.

ـ هل تصنعين الشوين هنا أيضا؟

ـ لماذا تركت محل السنساي؟ لقد لمحتك ليلة أمس وصُدمت.

التزم غاستون الصمت.

ـ هل تعرف هذا الرجل بصحبتك. إنه أندو من عصابة هوشينو وهو يعاني من التدرن الرئوي. إنه رجل بلا دم أو دموع، يقتل الرجال ولا بد أنه سيُقتل هو نفسه يوماً ما. من الأفضل لك أن تخرج من هنا بأسرع وقت.

ظل غاستون يلزم الصمت.

ـ هيا تحرك! اذهب! لا تضيع دقيقة واحدة. اهرب إلى أي مكان أمامك. اترك البيت واعدُ إلى الشارع الرئيس حيث يمكن أن توقف سيارة تاكسي. هل ما زالت الينات معك، ثلاثة آلاف ين؟

تذكرت المرأة محفظة غاستون.

ـ اركب التاكسي وقل للسائق شيبويا. عندما تصل هناك اذهب إلى دكان سنساي مباشرة وأخبره أن أندو قد ألقى القبض عليك.

ـ نعم.

هز غاستون رأسه. ولا بد أن المرأة قد حدست شيئاً لأنها توقفت فجأة عن الكلام. سمع شخصاً يتنحنح خلفه. التفت فرأى أندو يقف هناك مرتدياً بنطلونه وقميصه الأبيض.

ـ أيها الأجنبي...

ـ نعم.

جفل غاستون الذي كان ينحني ليتمكن من التقاط كلمات المرأة وعدّل من قامته بدعر. سأل أندو بصوت لطيف بينما هو يتثاءب ناعساً:

ـ ماذا دهاك؟ ألم تكن في طريقك إلى الحمام؟

ـ نعم... الحمام...

ـ إذن امض في سبيلك. افو شو[1].

كان بالإمكان سماع المرأة خلف اللوح تتحرك. صوت إنسان مذعور يبحث عن طريق للنجاة.

ـ امض في سبيلك.

ردد أندو. لم يكن أمام غاستون إلا أن يفعل ما قيل له. كان سقف الحمام منخفضاً والمبولات مشرّخة ومبقعة بلون بني داكن. الباب المخلوع عن مفاصله غير قابل للإغلاق.

بينما غاستون يحاول إغلاق الباب سمع صوت شخص يتعرض للضرب تبعته صيحة امرأة. كان مصدر الصوت الغرفة التي نادته منها المرأة.

---

(1) «أمض في سبيلك بسرعة.» بالفرنسية.

ـ أنا... لم أفعل شيئاً.

بعدها تحولت صرخة المرأة إلى آنة مليئة بالألم. كانت مثل هذه المشاهد مألوفة في سانيا. بقيت الغرف الأخرى في الطابق الأرضي ساكنة. انطلق غاستون خارج الحمام وبخطوتين أو ثلاث وصل إلى اللوح الذي جاء من ورائه صوت المرأة. سمع مرة أخرى صوت شخص يتعرض للصفعات.

حين فتح غاستون الألواح المؤدية إلى الغرفة وقعت عيناه على أندو يقف وبيده حزامه وأمامه على الأرض تنطرح امرأة تغطي وجهها بإحدى ذراعيها. عندما حولت الذراع ورفعت رأسها رأى غاستون أن دماً أحمر كان يسيل من فمها إلى حنكها. حين رأى أندو غاستون ابتسم بسخرية متجهمة.

ـ هل انتهيت من عملك؟

سأله بلطف. صرخ غاستون:

ـ أنت... أنت... تلك المرأة رحيمة القلب جداً. لماذا تضربها. أنت سيئ! سيئ جدا!

أجاب أندو بصوت منخفض وهو يرتدي حزامه:

ـ سيئ، ها؟ ربما...

ـ سيئ. أنت سيئ... هذه امرأة مسكينة... تثير الشفقة.

ـ أيها الأجنبي، أنا رجل أفعل ما أشاء. لا شفقة عندي تجاه أي مخلوق.

ـ لماذا؟

ـ لأني لا أعتبر أن أي إنسان من الباقين يستحق الشفقة. لقد خلصت نفسي من تلك القمامة العاطفية. هذا هو السبب في أنني أمارس القتل.

ـ لم لا تثق بالناس؟

ـ لا أثق بهم لأن ما رأيت يجعلني لا أثق بأحد.

الفصل السابع

الفخ

كان اليوم عطلة رسمية. لكن تاكاموري بقي حتى حين قيل له إن الساعة قد بلغت العاشرة، منطوياً في فراشه بطريقته المعتادة كالسلحفاة مغطياً رأسه ببطانيته. وبينما هو ممدد بين اليقظة والنوم في حالة من الرضا يصعب وصفها، سمع درجات السلم تصرّ صريراً خافتاً فمدّ يده بشكل تلقائي ليلتقط ملابسه الداخلية المرمية إلى جانب السرير.

تسمّع وهو يرمي بزاوية البطانية جانباً ليتأكد أن القادم أخته فيستعد للقيام بفعل ما إذا اقتضت الحال.

ـ تاكاموري.

كان صوت تومويي على السلم ناعماً على نحو غير معتاد هذا الصباح. نادت مرة أخرى:

ـ تاكاموري.

ـ أنا مستيقظ، لكني استمتع بتأمل هدوء الصباح. لا أريد أن أكسر سحر الحالة التي أعيشها.

ـ انزل. أريد منك أن تلقي نظرة على صحيفة الصباح.

سمعها تصعد السُلم وسرعان ما دخلت الغرفة. كانت الجريدة بين يديها.

ـ ماذا تريدين؟ كنت أمارس التأمل في معنى الحياة والموت. لا أريد منك أو من العالم أن يقتحموا عَليّ تأملاتي.

تكلم من تحت أغطيته بحيث بدا وكأن قطناً في فمه.

ـ كفّ عن هذا السخف.

ـ كما قال جوته...

ـ هنالك شيء في هذه الجريدة الصباحية عن رجل قد يكون غاستون.

ـ ما ذلك؟

كان كلب غاستون قد قاد تاكاموري إلى العرّاف الذي منح غاستون الطعام ومبيت الليلة، وقد رتّب مع الرجل العجوز أمر التواصل إن ظهر غاستون مرة أخرى.

ـ أين؟

سأل وهو يأخذ الجريدة من يديها.

ـ هنا.

أشارت توموي إلى مقال يقع في أسفل الصفحة الداخلية. كان عموداً يومياً يسجل الوقائع الغريبة التي تقع في المدينة.

«في ليلة الاثنين، قام أجنبي كان يستقل سيارة أوقفها بوليس ميغورو أثناء جولة تفقدية روتينية على الطريق، بتسليم البوليس مئزراً رجالياً.»

استرعت هذه الجملة الأولى من المقال انتباه تاكاموري مباشرة.

نظرت توموي إلى أخيها المنطرح على بطنه يستعرض المقال.

ـ هل يمكن أن يكون ذلك غاستون؟

ـ ليلة الاثنين، هه؟

ـ أول أمس.

حدد المقال أن الأجنبي كان يستقل سيارة فورد مع رجلين يابانيين.

ـ ويقول المقال مئزر. هل تتذكرين كيف أحرجنا في مطعم السوشي في يوكوهاما؟ لابد أنه غاستون.

ـ هل هو في خطر؟ ربما حاول بذلك أن يبعث إلينا رسالة من خلال المئزر.

قفز تاكاموري من الفراش.

ـ سأغادر حالاً.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ سأذهب وأرى العراف العجوز. هل تتذكرينه؟ لقد أخبرتك عنه قبل أمس. تعالي معي إن أردت.

كان تاكاموري الذي يصعب إثارة حماسه عادة قد امتلأ طاقة ونشاطاً فجأة وهو يفكر بغاستون. نظرت تومويي إلى أخيها وكأنها تراه لأول مرة.

اعتاد تاكاموري في الباص أن يمضي الوقت في مغازلة الفتيات حوله بعينيه، لكنه اليوم عقد حاجبيه في الباص المتجه إلى شيبويا وهو يمعن الفكر وركبتاه تتحركان بعصبية إلى الأمام وإلى الوراء.

ـ تاكاموري، يبدو أنك أصبحت تحب ذلك الرجل، أليس كذلك؟

هز تاكاموري رأسه:

ـ وماذا عنك؟ ألا تكنين له وداً أيضاً؟

ـ أنا...

رفعت حاجبيها وابتسمت بسخرية:

ـ لا تكن مضحكاً. ذلك الأجنبي ليس إلا أحمق، أبله تماماً. أنا أكرهه.

ـ أحمق؟ يبدو أنك لم تتعلمي حتى الآن تمييز الرجل الحقيقي حين يمرّ بك.

أجاب تاكاموري بصوت خفيض وقد خاب أمله بموقف أخته على نحو واضح. نظر خارج النافذة ورأى أن الصيف صار وشيكاً على الأبواب. شمس شيبويا تتوهج ساطعة، والشوارع المحيطة بمحطة شيبويا مكتظة بالناس كأنهم يتجمعون لاحتفال كبير. بينهم مجموعات من العوائل التي خرجت في جولة تسوق يوم الأحد إلى المحال التجارية وشباب وشابات اتخذوا المحطة موعداً للقاءاتهم.

ـ أين هو؟... مكان العرّاف الذي ذكرته.

ـ انتظري لحظة. لا بد أن أنظر إلى الخارطة التي رسمها لي.

بدءا يتبعان علامات المرور في الخارج. الشارع مرصوف بالبارات والعاملات في هذه البارات يؤدين مهماتهن الصباحية من كنس الشارع المقابل بمكانس متهرئة لم يبق منها إلا خشبها ويفرغن بقايا الطعام في سطول القمامة وما إلى ذلك.

ـ إن كنتما تبحثان عن السنساي فستجدانه لا يزال نائماً في الطابق الثاني من تلك البناية الموجودة هناك.

أجابت المرأة التي سألاها دون أن تخرج من فمها فرشة الأسنان. أشارت إلى بار يبعد عنهما خمس أو ست بنايات.

لكنهما صادفا الرجل العجوز نفسه عندما وصلا المكان الذي أشير إليه. كان يعود من الحمامات العمومية وهو لا يزال يزرر بنطلونه.

ـ أوو، هذا أنت.

طرفت عينا تشوتي ونظر إلى تاكاموري وتوموي. شمس الصباح قوية جداً على عينيه.

ـ هذه أختي.

قال تاكاموري وهو يقدم تومويي.

ـ لقد جئنا لنرى ما حدث لغاستون.

ـ في الواقع كنت على وشك الاتصال بك تلفونياً.

بدأ يخبرهما عما وصل إلى علمه.

امرأة يعرفها من شيبويا جاءت له بأخبار غير متوقعة. كانت قد رأت غاستون وقد جيء به إلى نزلٍ في سانيا، وهي منطقة سيئة السمعة من طوكيو تقع بمحاذاة أساكوسا. هي نفسها أمضت الليل في ذلك النُزل المسمى أيواتا.

ـ الرجل الذي كان مع غاستون هو أندو، عضو في عصابة هوشينا. وهو قاتل معروف، كان بمحض الصدفة أحد طلابي في الماضي. المرأة التي أبلغتني هذه المعلومات كانت قد تعرضت إلى ضرب مبرّح على يديه.

ـ قاتل...؟ أندو؟

أبدى تاكاموري استغرابه. كان قد سمع باسم أندو من قبل.

قبل شهرين عندما ابتزّت عصابة هوشينا أحد رجال الأعمال واعتدت عليه بالضرب، ظهرت صورة أندو في الصحف والمجلات الأسبوعية. كانت ترتسم على وجهه نظرة يأس قاتمة ثبتت في ذاكرة تاكاموري.

بعد حوالى ساعة كان تاكاموري برفقة رجل شرطة من سانيا يسأل عن غاستون في نُزل أيواتا.

ـ يأتي لنا كل أنواع الضيوف هنا.

أجاب مالك النزل بلكنة كانساي من وراء الواجهة المنزلقة لغرفته. بدا عليه الانزعاج.

ـ أجنبي؟ كان هنالك أجنبي طويل غادر هذا الصباح مع رجل آخر. لا أعلم وجهتهما.

بدا على الرجل الصدق. وقف تاكاموري وحيداً في شارع سانيا الضيق وتطلع حوله. عبرت الشارع قطة سوداء فاجأتها حرارة الشمس. أين يمكن أن يكون الرجل قد ذهب بغاستون؟

المحلة تلتف بصمت متوعد.

قبل ساعات فقط من وصول تاكاموري إلى نزل سانيا، غادر غاستون المكان مع أندو. المطر الذي تواصل دون انقطاع ليومين توقف أخيراً. لا تزال السماء ملبّدة بالغيوم والأرض سوداء طينية. وضباب بلون الحليب يلفّ السقوف الواطئة للنزل.

***

ظلت البيوت في مكان آخر من المدينة تحمل صمت الليل بالرغم من أن بائع الحليب على دراجته الهوائية يعلن البداية الأكيدة ليوم جديد. وضّح أندو:

ـ الصباح يبدأ مبكراً هنا في سانيا.

كان ذلك جلياً لغاستون. بقي لبعض الوقت مبهوراً بالحركة الصباحية المبكرة وغير الاعتيادية التي تميّز المكان. رجالٌ يرتدون ملابس العمل ويلفون على أعناقهم مناشف يخرجون من النُزل الموزعة يميناً وشمالاً ويمضون زوجين زوجين أو ثلاثة في سبيلهم.

ـ ما عمل هؤلاء الناس؟

ـ إنهم يخرجون للبحث عن عمل يومهم. هنالك قرب جسر ناميدا، غير بعيد من هنا، مكتب تشغيل يحدد الأعمال اللازمة لهذا اليوم.

وضح أندو بين نوبات سعاله. اسم جسر ناميدا يعني حرفياً جسر الدموع، وقد سمي كذلك لأن المجرمين المحكوم عليهم بالموت في الأيام السالفة كانوا يمضون حتى الجسر برفقة عوائلهم. بعد ذلك يسيرون إلى حتفهم منفردين. إنه مكان ذو تاريخ حزين.

ـ لو عشتُ في ذلك الوقت لكنت مضطراً إلى التوديع عند ذلك الجسر أولاً وأخيراً.

قال أندو مبتسماً وأضاف:

ـ أتمنى لو أن كل «المحترمين» في طوكيو يستطيعون رؤية ما يحدث هناك في الصباح الباكر. يأتي العمال معاً كالنمل وينتظرون أمام المكتب. يدور بينهم الباعة المتجولون بفطائر الرز مقابل عشرين ين. حتى مع هذا السعر يعجز معظمهم عن الدفع للحصول على فطور. لكنهم ما زالوا أحياء على الأقل.

في زقاق يمتد بين نُزلين، ثمة رجل يرتدي قميصاً داخلياً قذراً يتمدد كالميت على قارعة الطريق.

سأل غاستون:

ـ هل هو مريض؟

ـ لا. ربما لم يتمكن من الحصول على عمل بسبب المطر. ولأنه لا يملك الأربعين يناً للحصول على سرير في نزل فقد قرر أن يتمدد هنا لينعم بغفوة.

نظّف أندو حنجرته وبصق في الطريق. السائل الأصفر المخاطي يحتوي على خيوط حمر من الدم.

ـ لماذا لا تذهب إلى الطبيب؟

ـ طبيب؟

ابتسم أندو بسخرية وأضاف:

ـ سأهتم بنفسي. من الأفضل أن تهتم بمشاكلك الخاصة أيها الأجنبي. لكنك شخص غريب حقاً. أمس وطوال اليوم توفرت لك فرص كثيرة للهرب منّي لو أردت ذلك. لما لم تنتهزها؟

هزّ غاستون كتفيه وفتح فمه واسعاً في ابتسامة طيبة.

ـ ولكن لا تسئ فهمي. سأبقى أراقبك عن كثب بالرغم من ذلك. أنا أكره الميوعة العاطفية. أعتقد أنك تستطيع أن تتخيل ما أريد منك. ما اسمك؟

ـ غاس.

ـ غاس؟

بعدها أصبح صوت أندو صلباً وبارداً مرة أخرى:

ـ الحقيقة يا غاس أني أنوي تصفية رجل ما. وذلك الرجل...

امتلأت عينا أندو فجأة بالكراهية. حدّق طويلاً في غاستون كما لو أن غاستون هو نفسه موضع كراهيته.

ـ هل سبق لك وان ذهبت إلى الحرب؟

هزّ غاستون رأسه بالنفي فقال أندو:

ـ حسنا أنا ذهبت! وقد قُتل أخي في الحرب.

بقي أندو وهو يتكلم يغمض عينيه ويفتحهما مراراً كما لو أن الذكرى كانت أكثر إيلاما مما يتحمل.

بدأ ينزل نثيث من المطر مرة أخرى، لكنه لم يعبأ حتى برفع ياقة معطفه المطري. مرّ بهما العمال المتجهون إلى البحث عن عمل لذلك اليوم واحداً واحداً. لم يبدُ عليهم أن وجود غاستون أو شكله قد فاجأهم أو أثار دهشتهم.

كانوا مشغولين كثيراً باحتمالات الحصول على عمل لذلك اليوم غير عابئين بالطريقة التي وصل بها أجنبي إلى سانيا.

ـ أخي... أعدم لارتكابه جرائم حرب.

ـ جرائم حرب؟

ـ كيف تقول ذلك بلغتك؟ غيير كريمينال[1]؟

ـ نعم، نعم.

بينما استمر أندو في توضيح مقصده يمزج في كلامه بعض الكلمات الفرنسية، أصغى إليه غاستون وقد خفّض عينيه إلى أسفل. ظلّ يلقي بين حين وآخر نظرة إلى مرافقه ويتساءل كيف وصل رجل درس لغة أجنبية إلى هذه المهنة البائسة؟ لم يتمكن من الفهم.

ـ حدث ذلك قبل اثني عشر عاماً في نهاية الحرب.

عندما أنهى أندو المدرسة المتوسطة أصبح متدرباً في كاسومي ـ حا ـ أورا. وعندما عاد إلى طوكيو وجد أن بيته في أياما قد أحرق ودمر في غارة جوية في بداية أيار. حاول والداه وأخته الصغيرة الهرب إلى حديقة جنكو لكن أحداً لم يرهم بعد ذلك مرة أخرى. لم يتمكن أحد من استعادة أجسادهم بعد ذلك.

الشخص الوحيد الذي بقي حياً من عائلته المباشرة هو أخوه الأكبر الذي جُنّد لأداء الخدمة وأرسل مع بقية الطلبة إلى جزيرة صغيرة في البحر الجنوبي. ولحسن الحظ تمكن أندو الشاب الصغير من العثور على ملجأ لدى بعض الأقرباء عاش معهم حتى دخل المدرسة العليا. وقد عمل على هامش دراسته في الجامعة.

---

(1) «جرائم حرب.» بالفرنسية. م.

بعد أن انتهت الحرب، عادت السفن محملة بالجنود من الصين ومن جزر البحر الجنوبي إلى الموانئ واحدة بعد الأخرى. لكن أندو لم يسمع أية كلمة تخص أخاه. ولأنه كان مشغولاً بمهنته المرهقة ومعذباً بوحدته في غياب أي قريب مباشر له، فقد عقد كل آماله على عودة أخيه. لكنه بالرغم من كل مساعيه لم يتمكن من العثور على وجه أخيه بين الجنود العائدين مع السفن.

ـ بعد عامين، عندما دخلت الجامعة علمت أخيراً ما حدث له.

بصق أندو مرة أخرى ثم مسح فمه ببطء بمنديله الأبيض:

ـ لقد أعتقل بتهمة ارتكاب جريمة حرب وأرسل إلى السجن. قيل أنه قتل بعض السكان المحليين في إحدى الجزر.

ـ هل قتلهم فعلاً؟

ـ لا.

لأول مرة منذ لقائهما حمل صوت أندو نبرة باكية.

ـ لا. كانت تلك تهمة باطلة. لقد ظلّ يحتج في كل الرسائل التي كتبها لي ويؤكد براءته. وكان يطلب مني على الدوام أن اصدقه أنا على الأقل.

لم يتمكن أندو الذي كان لا يزال طالباً من أن يجد طريقة يساعد بها أخاه. كتب له الأخير مؤكداً أن التهمة باطلة، لكنه لسبب ما لم يكشف له كل التفاصيل. لو كانت المحاكم تقف إلى جانب العدالة لما حكمت بإدانة رجل بريء. آمن أندو الذي كان لا يزال شاباً بهذا. ولكن...

بمرور الأيام، رأى أندو بين سطور رسائل أخيه ظِل اليأس يزداد عتمة على نحو تدريجي. «لن أحاول أن أدافع عن نفسي أو أوضح. لقد جاءني أحدهم بالإنجيل وأنا أقرأه. لا أريد أن أعيش في هذا العالم بعد الآن، انه مليء بالأكاذيب والترهات. ما أريده أن تصدق أنت براءتي على الأقل.»

يومها أجاب أندو في الحال. طلب من أخيه أن يخبره في الحال إن كان هناك أي شيء يستطيع أن يفعله من أجله. ولكنه لم يستلم جواباً على رسالته. بل هو لم يتأكد حينها إن كانت رسالته قد وصلت إليه. ثم علم أخيراً أن أخاه قد أعدم في مساء ساخن من آب.

بدلا من الوصية أُرسلت إلى أندو متعلقات أخيه. كان بينها الإنجيل الذي قرأه بمتعة كبيرة في السجن. ظلّ أخوه وهو يصدّ عنه الخوف من الموت يقرأ الإنجيل ويعيد قراءته. الغلاف البالي يشهد على ذلك. فكر أندو أن أخاه بريء. من كان المسؤول عن موته إذن؟

منذ ذلك اليوم تغيّرت حياة أندو بشكل كامل. زار مكاتب تسريح الجيش وبحث في أسماء الجنود العائدين من الجزيرة التي خدم فيها أخوه. وتنقل يسأل الرجال واحداً بعد الآخر ممن كانوا في وحدة أخيه.

اشتد المطر مرة أخرى. واصل أندو كلامه، لكنه صار يحدّث نفسه الآن أكثر منه غاستون. كان وجهه مبللاً بالعرق والمطر تماماً.

ـ لقد استغرق مني ذلك عاماً كاملاً حتى تمكنت أخيراً من اكتشاف الحقائق. ما أقوله لك هو الحقيقة. هنالك أناس ما زالوا على قيد الحياة كان يجب أن يعدموا. لكنهم عادوا بسهولة إلى اليابان وعاشوا وأفواههم مختومة فيما يخص الماضي. إنهم الضباط الكبار في وحدة أخي! لقد علقوا كل جرائمهم في عنق أخي وأنكروا أنهم هم من أصدروا الأوامر. كانت الظروف في ذلك الوقت من التعقيد أنها سمحت لهم بالقيام بذلك. لكنهم اتخذوا التحوطات حين عادوا إلى اليابان، حتى أنهم غيروا أسماءهم. لابد أنهم كانوا خائفين من افتضاح الحقيقة. لهذا السبب أمضيت كل هذا الوقت من أجل أن أنبش الوقائع وأجد الحقيقية. لكني الآن امتلك عناوينهم.

ـ عناوينهم؟

ـ هنالك ثلاثة منهم. أحدهم في طوكيو. الآخران في مناطق أخرى من اليابان. ولكن، عاس، أينما كانوا لن يفلتوا مني... هنا في طوكيو، طوكيو هذه نفسها التي نقف على أرضها! لكنهم لن يفلتوا.

وضع أندو يده في معطفه المطري وتوقف عن المسير. على وجهه ابتسامة. أدرك غاستون أن يده كانت تلتف حول مسدس الكولت في جيبه

تنتشر في كل أرجاء سانيا مطاعم رخيصة تقدم خدمتها لمن يقيمون في النُزل، وهي تبيع حساء الفاصوليا مقابل عشرة ينّات والخضروات المخللة مقابل خمسة. يمكن شراء السجائر مفردة أو أي عدد مطلوب منها.

لم يكن غاستون صعباً في شهيته للطعام. وجد كل ما قُدم إليه لذيذاً: الأو ـ دن، السردين، أي شيء. لم يجد منذ وصوله إلى اليابان ما يثير نفوره. والآن كما من قبل، عندما أخذه أندو إلى مكان رخيص في سانيا لتناول الطعام، شرب حساء الفاصوليا الذي قدم له والتهم قطع الفجل المخلل في فمه الكبير تحت نظرات النادلات والعمال المندهشة.

لم ينم وجهه عن شيء مما بدأ يغمر قلبه تدريجياً من تعاطف عميق تجاه أندو. لكن الخوف والرعدة اللذين أحس بهما في البداية تجاه هذا الرجل لم يختفيا تماماً. لا تكفي الليلتان اللتان أمضياها معاً في غرفة صغيرة مثل صندوق مغلق كافية لافتراض وشيجة بينهما متأصلة في وجود سابق. لكنه بدأ يشعر بحميمية لا توصف مع هذا القاتل، حميميّة لا ينطبق عليها تماماً وصف «الصداقة» أو «الميل» بل هي أقرب إلى الشعور الذي داخله تجاه الكلب الضّال. الألم الذي ظهر في عيني أندو وهو يخبر غاستون عن أخيه قدّم أكثر من دليل كاف على صحة الكلمات التي يقولها. لقد فاضت عيناه بشعور إنساني.

بالطبع لم يتمكن غاستون من أن يتبين أي نوع من الرجال كان أندو في حقيقته. في صباح الأمس، أوحى الانطباع على وجهه وهو يضرب المرأة من شيبويا بحزامه برجل بارد لا روح له، لا يعرف الرحمة. حينها اقتنع غاستون وهو يراه يفعل ذلك أن بإمكانه قتل رجل بدم بارد دون أي رادع. لكن ذلك الرجل القاسي أبدى لأول مرة، وهو يتكلم عن أخيه قبل دقائق قليلة حسب، انطباعاً يدل على شعور إنساني بالأسى. بعدها لم يقل كلمة واحدة. أكل القليل جداً من الطعام ثم دس بين شفتيه سيجارة مجعدة وغاب في أفكاره.

ـ أندو سان، يجب ألا تفعل هذا. يجب ألا تتمادى في خطتك. إنه فعل مشحون بالكراهية...ألا يصيبك بالذعر؟

بحث غاستون عن الكلمات المناسبة ليثني أندو عن خطته في الانتقام، وليبدد الكراهية من قلبه. لكنه مع شحة معجمه من اليابانية وجد أنه لا يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال في نهاية الأمر.

لم يكن أندو في مزاجه المهيمن قادراً على قبول أية نصيحة يمكن أن يقدمها غاستون بيابانيته الركيكة. لم يكن أمام غاستون ما يفعل إلا أن يتبعه صامتاً. ربما وجد في مكان ما على الطريق وسيلة تُدخل الطمأنينة إلى روح هذا الرجل المضطربة.

ـ أندو سان، ألا تأكل؟ إن لم تأكل، سيئ لك، لجسمك، سيئ جداً.

لكن أندو اكتفى بإلقاء نظرة سريعة على غاستون. ذلك الانطباع الحزين الإنساني الذي كان على وجهه قبل دقائق اختفى تماماً مخلفاً مكانه قناع القاتل الشبيه بوجه الأفعى.

* * *

عندما غادر تاكاموري وتوموي الممرات المعتمة في مركز الشرطة وخرجا

إلى الشارع بهر عيونهما ضوء شمس منتصف النهار الساطعة. تواصل نثيث مطر في الصباح لكن السماء صفت فجأة. تدفق تيار من السيارات على طول الشارع في هذا الصباح أيضاً منطلقاً من بوابة ساكورادا للقصر الإمبراطوري حيث ما زال المطر ينزل إلى يوراكوتشو. عندما توقف سيل السيارات مع إشارة عبور المشاة الخضراء اندفعت مجموعة من الناس كأنها دوامة متشابكة تعبر الطريق. قالت توموي:

ـ لا أدري إن كانت الشرطة ستتمكن من العثور عليه.

كانت تضع يدها على جبينها لتحمي عينيها من الشمس. اليوم حار يعلن بداية الصيف. عندما لم يجب تاكاموري أضافت:

ـ سيكون كل شيء على ما يرام، ألا ترى ذلك؟

كان الاثنان قد قصدا مركز الشرطة يطلبان البحث عن غاستون. قال تاكاموري لرجل الشرطة «لابد أن يكون البحث عنه سهلاً. فهو طويل، وله وجه طويل جداً. إنه يذكرك على نحو ما بمصارع السومو أوجي ياما.» ابتسم رجل الشرطة لذلك. ولكن عندما استطرد تاكاموري وقال إن أندو من عصابة هوشينو هو من اقتاد غاستون، غابت الابتسامة عن وجوههم لذكر أندو وارتسمت عليها جديّة واضحة.

ليس لديهم أمر بإلقاء القبض على أندو كما وضّح رجل الشرطة. لكن أندو خطير جداً وهو ما يجعل حركته خاضعة للمراقبة.

قال المخبر وهو يشير إلى أحد الصور فوق مكتبه:

ـ هذا هو الرجل. إنه معروف بكونه رجل عصابة فطن. لديه شهادة جامعية.

كانت الصور التي تظهر على الملصق مأخوذة من الأمام ومن الجانب.

ـ دعني أسجل ما لديكم من معلومات. تقول إنه كان في سانيا حتى أمس؟

في الطريق إلى يوراكوتشو سار تاكاموري منكّس الرأس، محاولاً أن يتذكر شيئاً ما.

ـ ما الذي تفكر به تاكاموري؟

ـ يبدو لي أني رأيت ذلك الوجه في مكان ما.

ـ أي وجه؟

ـ وجه أندو.

كان قد رأى وجه أندو في مجلة أسبوعية في سياق تعرض رجل أعمال كبير لابتزاز من عصابة هوشينو. لم يترك الوجه انطباعاً خاصاً لديه حينها، لكنه الآن وهو يلقي نظرة متمعنة على الوجه وما يبدو عليه من انطباع في مركز الشرطة بدا له أن في الرجل شيئاً لابد أن يتذكره.

ـ وجه أندو؟

ـ وجدتها!

هتف تاكاموري بصوت عال جعل أخته تجفل وتقول:

ـ لا تخيفني هكذا.

ـ هل يمكن أن يصح ما أراه؟

ـ ما الأمر؟

ـ قال المخبر أنه رجل عصابة ذكي تخرّج من الكلية. ألم يقل ذلك؟ تلك الجامعة ربما... إنه يشبهه...

ـ ما الذي تتكلم عنه؟

ـ عندما كنت في المدرسة كان معنا طالب يبدو كبير الشبه بأندو الذي رأيناه في الصورة. نعم لابد أنه هو. الوجه نفسه.

ارتفع أنف تومومي درجة إلى أعلى في إيماءتها الساخرة المعتادة وابتسمت باستهزاء:

ـ ما الأمر تومومي؟

ـ يبدو أنك تشاهد الكثير من أفلام الدرجة الثالثة حيث يتضح دائماً أن المجرم كان من أصدقاء الطفولة بالنسبة للمخبر الذي يبحث عنه. يبدو أنك تطلق لمخيلتك العنان.

ـ هل تعتقدين ذلك؟

قال تاكاموري بصوت خفيض، لقد جعلته يبدو مضحكاً.

عندما وصلا تقاطع هيبيا استعدا للافتراق. كان عليه أن يعود إلى البنك في أكي ماجي وكان عليها أن تلتقي أوساكو في بناية نيكاتسو.

رفعت يدها قليلاً تودعه وأطلقت تعليقاً أخيراً:

ـ لا تجر وراء خيالك الرومانسي.

ـ ما الذي يعنيه الخيال الرومانسي بالنسبة لك؟

قالت بصوت خافت وهي تقترب من أذنه:

ـ أنا واثقة بأني لست بحاجة إلى التوضيح. أعلم أنك لا تحب شيئاً مثل أن تلعب دور البطل وتذهب لتطارد أندو وغاستون بنفسك.

لم يجب تاكاموري.

ـ هذه ليست رواية بوليسية أخي. من الحماقة أن تعتقد أن غاستون قادر على أن يجعل قاتلاً مثل أندو يحسن سلوكه.

بلل تاكاموري شفتيه بلسانه بعد هذا الهجوم من أخته وارتسم على وجهه انطباع مرتبك.

ـ بدلاً من هذه البطولات، من الأفضل لك أن تطلب من الشرطة العثور على غاستون حالاً.

ـ ما الذي تعتقدين أن علينا فعله لمساعدته؟

ـ لا أعتقد أني أستطيع أن أنفع هذا الأبله. لقد سئمت منه. أن يكون الضيف سبباً في كل هذا الإزعاج...

دخلت تومو ي منتصبة القامة مرفوعة الرأس في تيار المارة وهي تفرقع كعب حذائها أثناء مسيرها. فكر تاكاموري وهو يراقبها حتى اختفت عن ناظريه «كم هي عملية في طباعها! بالنسبة لي أصبح غاستون مثالاً بينما لا يعدو بالنسبة لها شخصاً أبله.»

***

عندما انتهى أندو وغاستون من فطورهما غادرا المطعم. كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم ومطر خفيف يواصل نثيثه. نظر أندو إلى ساعته. كانت السابعة.

ـ نُزلنا يقع هناك.

صار غاستون بعد يومين في سانيا يعرف إلى هذا الحد أو ذاك طريقه في المكان. بدأ يسير باتجاه نزل أواتا الذي كانا يقيمان فيه.

ـ لن نعود إلى النُزل.

أخبره أندو بصوت حاد. يمكن أحياناً أن يصبح فجأة لطيفاً مع غاستون، لكن نظرة القاتل الباردة تستقر على وجهه أحياناً أخرى.

ـ أين نحن ذاهبان؟

لم يجب أندو. كان يحدق في الأفق كأنما يبحث عن شيء ما في الشارع المكلل بالضباب. هنالك سيارة سوداء تقترب على مهل من جهة سكك

الترام. تعرّف عليها غاستون في الحال. عندما اقتربت أكثر تعرف غاستون أيضاً على السائق. كان الرجل نفسه الذي جاء بهما إلى هنا.

حيّا السائق أندو وهو يرمي سيجارته. سقطت على الشارع المبلل لكنها لم تنطفئ في الحال. بقي الدخان يتصاعد منها لعدة ثوان.

ـ غاس، اصعد.

ـ هل اسم الأجنبي غاس؟ أي اسم عفن.

سأل أندو بصوت متعب وهو يدخل السيارة:

ـ هل تأكدت مما طلبت منك أن تفعل؟

ـ لا شيء يدعو إلى الخوف.

سلم السائق أندو ورقة. مرر الأخير عينيه عليها بسرعة ثم وضع يده في جيبه المطري الداخلي وسحب مجموعة بطاقات سميكة وأعطاها للسائق الذي استلمها بيد واحدة صامتاً وهو يقود السيارة باليد الأخرى.

ـ أندو، لما لا تقوم بهذا العمل ليلاً؟

ـ القاتل لا يؤدي عمله ليلاً.

ـ لم لا؟

ـ حتى الحذرون يسترخون نهاراً. سيكون حذراً في الليل، أما في وضح النهار فإن كل ما تحتاج أن تناديه وسوف يلتفت إليك. سيترك نفسه متاحة لك.

ـ إذن فالأمر كذلك.

أضاف أندو مبتسماً:

ـ فضلا عن هذا، هنالك شيء لطيف في وقع خبر يقول: جريمة قتل في عز الظهيرة.

لم يزد السائق في الكلام. مضت السيارة خلال أساكوسا واتجهت نحو الجنزا.

ـ جريمة قتل في عز الظهيرة، هل تفهم ما معنى هذا يا سيد غاس؟

ـ ظهيرة؟

ـ نعم.

ـ ذلك الوقت من النهار عندما تكون الشمس في أعلى نقطة في السماء.

ـ قتل؟

ـ سفك الدم الأحمر.

بدأ غاستون يرتجف. هزّ رأسه بقوة وهو ينظر إلى أندو. وغطى يد أندو بكفه الكبيرة. ذلك كل ما بوسعه أن يفعل. وضع راحته الضخمة بصمت على يد أندو وتشنج وجهه الحصاني لشدة انفعاله وهو يحاول أن يجد الكلمات ليعبر عن أفكاره:

ـ لا، أندو سان، لا. يجب ألا تفعل ذلك. أعلم كم هو صعب عليك أن تكون مريضاً. وأعلم ما تشعر به بسبب إعدام أخيك. ولكن حتى وإن كان الحال كذلك يجب أن لا تفعل. أن تكره الناس...أن تكره... تلك طريق مسدودة.

ما لم يستطع أن يقوله بيابانيته الضعيفة حاول أن ينقله بعينيه على نحو ما.

ـ لا... يجب ألا تفعل ذلك.

أنعم أندو النظر في غاستون. من المؤكد أن شيئاً مما كان غاستون يحاول أن يقوله بيأس قد وصل إلى المركز الحساس من قلب أندو. لكنه سحب عينيه بقوة أخيراً وجرّ يده من تحت يد غاستون.

ـ أكره الميوعة العاطفية.

بدا وكأنه يكلم نفسه.

ـ اسرع قليلاً!

ـ الشوارع زلقة. هذا أسوأ أنواع المطر بالنسبة للسياقة.

ـ لا تهتم. امض فيها. يمكن لهذا الرجل أن يقفز محاولاً الهرب... أستطيع أن اقرأ ما في رأسه.

سأل وهو يلتفت إلى غاستون:

ـ تود أن تذهب في حال سبيلك؟ أليس كذلك؟

هز غاستون رأسه. حتى لو توقفت السيارة وفُتحت الباب على وسعها بينما أندو يلتفت بوجهه إلى الاتجاه الآخر فإنه لن يفكر في الهرب الآن.

ـ الكلب سان!

ـ ماذا؟

ـ أنت.

رسم فم غاستون الكبير ابتسامة عريضة وهو يقول:

ـ أنت تشبه نابليون سان.

لم ينس غاستون الكلب العجوز نابليون الذي بدا وكأنه يتوجه إليه دائماً بنداء استغاثة. كأنه يريد أن يجد من يواسيه عن كل المضايقات والضرب الذي لقيه. الآن وغاستون ينظر إلى صورة أندو الجانبية، شعر على نحو ما بحضور ذلك النداء نفسه في وجه القاتل.

ـ أندو سان، أنت تحب الكلاب، أليس كذلك؟

فوجئ أندو بالسؤال:

ـ لماذا؟

ـ أنا أحب الكلاب. أندو سان، هل تحب الأطفال؟

ـ اخرس!

ـ هل تحب؟ هل تكره؟

ـ اخرس! لا أعلم.

التفت السائق إلى الخلف وقال:

ـ يبدو الرجل مجنوناً. تعرف جيداً اختيار من يناسبك منهم.

لم يجب أندو. جلس وعيناه منكستان.

ـ وصلنا الجنزا.

انقطع المطر تدريجياً. بدأت السماء الرمادية تفسح أفقاً للزرقة وأصبحت الشمس قوية حتى أنها اشتدت على العيون.

* * *

بعد أن افترقت توموي عن أخيها عبرت تقاطع هيبيا واتجهت نحو بناية نيكاتسو. بالرغم من تواصل المطر طوال الصباح، بدت السماء صافية الآن تماماً والأرصفة المبللة تعكس أشعة الشمس الساطعة. نوافذ البناية تتلامع أيضاً. الأجانب واليابانيون يتدفقون خارجين من الأبواب حاملين حقائبهم مشغولين بأعمالهم. توقفت سيارة أجرة وأنزلت زبوناً لتلتقط آخر. إنها بداية يوم آخر حافل بالعمل.

كان الاتفاق أن تلتقي توموي بأوساكو في المقهى الواقع في الطابق الأرضي من بناية نيكاتسو. من المقرر أن يصل وشيكاً هذا اليوم أحد الرعاة المتنفذين لشركة ديسانتو التجارية التي يعملان فيها إلى هانيدا من الخارج وعلى تومي وأوساكو أن يختارا له هدية استقبال.

كانا قد رتبا أن يكون لقاؤهما في العاشرة، لكن أوساكو لم يكن موجوداً حين وصلت. فكرت وهي تطلب قدحاً من الليمون بفظاظة كيف يترك رجلٌ سيدة تنتظره هكذا.

أصبحت تومويي بعد الحادث الذي وقع في شنجوكو تنظر لأوساكو دون احترام. فهذا الرجل المبهرج والمتأنق عادة بدا مضحكاً وهو يهرب صارخاً بصوت حاد. كان منظره مضحكاً جداً. أكثر من مضحك، كان شائناً. عندما ظهر في المكتب في الصباح التالي بدا مرتبكاً وبذل جهداً عظيماً للدفاع عما فعل في اليوم السابق: «سبب هربي تومويي هو أن أذهب واستدعي الشرطة.» رفعت تومويي أنفها، ابتسمت والتفتت جانباً.

«كم أود أن التقي برجل أستطيع بالفعل أن اعتمد عليه»، فكرت تومويي وهي ترفع قدحها إلى شفتيها وتنهدت. أدركت بعد تأمل ألا أحد من كل الرجال الذين عرفتهم يمكن الاعتماد عليه فعلاً. أوساكو، تاكاموري، غاستون... لا أحد.

«عليّ أن أنسى في الوقت الحاضر التفكير في الزواج... إذا كان كل الرجال مثل أوساكو وأخي.» فجأة خطرت لها الكلمات التي ظلّ تاكاموري يرددها على أسماعها مؤخراً: «لا تميزين الرجال الحقيقيين عندما تلتقين بهم.» يا لها من إهانة! كيف يجرؤ على السخرية مني؟ أن يرمي بثقله على ذلك الأحمق غاستون! ذلك شأن يخصه. ولكن بأي حق يقول إني لا أميز الرجل الحقيقي لمجرد أني لا أرى نفعاً في غاستون؟

استذكرت المرة الأولى التي رأت فيها وجهه في كابينة الدرجة الرابعة عندما ذهبا للبحث عنه على متن السفينة فيتنام. فعلت كل ما بوسعها لتمنع نفسها من القول «حصان» أو الانفجار بالضحك. هل يختلف الرجال الذين

يروقون للرجال عن الرجال الذين يروقون للنساء؟ مهما نظرت إليه لا يبدو غاستون بالسبة لها أكثر من ساذج. نعم، وإن توخينا الدقة أبله.

ـ أرجو المعذرة لوصولي متأخراً تومويي.

قال أوساكو بصوته الأنثوي المعتاد عندما ظهر أخيراً. كان متأنقاً أناقة تامة: سترة غامقة تظهر فوقها ياقة قميصه البيضاء المنشاة. ربطة العنق تمثل أرقى الأذواق ومربوطة بطريقة وندسر. الواقع أن أناقته بلغت من التميز أن النادلات لم يتمكن من نقل أنظارهن بعيداً عنه.

ـ أخشى أني أبقيتك تنتظرين لوقت طويل.

قال وهو يفرقع أصابعه.

ـ لا، على الإطلاق.

أجابت تومويي بصوت لا يخلو من السخرية.

ـ عشر دقائق فقط.

أحنى رأسه لينظر في وجهها المرفوع تجاهه واعتذر مرة أخرى. لم يهدّئ ذلك من غضب تومويي. على العكس، كلما ازداد تكلفاً بدا في عينيها أكثر إثارة للسخرية. قال بصوت بدت فيه نبرة ألم:

ـ تومويي، منذ ذلك الحادث في شنجوكو وانا أخشى أن تكون لديك فكرة خاطئة عني.

ـ لا توجد فكرة خاطئة في ذهني عنك.

ظهرت على وجهها ابتسامة حاقدة وهي تنطلق إلى تذكيره بأنه أقل أهمية مما يظن:

ـ لا أفكر بك حتى بما يكفي لتكوين أية فكرة عنك.

حدجها أوساكو بنظرة مجروحة وبدأ يعبث بملعقة القهوة:

ـ لا اعتقد أنك قد فكرت بجدية بأي رجل.

ـ لماذا تقول ذلك؟ أنا فتاة في نهاية الأمر. إذا كان الرجل شخصاً يعجبني...

ـ هل يوجد مثل هذا الشخص؟

ـ قد يوجد.

أحست بمتعة خاصة في الحط من شأنه بهذه الطريقة. وكلما لاحظت النظرة المتجهمة التي بدأت ترتسم على وجهه شعرت بميل أكبر لتدمير غرور صنوها هذا الحفيد المتبجح. سألها بصوت أجش:

ـ من هو؟ هل هو ذلك الرجل الفرنسي مثلاً؟

ـ ذلك الرجل الفرنسي؟

ـ نعم، ذلك الذي يدعو نفسه مسيو غاستون.

أطلقت تومو ي ضحكة عالية جعلت النادلة تلتفت إليها بدهشة. حتى أوساكو ابتسم رغماً عنه وقال:

ـ بالطبع لا. كيف يمكن لأي شخص أن يقع في حب ذلك الأبله الأجنبي الذي يبدو وكأنه خرج لتوه من أحد الحقول؟ لابد أن أقول إنه يسبب لي صدمة. هل هو فعلاً رجل فرنسي؟ لا يبدو عليه أي ذكاء أو علامة على امتلاك أية درجة من التعليم. لا بد أنه من أكثر فئات الرجال الفرنسيين انحطاطاً. ملابسه ووجهه!

ربما كان هنالك قدر معين من الغيرة في هجوم أوساكو على غاستون. ولكن، لسبب ما، كان هجومه على غاستون يزيد من غضب تومو ي تجاهه كلما تمادى فيه بالرغم من أنها هي نفسها كانت تسخر منه قبل دقيقة واحدة

وهي تتحدث إلى أخيها. الآن وهي تجد شخصاً مثل أوساكو يفعل ذلك انبرت إلى الدفاع عنه.

ـ ليس لك الحق أن تتكلم عنه بهذه الطريقة. أنا أفكر به أكثر بكثير مما أفكر بك.

هي نفسها شعرت بالدهشة لقولها الأخير هذا.

***

ـ هذا هو المكان.

هنالك عدد قليل من الناس على أرصفة جنزا بالرغم من أن المطر قد خف.

بصرير متواصل ارتفعت صفائح البوابة المعدنية الخارجية لمحل كاميرات أمامهم والتفّت إلى أعلى.

أمام المقهى المجاور للمحل انشغل نادل بسترة بيضاء في تنظيف الواجهة بنشاط.

تساءل غاستون أين يتجه أندو وما الذي يخطط للقيام به؟ مرت قربهم عربة ترام معلقة مكتظة بالمسافرين. وتمكنوا حتى بعد أن مرت من سماع صوت حركة عجلاتها على السكك. على مبعدة ثلاثين ياردة سياج يسور موقع بناء ويمكن سماع أصوات تأتي من هناك أيضاً.

عندما وضع غاستون عينه على أحد الشروخ في السياج استطاع أن يرى شعلة أستلين بيضاء قوية تقطع الحديد. كان العمال الذين يلفون المناشف حول أعناقهم شأن الرجال الذين رآهم في سانيا قد بدأوا العمل. أوقف السائق السيارة وفتح الباب لأندو.

ـ حسناً.

سحب أندو الورقة التي كان السائق قد أعطاها له من قبل ونظر إليها مرة أخرى.

ـ سأنتظركما هنا.

ـ حسناً. غاس، هيا بنا.

مرة أخرى تمعن أندو في الورقة.

ـ هيا غاس.

تطلع حوله ليتأكد أن أحداً لم يرهم وأشار لغاستون أن يدخل من خلال فتحة صغيرة في السياج. كان حائط البناية قيد التشييد لا يعدو هيكلاً من قضبان فولاذية. وفاحت في الجو رائحة الإسمنت. شق أندو طريقه وهو يدفع غاستون أمامه بين السياج الذي يحيط بالموقع وهيكل الفولاذ. حين بلغ سلماً عليه بعض الألواح الخشبية سأل غاستون:

ـ إلى أين نحن ذاهبان أندو سان؟

ـ لا تُلقِ أية أسئلة. تعال معي فقط. واحذر أن ترفع صوتك.

بالطبع حتى لو رفع غاستون صوته لم يكن ليسمعه أحد مع صخب البناء وضجيجه، خصوصاً ذلك الصادر من تثقيب الفولاذ.

بين حين وآخر كانت تسقط قطرة من الماء على رأس غاستون. ربما لأن الإسمنت ما زال ندياً. بدا هدير الترام المعلق قادماً من مكان قريب. وقف أندو جامداً وأصغى السمع، بعدها قال:

ـ لنعد.

لم يكن لدى غاستون بطيء الفهم أية فكرة عن السبب الذي دعا أندو إلى المجيء إلى هنا. لكن شيئاً لم يحدث على أية حال. سأل وهو يتنفس الصعداء:

ـ هل انتهينا؟ ما الذي سنفعل الآن؟

قابله أندو بابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه.

ـ أنت فعلاً رجل بسيط!

ـ لماذا؟

ـ ألا تعلم حتى الآن السبب الذي جاء بنا هنا؟

هز غاستون رأسه.

ـ اسمع الضجة والضوضاء حولنا. عندما أطلق مسدسي لن يسمع أحد. مكان مناسب للقتل، ألا ترى ذلك غاس؟

عندما عادا إلى السيارة وجدا السائق بانتظارهما. في فمه علك.

ـ حسناً. لنستعد.

ـ حسناً.

فتح صندوق السيارة وسحب حقيبة بنية اللون. دخل أندو السيارة وخلع معطفه المطري وسترته ورباط عنقه. أخرج السائق من داخل الحقيبة قميصاً جديداً وسترة زرقاء فاتحة اللون وزوج أحذية بلون الكريم.

ـ غاس، خذ امسك هذه.

سلمه أندو البدلة التي كان يرتديها، وكانت مجعدة بشكل سيء بعد يومين قضاهما في سانيا، والمعطف المطري، ثم بدأ على مهل يرتدي الملابس الجديدة. عندما انتهى من ارتداء ملابسه، أخرج موس حلاقة كهربائي يعمل بالبطارية وبدأ يحلق ذقنه المسود. ذهل غاستون للتحول الذي ظهر عليه. بدا الآن شاباً مهذباً وسيماً. هتف غاستون متعجباً:

ـ أندو سان! بو غارسون، ني سي با؟[1]

---

(1) «شاب وسيم، أليس كذلك؟»، بالفرنسية. م.

ـ بالطبع...أوو، ناولني مسدسي.

وضع أندو قراب المسدس على كتفه فوق قميصه وأخرج المسدس من جيب معطفه المطري الذي كان يحمله غاستون.

ـ غاس، انتظرني هنا.

بعدها فتح أندو باب السيارة وخطا في ملابسه الأنيقة إلى الرصيف حيث اشتد زحام المارة فاختفى بينهم. كانت الشمس حادة على عينيه الآن. الساعة هي العاشرة، أي الساعة التي ترتفع فيها وتيرة الحركة في المدينة ارتفاعاً كبيراً.

إلى أين هو ذاهب؟ بدأ القلق مثل غيمة سوداء يطبق على روح غاستون. فكرة القتل التي ظلت حتى هذه اللحظة بعيدة عنه تماماً، اتخذت فجأة وجوداً واقعياً محسوساً. أما أن إدراكه لها قد استغرق كل هذا الوقت ليتحقق فبسبب أن غاستون، بالرغم من معاملة أندو القاسية له بين حين وآخر خلال اليومين في سانيا وبعدهما، لم يحمل في نفسه كراهية تجاه الرجل. لقد نظر غاستون إلى الفعل الذي ينوي أندو القيام به بذلك الإحساس الذي ينظر به المرء في يوم ممطر إلى البعيد ويرى تلاً يغتسل بأشعة الشمس وحيداً.

ـ هل تريد بعض العلك أيها الأجنبي؟

مد السائق يده بعلبة علك لغاستون.

ـ ولكن لا تحاول أي شيء.

ـ أندو سان... إلى أين ذهب؟

ـ ذهب ليأتي برجل.

ـ يأتي برجل؟

ـ الرجل الذي ينوي القضاء عليه.

ضغط غاستون وجهه الطويل على النافذة. توقف رجل شرطة يرتدي خوذة بيضاء على دراجته البخارية عند التقاطع وألقى نظرة دون تركيز باتجاههم. التمعت خوذته البيضاء في الشمس. كان بإمكان غاستون أن يفتح النافذة ببساطة ويصيح مخاطباً الرجل. لكن صورة أندو المثيرة للشفقة وهو يتلوى في نوبة سعال برقت في عقلة. فكر «يا لأندو المسكين، لا أستطيع التخلي عنه.» ضغط رجل الشرطة على دواسة البنزين واختفى.

أخيراً ظهر أندو مرة أخرى وعيناه تطرفان في ضوء الشمس القوي.

ـ كيف مضت الأمور؟

ـ غيرت صوتي على التلفون ووقع في الفخ. سيأتي إلى ذلك المقهى هناك في الساعة الحادية عشرة. كل ما احتاج لاستدراجه أن أقوده إلى موقع البناء ثم أضغط المسدس.

* * *

الحادية عشرة إلا ربعاً. جلس أندو مستنداً بمرفقيه إلى نافذة السيارة يراقب تيار العابرين. استغرق السائق وهو لا يزال يلوك علكته بقراءة صحيفة الصباح ينشرها على ركبتيه.

ـ هل هنالك أي شيء مهم في الجريدة؟

سأل أندو وهو يسعل سعالاً جافاً.

ـ العمالقة خسروا في شوطين متعاقبين أمام السنونوات.

ـ أعني الأخبار.

ـ في السياسة؟ ما هو معتاد نفسه كما أعتقد... ذلك أمر لا يقع في مجال اهتمامنا.

قال ذلك دون أن يرفع نظره وناول أندو القسم الذي لا يقرأه من الجريدة.
مرّر أندو عينيه على الصفحة الأولى.

ـ غاس، لبلدك مشاكله أيضاً؟ أليس كذلك؟ ما الذي سيحدث في الجزائر؟

سأل باسماً.

ـ الجزائر؟

ـ ألا يشتبك الفرنسيون والمواطنون في حرب مريرة هناك؟ إنهما يكره بعضهما بعضاً.

يكره بعضهما بعضاً... قال... تطلّع غاستون إلى أندو وهز رأسه بحزن. لكن الأمر لا يقتصر على الجزائر. ليست فرنسا وحدها. هنا والآن...

لا يبدو أن في العالم شيئاً إلا الكراهية والعداوة. بلد يكره بلداً آخر. رجل لا يثق بآخر. لقد فرّ الحب والثقة بعيداً. دالاس يشك في خروتشيف وخروتشيف في دالاس. الفرنسيون يكرهون الجزائريين، والجزائريون يكرهون الفرنسيين. وليس هذا كل شيء. هنا أمام عينيه، هنا تحت الشمس الساطعة في جنزا، يتهيأ رجل لقتل رجل آخر. عيونه تبرق بالكراهية وهو ينتظر ضحيته.

ـ مثلك تماماً...

قال غاستون بصوت خافت. لكن أندو لم يكن يعيره انتباهاً. كان يتطلع خارج النافذة.

الحادية عشرة إلا خمس دقائق. فتح السائق الراديو. صوت امرأة تترنم في إعلان تجاري «المسامير الجيدة تعني بنايات متينة. اشتر مساميرك من ياماتو.» ثم أفسح الصوت الأنثوي الحلو المجال لصوت مذيع يقول:

ـ الشرطة تبحث عن غاستون بونابرت. غاستون، إن كنت تسمع هذا النداء اتصل بالشرطة مباشرة.

لم يزد المذيع شيئاً على ذلك. ساد الصمت الرجال الثلاثة في السيارة. بعدها صحك السائق والتفت إلى غاستون.

ـ هذا أنت!...أندو، الأمور تزداد خطورة.

ـ ما الذي تتكلم عنه؟ لا أحد يعلم أن غاس معي.

تطلع زوج من العشاق يعبران الشارع داخل السيارة.

الحادية عشرة تماماً. فجأة قفز أندو مبتعدا عن النافذة.

ـ إنه قادم. في موعده بالضبط.

برقت في وجنتيه اللتين جوّفهما المرض ابتسامة راضية. أمر بصوت خافت:

ـ لا تنظر باتجاهه... أوميزاكي، لا تطفئ الراديو.

فعل أوميزاكي ما قيل له. وبينما الراديو مستمر في البث تظاهر أنه منشغل بالجريدة. جلس أندو وهو يستند بمرفقه إلى النافذة متثائباً مدعياً الملل. حشد من الناس يتحرك في الاتجاهين على طول الشارع في الجنزا. لم يكن بمستطاع غاستون معرفة أي هؤلاء الناس كان هدف أندو.

ـ ها هو ذا يتوقف.

لمح غاستون رجلاً يابانياً شبه أصلع يدفع باب المقهى أمامه. كان قصيراً بديناً. رأسه المصلع وجسده القصير المربوع تركا انطباعاً غير مريح حتى لدى غاستون.

ـ غاس، اخرج الآن.

ـ أنا...

ـ قلت اخرج.

ـ أنا...أنا... ما الذي تنوي أن تفعل؟

هز غاستون رأسه بقوة وتمسك بشدة بباب السيارة. ملأ قلبه الرعديد في جسده الضخم خوف قاهر.

ـ ألم تسمعني؟ قلت اخرج.

بدأ أندو يركل غاستون بخشونة على فخذه ركلاً متواصلاً.

ـ لا تريد أن تخرج؟

عندها فقط انفتح باب السيارة بفعل ثقل جسد غاستون المستند إليه. أمسك به أندو ليمنعه من السقوط خارجها.

ـ هل تريد أن أقتلك أنت أيضاً؟

بدا وكأن غاستون يوشك على البكاء. أنزل ساقيه وهو يمسك بوجهه بين يديه ووضعهما في المكان المحصور بين السيارة والرصيف.

ـ أنا... أنت لا تحتاجني... ذلك الرجل...أنا لا أعرفه.

ـ لن تضطر إلى الكلام...كل ما تفعل أن تجلس أمامه وتتركني أتكلم.

تمكن أندو بالمناورة من دفع غاستون على طول الرصيف باتجاه المقهى. لم يعرهما المارة أي اهتمام.

كان الزحام في جنزا يتكون من متخمين لا مبالين لا يهمهم حتى منظر أجنبي مثل غاستون يبدو شكله غريباً.

دفع أندو باب المقهى. كان الرجل القصير البدين يجلس بارتياح إلى طاولة في ركن حميم قرب المدخل يدخن سيجارة. تفصدت قطرات من العرق على جبينه الخالي من الشعر. سأل أندو وهو ينحني بأدب:

ـ هل أنت السيد كاناي؟ أنا عضو في جمعية التبادل الثقافي كما قلت لك

في التلفون. لكي تقرر أي نوع من الفتيات القوقازيات يناسبك رأيت أن من الأفضل أن آتي معي بالرجل المسؤول.

ثم قال وهو يلتفت إلى غاستون:

ـ أقدم لك السيد صاد.

مسح الرجل القصير البدين العرق من جبهته وابتسم ابتسامة داعرة.

ـ هل أنت جاد بالفعل فيما تقول؟

ـ ما ذا تعني بكلمة جاد؟

ارتسمت على وجه أندو ابتسامة ساخرة لكن الرجل لم يلاحظها.

ـ إلى أي حد أستطيع أن اصدق ما تقول؟ في المقام الأول لم أسمع من قبل قط عن مجموعة من العواهر البيض يعملن في طوكيو.

ـ بالطبع لم تسمع. نحن نعلن عن أنفسنا كناد خاص. السيد صاد هنا...

بدأ أندو والرجل البدين القصير اللذان جلسا متقابلين إلى الطاولة يتحدثان بصوت خافت لا يتيح للنادلات سماع الحديث.

في تلك الأثناء ظلّ غاستون يهز رأسه بعنف وعيناه تطرفان محاولاً كل ما يستطيع لينبه الرجل إلى الخطر الذي ينتظره. لكن الرجل لم يكد يلاحظ حتى وجوده.

ـ نساء بيض؟ أي نوع لديكم؟

دوّر أندو قدح الماء نصف الممتلئ في راحة يده وواصل الكلام بصوت مكتوم.

بعد إغلاق مناطق اللهو الحمر في طوكيو بفعل قانون منع الدعارة، صارت ممارسة الدعارة أمراً سرياً وظلت تمارس في النوادي الخاصة التي يشار إليها

باسم الضوء الأبيض. توجد منذ وقت طويل بمعزل عن هذا تماماً مجموعات من الفتيات البيض اللواتي يمكن استدعاؤهن، وهن مستعدات لتلبية دعوات رجال الأعمال اليابانيين من الطبقة التنفيذية وضيوفهم. فضلاً عن أن البيض اللواتي يستعرضن أجسادهن ويعملن في الملاهي، وكذلك مغنيات الجاز الأجنبيات اللواتي يدخلن البلد في جولات سياحية عن طريق هونغ كونغ، كن يتصلن بهذه الجماعات للحصول على بعض المال الإضافي.

كلما استمر أندو في توضيحاته الخافتة زاد ما يبدي وجه الرجل البدين ذي النظرة الداعرة من اهتمام بعدما كان في البداية طافحاً بالشك.

ـ هل هو أمر آمن؟ هل سيتصرفن بمسؤولية إن عثرت عليهن الشرطة؟

سأل كاناي وهو يمسح جبينه.

ـ السيد صاد هو من يتكفل بذلك الآن.

عندها فقط لاحظ الرجل ما كان غاستون يفعله من هزّ رأسه وإطراف عينيه.

ـ هل يعاني من شيء ما؟

ـ أوو... يعاني السيد صاد من حالة عصبية. لا يستطيع أن يسيطر على عضلات وجهه... والآن ما الذي سنفعل؟ في الواقع جئت معي باثنتين من الفتيات لتلقي عليهن نظرة.

ـ ماذا؟ يبدو أنك جئت مستعداً تماماً. ولكن ليس لدي عمل لهن الآن. لن أجد زبوناً مهتماً قبل الليل. سأتصل بك عندما ينتهي الحفل.

ـ لن يرضين عن هذا. أنت تعلم، الأجنبيات صعبات جداً. إن لم يكن ثمة عقد مبرم قبل...

بلع كناي الطعم.

ـ إذن، هكذا الأمر. حسناً، أظن أن بإمكاني إلقاء نظرة عليهما. بالطبع لا أعرف أية لغة عدا اليابانية.

قال ذلك ونهض من الطاولة. سارع أندو إلى التقاط الفاتورة ونادى النادلة. بعدها همس في أذن غاستون بصوت خافت ولكنه حاد.

ـ تي توا، ساكري غاس[1]...لا تحاول أية حماقة.

وضع أندو نفسه بين كاناي وغاستون وبدأ يمشي باتجاه موقع البناء. كان يحرص على منع غاستون من الحديث مع كاناي. اقتربوا من الضجّة التي تصم الآذان عن كثب. دقّ الفولاذ وأزيز مشاعل الأستيلين البارقة.



(1) «اخرس، غاس المبجل.» بالفرنسية. م.

الفصل الثامن

الثقة والشك

ـ إلى أين نحن ذاهبون؟

سأل كاناي أندو مرتاباً وقد توقف عن المسير. أجاب أندو ببراءة:

ـ ليس بعيداً، هناك. المرأتان ليستا يابانيتين لذلك لا تريدان أن يراهما الناس. قلت لهما أن ينتظرا هناك.

علا ضجيج البناء خلف السياج حتى صمّ الآذان الآن. انعطف الرجال الثلاثة وغاستون كالبرج في الوسط إلى زقاق.

كان على غاستون أن يتمهل في مشيه أكثر. لو خطر له أن يستبقي أندو وكاناي في المقهى لخمس دقائق أخرى لكان رأى تومويي وأوساكو يمران في المكان. كانت تومويي في ذلك الوقت بالذات تسير مع أوساكو على امتداد الشارع من بناية نيكاتسو إلى أواريتشو. وكانت تكثر من التوقف للنظر في ما يستدعي ذلك أو لتتفحص ما هو موجود في الواجهات. قالت وهما يمران قرب منطقة البناء التي اختفى فيها غاستون:

ـ المكان صاخب هنا دائماً.

ـ هو بالتأكيد هكذا. شهدت الجنزا في الأشهر الأخيرة بناية في إثر بناية. ألا تعتقدين أن طوكيو قذرة؟ لا اهتمام هنا بالجمال الحضري كما هو الحال في باريس.

لم يكن لدى أوساكو أي شيء طيب يقوله عن بلده كالعادة.

عندما وصل الرجال الثلاثة إلى المدخل المؤدي إلى القبو في البناء الجديد تلفت أندو يستطلع المكان حوله. كان قرب المدخل كوم من الحصى والى جانبه صناديق كبيرة مملوءة بالرمل وأكياس الإسمنت. الشمس تضرب أكياس الإسمنت بقوة.

ـ هل يعقل أن تنتظر النسوة في مكان كهذا؟ هل هذه نكتة؟

سأل كاناي بانزعاج. بدا أخيراً أن الشك بدأ يساوره.

ـ ولماذا أنكت معك؟

تكلم أندو بلكنة منطقة كاناي، أوساكا.

ـ المرأتان على مبعدة خطوتين أمامك.

ـ ما حقيقة هذا الأمر؟

ـ انظر نحوي جيداً. هل تتذكر؟ ألا أبدو شبيهاً بشخص تعرفه؟ بالطبع، الرجل ميت الآن... ملازمٌ قتلته أنت. أنا أخوه الأصغر.

اجتاحت وجه كناي فجأة نظرة رعب شديد. تراجع خطوتين أو ثلاثاً وتعثر بأكياس الإسمنت فسقط على الأرض. لم يكن أندو قد سحب مسدسه بعد، لكن كاناي دون أن يحاول الوقوف رفع يده اليمنى ليحمي وجهه وأطلق صيحة.

ـ لقد بحثت عنك طويلاً كناي.

ـ لست أنا من فعل ذلك. لست أنا.

ـ هل ما زلت تمتلك الصفاقة لإنكار ذلك؟

ـ لست أنا. كوباياشي هو المسؤول.

ـ الآن يمكن لك أن تلتحق بأخي.

ـ دعني أخبرك القصة من وجهة نظري على الأقل.

نظر أندو إلى أسفل بصمت قرب قدميه، نحو الرجل البدين القصير المدد على أكياس الإسمنت. تفصدت قطرات من العرق على مقدمة رأسه الصلعاء. وارتسمت على وجه أندو ابتسامة قاسية. كان ضجيج دق الفولاذ وتقطعه عالياً في آذانهم. أخرج أندو مسدس الكولت، أمسك به. دوّر المسدس على أطراف أصابعه ومع كل دوره كان المعدن الأسود البارد يلتمع في الشمس. تشبث كاناي بأكياس الإسمنت وهو ينظر في فوهة المسدس. صاح كناي:

ـ لا تفعل. لا تُقدم على حماقة.

ـ قف.

أمره أندو بصوت خافت:

ـ والآن ادخل إلى القبو.

أشار إلى فتحة مظلمة تفوح منها رائحة الإسمنت الرطب.

ـ أندو، أؤكد لك اني لست المسؤول عما حدث. لم أكن أنا. كان الرائد كوباياشي هو من وضع اللوم على أخيك. على الأقل اعطني فرصة لأشرح لك.

ـ سأتفرغ لكوباياشي في الوقت المناسب. لكني قبل ذلك سأعتني بأمرك. والآن ادخل السرداب.

ـ لا، لا. سامحني! لا، سامحني!

ـ أخي، كاناي... أخي رُمي به في سجن ضيق أبرد من هذا المكان وأكثر عتمة.

توقف صوت القاتل الأجش فجأة عندما سيطرت عليه نوبة سعال. دون

أن يخفف قبضته على المسدس في يده اليمنى، غطى فمه بيده اليسرى. ظل كتفاه لعدة دقائق يهتزان بفعل قوة السعال. عندما توقف أخيراً بصق على أكياس الإسمنت. ظهر هذه المرة أيضاً خيط من الدم في بصاقه.

ـ كاناي، أخي... ولجريمة لم يرتكبها...

أطلق كاناي صيحة عالية ابتلعها ضجيج البناء.

ـ حاول ذلك مرة أخرى وسوف أطلق النار عليك في الحال!

رفع قدمه وأنزلها دون رحمة على يدي كاناي اللتين كانتا تتشبثان بأكياس الإسمنت. وقد أدى ذلك إلى كشط الجلد من على أصابعه الخمسة حتى بدأت تنز دماً.

ـ أوو، لا، لا.

الآن وجد غاستون صوته لأول مرة. ظل الخوف حتى تلك اللحظة يخرسه فلم يتكلم واكتفى بالوقوف والنظر فاغر الفم إلى هذين اليابانيين.

ـ غاس، ادخل أنت هنا أيضاً. إذا جاء أي شخص تظاهر بأننا نلقي نظرة على المكان.

ـ أندو سان.

صاح غاستون بيأس:

ـ الكلب سان، تحبه! أنت تحب الأطفال. تحب الكلاب... تحب الأطفال. أعلم ذلك. تحب الأطفال.

استلم كاناي من كلمات غاستون المفتاح فضم يديه النازفتين معاً في إيماءة توسل وقال:

ـ لدي زوجة... وأطفال... طفلان!

بدأت يدا أندو ترتعشان قليلاً. لقد مسّت توسلات غاستون قلبه دون شك. لكنه كابر وشدّ من قبضته على مسدسه ووضع فوهته على صدر كاناي المطروح على أكياس الإسمنت، ثم ضغط على الزناد.

كان ثمة قطار يمر على مقربة من المكان. بدا كأن ضوضاء البناء أعلى من أي وقت سابق. وكان الوقت يقترب من منتصف النهار.

بدأت أصابع كاناي النازفة المتشبثة بأكياس الإسمنت تتحرك عليها مثل دودة تتسلق بتقويس جسمها. وقف أندو لا يفعل شيئاً إلا التحديق في مسدسه. لم يفهم بعدُ ما حدث. ضغط على الزناد ثانية ثم ثالثة. لكن مسدسه الوفي لم يُصدر إلا صوتاً أجوف. ظلّ أندو دائماً كلما برقت النار من ماسورة مسدسه يحس هزة فرح تنتقل من راحة يده إلى ذراعيه ثم إلى كل جسده. ولكنه الآن ليس سوى الصوت الرتيب للنابض وهو ينحل. لم يكن في المسدس طلقات!

ـ لا توجد طلقات! لا توجد طلقات! لا توجد طلقات!

بدا وكأنه يسمع شخصاً، ليس هو نفسه، يصيح في أذنه بهذه الكلمات ساخراً. بعدها التفت وثبّت عينيه على غاستون.

كانت يدا غاستون على وجهه تغطيان خديه. ينظر مثل طفل وبّخته أمه إلى أندو بوجه بدا وكأنه يوشك على الانهيار في نوبة بكاء.

ـ أنت... أنت...

ارتعشت شفتا أندو بالغضب والكراهية:

ـ هل أخرجت الطلقات من المسدس؟

الآن وقد تحول انتباه أندو بهذه الطريقة إلى مكان آخر، اختار كاناي أن ينتهز الفرصة ليرفع نفسه من أكياس الإسمنت ويعدو دون أي اعتبار للمظاهر مبتعداً صارخاً بأعلى صوته. جسده القصير المربوع اكتسب على غير توقع

قدرة على الانطلاق تفوق سرعة الرصاصة. قبل أن يرفع أندو يده لإيقافه كان قد قطع المسافة الممتدة مع الحائط وخرج عملياً من مدخل موقع البناء ثم اختفى في الشارع.

وقف غاستون وأندو صامتين في مواجهة سافرة لدقيقة.

ـ أنت...

ـ نعم.

ارتسمت على وجه الرجل الضخم الحصاني ابتسامة مثيرة للشفقة عبّرت عن الخوف والندم لما فعل معاً.

ـ اعذرني. اعذرني.

فجأة نزلت يد أندو اليمنى قوية على غاستون. صفعات لا تتركز على جزء معين من جسده بل على كل ما تستطيع الوصول إليه. وفي الوقت نفسه ظل يركله مرة تلو أخرى.

ـ أنت...

ـ أنت تؤذيني!

ـ أنت لا تعلم كم سعيت وعانيت استعداداً لهذا اليوم.

ـ إنه مؤلم!

واصل أندو الضرب والرفس والدموع تنهمر من عينيه. «ألمُ انتظار هذا اليوم!» أخيراً تهاوت قوته واستند إلى الجدار وكتفاه ترتجفان بعنف.

ـ متى أخذت الطلقات؟

لم يجب غاستون، فكرر أندو سؤاله.

ـ قبل حين.

ـ متى قبل حين؟

ـ في السيارة... بينما أنت تغير ثيابك لترتدي البدلة.

أجاب غاستون وهو يختنق بالبكاء ويمسح الدم الذي كان ينز من انفه بفعل ضربات أندو. كان غاستون لدى أدنى حركة من جسد أندو المستند إلى الحائط ليلتقط أنفاسه يرتجف هلعاً.

ـ هل تخطط للهرب؟

ـ لا. لا.

تطلع أندو إلى هذا الوحش الأخرق الذي يتخذ هيئة رجل وكأنه يراه لأول مرة. بالرغم من أنه جبان أكثر منه كلب ضال فان كل ما تحتاج أن تبدي شيئاً بسيطاً من اللطف تجاهه حتى ترتسم ابتسامة ودودة على وجهه الحصاني الضخم. وبينما تعامله باحتقار كأبله تمكن هو من نزع الطلقات من مسدسك. لكنه لا يملك من احترام النفس ما يمنعه من البكاء عندما يُضرب. كانت الغفلة عنه خطأ كبيراً.

ـ هل فعلت ذلك عندما أمسكت بمعطفي المطري؟

تذكر أندو انه سلم غاستون معطفه المطري والمسدس في جيبه بينما هو يبدل ملابسه. كيف واتته الجرأة على تفريغ الطلقات في هذا الوقت القصير؟ من أين حصل هذا الغبي الأجنبي على هذه المهارة؟

بينما سطعت الشمس مباشرة على وجه غاستون الطويل المرتسم ببلاهة واصل مسح الدم من أنفه. شعر أندو وهو يراقبه أن في هذا الرجل شيئاً غريباً وخارقاً.

ـ ولكن ما أنت؟

ـ ما أنا؟

ـ من أين أتيت؟

ـ فرنسا.

كانت أجوبته مقنعة مثل حلوى شعر البنات.

ـ لماذا... لماذا جئت إلى اليابان؟

ـ بالباخرة.

أخطأ غاستون في فهم كلمة «لماذا» وظن أنها تعني «كيف» لأنها الكلمة نفسها للمعنيين في اليابانية.

ـ أيها اللعين! أنا أسألك لأي سبب أتيت.

ابتسم غاستون كأنه يبذل جهدا للإجابة وبقي هادئاً.

ـ لا يمكن أن تكون ممثلاً! هل أنت ممثل؟

نعم، ذلك هو الأمر. هذا الرجل ظلّ يتظاهر بالبلاهة لا غير. إنه رجل ذكي يعي كل ما يجري حوله. قرر أندو أن تلك لابد هي الإجابة.

ركز أندو نظره فيه بشك استثير من جديد. ثم بصق وبدأ يسير باتجاه المدخل. كان ضجيج البناء عالياً كما هو دائماً. التفت أندو ورأى أن غاستون كان يسير في أعقابه مرتبكاً.

ـ لماذا تتبعني؟

لم يجب غاستون.

ـ سألت لماذا تتبعني. ألا تريد أن تذهب؟

ـ لن اذهب عنك أندو سان.

عادت الابتسامة الودودة التي أصبحت مألوفة الآن ترتسم على شفتيه الملطختين بالدم وهز رأسه.

ـ أنت وانا... أصدقاء.

ـ أصدقاء؟ أنت تمزح! لن أحتاجك بعد الآن. اذهب بحق الجحيم من هنا. اتركني لوحدي.

كان المقرر في الخطة الأصلية أن يساعده غاستون على الهرب. الكثير من اليابانيين لطفاء مع الأجانب. تردد رجال الشرطة من قبل في إيقاف السيارة عندما رأوا أجنبياً داخلها. ولم يكن كاناي ليصدق قصته بهذه السهولة لو لم يكن غاستون معه. مجرد أنه أجنبي يجعله مفيداً.

ولكن الآن! تغيرت الظروف. بالرغم من أنه أمر مستبعد، لكن كاناي يمكن أن يعدو إلى الشرطة ويستدعيهم. حينها سيكون غاستون معوقاً كبيراً. إن شوهد أندو برفقة عملاق أجنبي مثل غاستون فإنه سرعان ما سيقع في أيدي الشرطة الذين سيتربصون في انتظاره في كل محطة.

ـ ما الذي تنتظر! اذهب!

فتح أندو الباب الصغيرة في سياج البناء وأشار إلى الشارع.

ـ أنت محظوظ لأنك حي... كان من المحتمل أن أقتلك أنت أيضاً فيما بعد.

قال القاتل ذلك بنبرة أشبه بالتهديد، لكنه لم يكن يمزح. لقد فكر أندو عدة مرات منذ تركا سانيا بقتل غاستون إن هو حاول خيانته. ليس هو في نهاية المطاف إلا كلباً ضالاً، متشرداً دون مأوى.

ـ قلت اغرب عن وجهي!

ـ أنت... أين تذهب؟

سأل غاستون بحزن.

ـ أين؟ ذلك بحق الجحيم أمر يهمني أنا.

ـ أين تذهب؟

ـ ألا ترى أنك شخص شديد الإزعاج؟

ـ أذهب معك.

ـ معي؟

رفع أندو وجهه بدهشة. أقول له اذهب فيقول أريد أن أتي معك. يبدو وكأن ذلك بالنسبة له هو الأمر الطبيعي الذي يجب إن يفعله.

ـ إذن تريد إن تعرف إلى أين أنا ذاهب؟ حسناً، سأقول لك. أنا ذاهب لأظفر بالشخص الآخر الذي أوقع بأخي. هل تريد إن تأتي معي لتفسد عليّ الأمر مرة أخرى؟

ـ إن ذهبت أذهب معك.

ـ ماذا؟

ـ لأني أحبك. أريد أن أساعدك.

ـ تساعدني؟ تريد أن تساعدني في القضاء على الرجل الآخر؟

ـ لا، ليس ذلك.

بدا على وجه غاستون إحباط لأنه لا يستطيع أن يجد الكلمات اليابانية التي يستطيع بها أن يوصل ما يحس به.

ـ أندو... وحيد، لذلك تحتاج إلى صديق.

أضاءت عيني أندو موجة متجددة من الكراهية وحدق بغاستون:

ـ أنت يا ابن العاهرة. اغرب عن وجهي بحق الجحيم. لا أكره شيئاً كالميوعة.

رفع يده كأنه ينوي توجيه ضربة جديدة إلى غاستون فتراجع الأخير خطوات إلى الخلف. أعلن مرة أخرى وقد ترك بينه وبين القاتل مسافة آمنة:

ـ أذهب معك.

قالها هذه المرة هامساً كأنه يكلم نفسه.

ـ ستذهب إلى الجحيم. يبدو أنك تريد أن انتزع الحياة من جسدك؟

ـ لا. لا أريد أن أتعرض للضرب.

ـ إذن اغرب عن وجهي.

ـ أذهب معك.

نفد صبر أندو. أمسك بمسدسه وتقدم ليضرب غاستون بعقبه. امتلأت عينا غاستون بالخوف.

ـ أوو، لا، لا.

رفع يديه إلى وجهه واستعد ليبعد عنه ضربة أندو.

ـ إذن تحرك!

ـ أوو، لا، لا.

ـ لم لا تذهب إذا كنت لا تريد أن تتعرض للأذى؟

لم يجب غاستون.

ـ هل تسمعني؟ سألتك فأجب.

ـ لقد اتخذت قراراً.

خرج صوت غاستون الخفيض من خلال الأصابع التي كانت تغطي وجهه. نظر إلى أندو وقد عقد حاجبيه مثل طفل يوبّخه والداه.

ـ قراراً؟ أي قرار يا ملعون؟

ـ ألّا أتركك... أن اذهب معك.

كان صوته منخفضاً كما لو أنه صوت بعوضة تترنم، لكن أندو لم يجد صعوبة في التقاط كلماته.

ـ لا أتركك... اذهب معك.

لم تكن أية كلمات أخرى لتكون أكثر إساءة بالنسبة لقاتل جنّد نفسه ضد كل عاطفة أو إنسانية أو إحساس. قبض على ياقة غاستون:

ـ انظر هنا... لا أثق إلا بشيء واحد. ذلك هو الكراهية!

ـ أنت تكذب.

ـ أكذب؟ لماذا؟

شدّ أندو على عنق غاستون حتى اضطره إلى أن يكافح من أجل التنفس.

ـ هل يؤذيك هذا غاس؟ هل تتألم؟

ـ هذا مؤلم!

ـ إن كان يؤلمك إذن فاسمع. أنت من ذلك النوع من الأنذال الذين أكرههم اشد الكراهية.

ـ أنت تؤلمني.

ـ عليك أن تكف عن هذا التهريج. لن تخدعني. أعرف كم من الخير يوجد في هذا العالم! الحب والثقة، كلمات يستخدمها الجميع لما فيه منفعتهم فقط... صرت أكثر فطنة الآن. لن أخدع مرة أخرى.

ـ أنت تؤلمني.

ـ إن خطوت ورائي خطوة واحدة أخرى أقسم باللّٰه سأقتلك. حاول فقط وسترى!

قال أندو ذلك وتركه ثم بدأ يمضي مبتعداً. لكنه رأى عندما التفت أن غاستون كان يسحب نفسه على طول الحائط في أعقابه، فاندفع عائدا إليه ونزل بأخمص المسدس على صدغه بكل قوته. صدر عن ذلك صوت يشبه سقوط قضيب من الحديد على الأرض. دار غاستون على نفسه وسقط كعمود كبير من الخشب.

* * *

بالرغم من أن الربيع قد أفسح المجال للصيف ظلّ هواء المساء رطباً. كان جرسا الريح اللذان أتت بهما تومويي من الجنزا يصدران رنيناً بين الحين والآخر عندما تهب نسمة تحركهما ثم يعودان إلى السكون.

جلس تاكاموري الذي عاد إلى البيت مبكراً على غير عادته يقاطع ساقيه في الشرفة ويلتهم بنهم حلوى الرز بعد وجبة المساء. وهي حلوى جاءت بها تومويي هدية من الجنزا.

ـ انظر، لقد لطخت الكيمونو بحلوى الفاصوليا!

بدأت تومويي تلقي درساً من كرسيها.

ـ آسف.

ـ يجب أن تكون آسفاً. إنه كيمونو جديد.

ـ هو كذلك. قلت إنني آسف.

لكن انتباهه تركز في مكان آخر، وسرعان ما بدأ يمسح أصابعه الدبقة على الكيمونو الذي يرتديه مرة أخرى.

ـ تاكاموري.

ـ نعم.

ـ أشعر بالأسف والتعاطف مع من ستتزوجها.

ـ لست بحاجة إلى ذلك.

أجابها وهو يمسح أصابعه بقطعة من الجريدة.

ـ أرى وأنا أنظر إليك من مكاني هذا أنك مثل طفل كبير لا أكثر.

ـ ها؟ يبدو لي أن الرجل الذي سيتزوجك هو من يستحق الشفقة... لا تستطيعين أن تمنعي نفسك من النكد حتى وأنت تأكلين.

سحب تاكاموري علبة سجائره.

ـ علبة ثقاب رجاءً!

ـ العلبة قربك... وتأكد أن تضع رماد سيجارتك في منفضة السجائر. شكت أمي من ذلك صباح اليوم مرة أخرى. قالت إن تاكاموري يبدو وكأنه يعتقد أن كل مكان في الدار منفضة سجائر له.

كان تاكاموري شأنه شان معظم الرجال لا يهتم برماد سيجارته. يمكن لأي شيء أن يكون منفضة له، مزهرية أو إحدى حاويات الكريم الخاصة بتوموي.

ـ تاكاموري.

ـ ماذا الآن؟

ـ لقد تلقيت بالفعل عرضاً للزواج.

ـ آاه؟ لابد أن الرجل فقد برجاً من عقله.

ـ أوساكو زميلي في المكتب...

ـ ذلك الذي يشبه وجهه قعر قدمي.

بينما تاكاموري يتكلم، وقف وتمطى ثم خطا إلى الحديقة المظلمة. رأى وهو يتطلع إلى سماء الليل نجمة تسقط ويبرق ذنبها في السماء. أبعد عينيه عنها كما لو كانت فألاً سيئاً.

كان التلفون يرن. ذهبت توموي لتجيب. علت في صوتها نبرة غريبة:

ـ الجنزا؟... حسناً...

وضعت سماعة التلفون ونادت على أخيها:

ـ تاكاموري! لقد تعرض غاستون للأذى. وهو الآن في مركز الشرطة. إنه اتصال من مركز مرونوتشي.

* * *

تبدو كل مراكز الشرطة في اليابان وكأنها بُنيت على وفق الخارطة ذاتها. فكما هو شأن المركز الذي زاره تاكاموري وتوموي في وقت مبكر كان هذا المركز ذا مدخل أعلى من مداخل البنايات المعتادة. لم يكن مكاناً يسهل على المرء الدخول إليه.

منح موقع المدخل والدرجات الحجرية التي تقود إليه على اليمين واليسار البناية بكاملها انطباعاً رسمياً متزمتاً. فكر تاكاموري أن عليهم أن يخفّضوا من مستوى المدخل ويتخلصوا من هذه الدرجات عديمة الجدوى. بهذه الطريقة يمكن للشرطة أن تقترب أكثر من الشعب. تلك هي الفكرة التي طرأت على باله وهو يدخل مركز شرطة مارانوتشي. لم يتمكن مَن هم بعمر تاكاموري ـ وقد كان طفلاً في زمن الحرب ـ من التخلص من إحساسهم بالذعر كلما دخلوا مركز شرطة. لكنه ما أن أصبح في الداخل حتى غادره هذا الإحساس. حتى الشرطي الشاب في مكتب الاستقبال كان دمثاً في إخبارهم أين يتجهون.

ـ إن كنتما تبحثان عن ذلك الأجنبي فهو يرقد في المستشفى. رجاءً اذهبا إلى القبو السفلي وانتظرا في الممر هناك.

وجدا الممر الضيق في القبو مضاء إضاءة خافتة، تُطل عليه غرفة خاصة بالتحقيق ومكتب المخبرين.

كانت غرفة التحقيق مواربة واستطاعا رؤية مخبرين يجلسان القرفصاء على سجادة وهما يأكلان المعكرونة.

ـ هل أتيتما من أجل الأجنبي؟

سأل المخبر الذي أسرع يخرج من المكتب وهو يرتدي معطفه بينما هو يتكلم. كان قوي المنكبين، يبدو عليه وكأنه تدرب على الجودو

ـ لقد استلمنا نداءكم.

ـ كان نداءً من قيادة الشرطة... دعنا نر، ما اسمه؟ غاستون بونابرت. سمعنا أنكما كفيلان له.

بدا أنه انتهى لتوه من وجبة المساء فهو يلتقط بعود بعض بقايا الطعام من بين أسنانه بينما هو يتكلم.

ـ قيل لنا إنه تعرض للأذى.

ـ لا يوجد ما يدعو إلى القلق. بعض الرضوض القليلة. في الأماكن التي تعرض فيها إلى الضرب. إنه رجل فرنسي، لذلك فقد كنا قلقين من العواقب المحتملة. ولكن لحسن الحظ لا يبدو أن هنالك أية جريمة في الموضوع.

تنفس تاكاموري وتوموي الصعداء عندما سمعا أن الأمر لا ينطوي على جريمة.

انطلق المخبر يشرح لهما ما حدث. بعد الساعة الثانية عشرة ظهراً بقليل وجد مجموعة من العمال غاستون فاقداً الوعي في الجنزاء ولأن الدماء كانت تنزف من جرح بليغ في جبهته فقد أثار الأمر بعض الاهتمام والقلق لبعض الوقت. حققت شرطة مارانوتشي وعلمت من غاستون أن أحد قضبان الحديد المستخدمة في البناء قد سقط وضربه على رأسه. وقد عالجوا إصابته في مستشفى مركز الشرطة حيث يستريح حتى الآن.

ـ لا يسمح هذا الأجنبي لأحد بإزعاجه. لقد أكل كل ما أعطي له في العشاء، وعندما ألقيت عليه نظرة قبل دقيقة كان ينام بعمق تحت أغطيته.

لم يستطع تاكاموري أن يمنع نفسه من الضحك. ذلك هو غاستون، لا مشكلة. ولكن ما الذي كان يفعله في موقع البناء أساساً؟ متى وكيف هرب من أندو؟

ـ إذن لم يكن غاستون مع أندو؟

كان لدى تومُوي السؤال نفسه. وضّح لها المخبر وهو يرى نظرتها المتسائلة باصقاً عود تنظيف الأسنان:

ـ لا تقلقي بشأن أندو. يقول الأجنبي إنهما افترقا صباحاً في الجنزا.

ـ ولكن لماذا أخذه أندو معه في المقام الأول؟

ـ لم نفهم الكثير من توضيحات غاستون. ولكن علمنا من قيادة الشرطة أن أندو غير مطلوب للعدالة الآن. وقد أوعزوا لنا بإطلاق سراح الأجنبي.

داخل تاكاموري وتوموي ارتياح لسماع ذلك.

ـ تعالا معي. سآخذكما إليه.

أغلق المخبر حقيبته وسار في الممر خافت الإضاءة. مضى تاكاموري وتوموي في أعقابه بشعور من الخشية والرهبة.

ـ اسمحا لي بأن آخذ المفتاح رجاءً.

استلم المخبر المفتاح من شرطي شاب يرتدي زي الشرطة وفتح قفل الباب الذي انفتح على ما بدا وكأنه زنزانة ثم اختفى في الداخل.

سألت توموي أخاها بخوف لعدم علمها بشيء عن أماكن كهذه:

ـ هل قصدوا بالمستشفى هذه الزنزانة؟

ـ لا. المستشفى هنا غرفة يعتنون فيها بالسكارى الذين يصلون إليهم ليلاً. في الزنزانة يكون على السجناء أن يسلموا أحزمتهم وأربطة عنقهم وأي شيء آخر يمكن أن يؤذوا به أنفسهم. نزلاء المستشفى لا يفعلون ذلك.

ـ يبدو أن لديك معرفة دقيقة بمثل هذه الأماكن.

ـ بالطبع.

ـ هل هي معرفة مباشرة على أساس التجربة؟... بعد ليلة سكر مثلاً؟

تمكنا خلال الباب نصف المفتوح من رؤية صف من الزنزانات تصطف على أبوابها الشبيهة بأبواب الأقفاص صنادل من القش. وقد توصلا اعتماداً على عدد الصنادل أن الزنزانة الواحدة كانت تضم ثلاثة أو أربعة سجناء.

ظهرت امرأة تمشي بوهن وعرج قادمة من الحمامات برفقة حرس من الشرطة. تلقتهم بابتسامة غامضة وهي تدخل زنزانتها.

عاد المخبر وقادهما إلى المستشفى. هناك وجدا غاستون. بدا وكأنهما لم يرياه منذ زمن طويل. لا يزال يرتدي البدلة الصغيرة جداً عليه نفسها وكان يجلس محدودباً على سريره. الوجه الحصاني القديم نفسه أيضاً، لكنه يحمل هذه المرة ضمادة كبيرة على جبهته. بالرغم من ذلك لم يبد أن الجرح كان بليغاً.

ـ غاس.

حين ميّز غاستون تاكاموري اندفع باتجاهه. مدّ يده الكبيرة وأمسك بيد تاكاموري وهزها بقوة.

ـ لقد سببت لنا القلق بالفعل يا غاس.

ـ لا شيء يدعو إلى القلق.

ـ كيف حال رأسك؟

ـ بخير. الألم كله... ذهب.

* * *

في الباص بين هبايا وكيودو أفسح تاكاموري وتوموي مكاناً لغاستون ليجلس بينهما، وعاملاه كما لو كان شخصاً ذا مكانة خاصة. سماء الليل مضاءة بقوس قزح من أضواء النيون. أمامهم وقفت فتاتان تتشبثان بأحزمة السقف، من الواضح أنهما من طالبات الثانوية. بدا من حديثهما أنهما كانتا عائدتين من حفل موسيقي في صالة هيبيا. ما زال يرتسم على وجهيهما الأثر السحري للموسيقى وهما تنهمكان في نقاش حماسي عن عزف البيانو.

بدا غاستون مرتبكاً. جلس متصلباً يضع يديه بتكلف على ركبتيه.

يتذكر تاكاموري الليلة التي غادر فيها غاستون بيتهم في كيودو. كانت ليلة كهذه تتلامع فيها نجوم لا حصر لها في سماء صافية. يستطيع تاكاموري حتى الآن أن يرى بوضوح جسد غاستون وهو يبتعد في الليل ويلتفت مراراً ليلوح مودعاً.

حتى هذه اللحظة لم يفهم تاكاموري الدافع الذي جعله يغادرهم. ولكن ارتسم على وجهه الساذج يومها انطباع واضح ينم عن هدف محدد بينما هو ينظر إليهم بحزن وعيناه تطرفان محاولاً التوضيح بيابانيته العرجاء.

ـ سأذهب.

قال ذلك وعلى وجهه انطباع جميل لم يستطع تاكاموري إلا أن يتأثر من أجله. ما الذي رأى غاستون منذ ذلك اليوم؟ أية مغامرات؟

سأله تاكاموري مرة أخرى إن كان يعاني من الألم وحين أكد أنه بخير، سأله:

ـ هل ضربك قضيب حديد؟

ـ نعم.

هز غاستون رأسه ولكنه تجنب النظر في عيني تاكاموري:

ـ ما الذي كنت تفعل في موقع البناء؟

كان واضحاً إن غاستون حائرٌ في العثور على إجابة.

ـ كنتَ مع قاتل محترف يدعى أندو، أليس كذلك يا غاس؟

ـ انشغلنا عليك بالفعل. أنت محظوظ لأنك استطعت أن تتحلص منه.

ـ نعم.

ـ هل تعلم أي نوع من الرجال أندو يا غاس؟

ـ إنه ليس رجلاً سيئاً تاكاموري.

لاحظ تاكاموري أن غاستون كان يخفي عنهما شيئاً ما، شيئاً لا يريد الإفصاح عنه. أعلنت تومو:

ـ لقد وصلنا شيبويا غاستون.

ثم أضافت: هل تتذكر شيبويا؟

ـ أوو! شيبويا.

ضغط على جبهته الملفوفة بالضمادة وركز نظره على الشوارع المضاءة بسطوع كما لو أنه يبحث عن شيء. هنا أيضاً كانت سماء الليل مشتعلة بنيون الشوارع. غمغم غاستون لنفسه:

ـ سنساي.

ـ سنساي؟ هل تعني تشوتي سان؟

ـ نعم، أتساءل إن كان الكلب سان معه.

ـ الكلب سان؟ أوو، تعني ذلك الهجين المشرد!

ـ أتمنى أن أرى الكلب سان.

تطلع إلى تاكاموري بنظرة طافحة بالشوق.

الفصل التاسع

اسطعي يا كلّ النجوم

يعرف تاكاموري شيبويا معرفة جيدة، ويعرف شنجوكو أيضاً. وهذا يعني أنه يألف كل الزوايا المشبوهة هنا. ولغاستون ذكرياته الحيّة عن المكان هو الآخر.

نزل الثلاثة من الباص وانطلقوا في الشارع الذي كان حتى في هذه الساعة المتأخرة مزدحماً بالناس. ظلّ غاستون يتوقف مراراً ليتطلع حوله كأنه يتذكر زيارة سابقة لما يرى. عندما وصلوا دار سينما توقف وظل صامتاً لوقت طويل.

ـ ما الأمر غاس؟

ـ تاكاموري سان، كنت هنا في تلك الليلة.

لم يكن غاستون قد قال الكثير منذ مغادرتهم مركز الشرطة في مارونوتشي، حتى أنه بدا مرتبكاً في رفقة تاكاموري وأخته. لكنه الآن أظهر مزيداً من الاسترخاء وبدأ يخبرهما عن أحداث تلك الليلة. علما لأول مرة ما حدث في فندق قمة التل، وحادثة الشوبن، وكيف انه كسب صداقة النسوة من الشارع فقدمن له حساء الأو ـ دن الساخن، وكيف أمضى الليل مع تشوتي في بيته.

ـ تلك قصة مثيرة غاس. تومري أراهن أنك لا تعلمين أن لكلمة شوبن ذلك المعنى الآخر.

كانت تومويي تعرف جيداً ذلك البريق الحاد في عيني أخيها كلما صار الحديث يتناول البذاءة لذلك لزمت الصمت وتظاهرت بأنها لم تسمعه.

ـ تومويي حتى كلمة أونتشي اكتسبت معنى جديداً مؤخراً.

قال لها بوجه مرح وأضاف:

ـ غاستون، من المفيد لك أن تعلم ذلك.

ـ أونتشي في اليابانية تعني الغائط ولكنها في اللهجة العامية الحديثة اكتسبت معنى...

ـ كف عن هذا الكلام القذر تاكاموري.

ـ لا، لا. اسمع غاستون. كما قال كونفوشيوس «استكشف الطريق اليوم لأنك قد تموت غداً». تومويي ببساطة يعوزها التعطش إلى الحقيقة. هذا ما تعنيه الكلمة غاستون. أونتشي تعني الشخص الذي لا يميز النبرة. لكن الشخص الذي يتكرر فشله في اختبار السياقة يسمى أونتشي أيضاً. «أون» هي الكلمة التي تعني سياقة و«تشي» تعني أحمق.

بالرغم من جهد تاكاموري في الشرح لم يلتقط غاستون المعنى الذي كان يرمي إليه.

ـ هنالك كاتب الروايات التاريخية الشهير جومي كوسوكا، وهو دائماً يخفق في امتحان السياقة. لذلك يسميه أصدقاؤه جومي أونتشي. هل تفهم ما أقول؟ «جومي» تعني قذارة. قذارة الغائط، ألا يرتبط هذا بقسم الصحة العامة؟

استمر تاكاموري في هذا النوع من الحديث حتى وصلوا المنطقة المقصودة وكانت تومويي مشمئزة مما تسمع.

عندما اقتربوا من نفق الترام استطاعوا رؤية المصباح يومض على كشك

العرّاف العجوز تشوتي، وأدركوا أن كشكه مفتوح لممارسة عمله مرة أخرى هذه الليلة.

ـ غاس، هل نفاجئ الرجل العجوز؟

استجاب غاستون لاقتراح تاكاموري فانسل مبتعداً عنهما وأخفى نفسه في ظل عمود تلفون.

كان تشوتي يجلس ويداه في حضنه متأملاً نار القنديل أمامه.

ـ ها أنتما مرة أخرى.

هتف عندما ميّزهما، وبدا عليه الفرح لرؤيتهما.

ـ سنساي، لقد جئنا اليوم لتقرأ لنا الطالع.

ـ أشك في أن لكما ثقة كبيرة بما أقرأ... هل الأمر يتعلق بمشاغل القلب؟

بعدها حين لاحظ شيئاً على وجهيهما خمّن ما وراءهما.

ـ لقد وجدتما غاستون! لكن لديّ أخبار سيئة بالنسبة له. لقد التقط جامع الكلاب كلبه. يؤسفني أن أخذل الرجل.

تكلم تشوتي كما لو كان هو نفسه مسؤولاً عن الحادث.

منذ الليلة التي اختفى فيها غاستون مكث الكلب مع الرجل العجوز. يتمدد خلال النهار في الشارع أمام البارات وتطعمه النادلات بقايا الرز وذيول السمك. في الليل عندما يغادر تشوتي إلى عمله يلحقه الكلب الأعرج على طول الطريق. «أيها الرجل العجوز هل هذا كلبك؟» كان الزبائن في البارات يسألونه عندما يرون نابليون.

ـ إنه لا يزيد عن جلد وعظم.

يجيبهم تشوتي:

ـ لا، ليس كلبي. لقد تركه أجنبي معي لأهتم به لبعض الوقت.

ـ كلب لرجل أجنبي؟ أي هجين! يبدو وكأنه في أيامه الأخيرة.

في ذلك المساء نفسه جاء جامع الكلاب وألقى القبض عليه. حدث ذلك بينما كان تشوتي في غرفته يرتدي الهاكاما والهاوري قبل أن يقصد عمله. سمع من شرخ في نافذته المكسورة نادلات البار يثرن ضوضاء في الشارع. نظر فرأى أن جامع الكلاب كان يسحب نابليون وقد ربط حبلاً حول عنقه. قاوم نابليون وحاول أن يفلت لكنه لم يتمكن. قُذف به في قفص مع كلاب نابحة أخرى.

ـ يا للعار! دعه وشأنه! هذا الرجل يفتقد إلى الإنسانية.

صبّت النادلات اللعنات والإهانات على جامع الكلاب، لكن الرجل الذي لم يأبه حتى بالإجابة اكتفى بإغلاق القفل على القفص.

اندفع تشوتي نازلاً وحاول بصوت مرتعش مخاطبة الرجل.

ـ أيها الرجل العجوز، أن تترك كلباً هجيناً كهذا سائباً هنا مخالفة قانونية. انظر، إنه لا يحمل حتى علامة دالة حول عنقه.

طرد جامع الكلاب بسرعة كل اعتراضات الرجل العجوز.

أصغى تاكاموري وتوموي اللذان قصدا إلى تقديم مفاجأة سارة لتشوتي بخيبة إلى هذه الحكاية. حينها خرج غاستون الذي سمع كل شيء من مخبئه وظهر أمامهم. بدا وكأنه يوشك على البكاء. لم يتحمل الآخرون النظر إليه.

ـ نابليون سان، الكلب سان.

هتف غاستون متفجعاً وأضاف: نابليون المسكين.

ـ ما زال الوقت مبكراً لفقدان الأمل يا غاس. أنهم يحتفظون بالكلاب لثلاثة أيام على الأقل. قد نتمكن من إنقاذه.

ـ أين؟ أين؟

عندما أخبره تشوتي المكان الذي يمكن أن تحتجز فيه الكلاب أعلن غاستون:

ـ سأذهب إلى هناك الآن.

تطلع إليهم متوسلاً كطفل متملق.

تمكنوا أخيراً من إقناعه أن ينتظر حتى اليوم التالي، لكن الحياة جفت في وجه غاستون كما تجف في ورد «مجد الصباح» الرقيق في عز الظهيرة. لم يكن تاكاموري ليتخيل أن كلباً يمكن أن يعني كل هذا بالنسبة له. قالت تومويي:

ـ سنأتي معك.

حتى هي بدت تواقة إلى التهوين عليه.

* * *

كانت الساعة قد بلغت حوالى الحادية عشرة عندما عاد تاكاموري وتومويي أخيراً برفقة غاستون إلى منزلهما وكان يمكن للمرء وهو يرى الحماس الذي استقبلته به شيزو وماتشان أن يدرك أنه عومل مثل ولد للعائلة يعود من عطلة صيفية. أعدوا الحمّام وقدموا له وجبة خفيفة أخرى. في الطابق الثاني وجد بانتظاره شراشف جديدة وأغطية ناعمة. بدا أن وقتاً طويلاً قد مرّ منذ أن نام في فراش دافئ كهذا. في الليلة التي غادر فيها منزل تاكاموري ووجد مكاناً يبيت فيه ليلته في غرفة تشوتي ثم فيما بعد في فندق سانيا اكتفى بان تمدد على حصير حتى دون أن يخلع ملابسه.

حين لاحظ تاكاموري وتومويي كيف انه يجبر نفسه على الابتسام لشيزو وماتشان لما قدمتا له من خدمات أدركا أنه يحاول أن يخفي عنهما حزنه على فقدان نابليون.

في تلك الليلة وضع تاكاموري فراشه إلى جوار فراش غاستون. عندما تصادف أن استيقظ في منتصف الليل رأى أن غاستون كان يقف قرب النافذة في ثيابه الليلية متطلعاً إلى السماء.

ـ غاس سان.

ـ نعم.

نهض تاكاموري أيضا وأشعل سيجارة. لمعت جذوتها في الظلام. كان كل شيء ساكناً. يعلم تاكاموري أن غاستون يفكر بنابليون لذلك حرص على تجنب ذكر الموضوع.

ـ النجوم جميلة جداً، أليس كذلك غاس؟

ـ نعم.

ـ هل يمتعك النظر إليها كما يمتعني؟

ـ نعم.

سطعت سحابات من النجوم في سماء الليل السوداء. لم يكن تاكاموري قد التقى من قبل بأي شخص يحمل بساطة غاستون وصفاء سريرته. تماماً كما أن النجوم تكافح بشجاعة لكي تنير سماء الليل بقناديلها الصغيرة، كان هذا الأجنبي يفعل ما بوسعه ليمنح الناس القوة بصفاء قلبه. بينما تاكاموري ينظر إلى غاستون الذي ثبّت عينيه على النجوم الساطعة في درب التبانة تذكر فجأة حكاية قاطعة الخيزران. يقال إن الأميرة كاغويا قد نزلت إلى الأرض من القمر[1]. ربما نزل غاستون من النجوم؟ ألن يعود إلى هناك يوماً ما؟ احتمالات بدت كلها ممكنة لتاكاموري في مزاج تلك اللحظة.

---

(1) في «حكاية قاطع الخيزران» تُطرد الأميرة كاغويا من مملكة القمر لخطأ اقترفته وتعيش كابنة متبناة لقاطع خيزران فقير وزوجته حيث تضفي السعادة على بيتهم. عندما يكتمل التكفير عن ذنبها تعود إلى القمر ـ م.

ـ لنعد إلى فراشنا، أعدك أننا سنجد نابليون غداً.

* * *

كان على تاكاموري في اليوم التالي أن يقصد البنك لإتمام عمله في الوقت المعتاد، لكن توموي حصلت على أذن من السيد ديسانتو للذهاب متأخرة.

تحسنت معنويات غاستون إلى حد ما بالقياس إلى الليلة الماضية. بدا كمن يتوقع بهجة العودة بنابليون مرة ثانية. تألق وجهه الحصاني بالابتسامات منذ الصباح الباكر.

ركبت تومري وغاستون باصاً متجهاً إلى ذلك القسم من المدينة الذي خمّن تشوتي أن جامع الكلاب قد أخذ إليه نابليون. كان شديد الحر يذكر بذروة الصيف. عندما تركا الباص وجدا أمامهما مجرى أسود قذراً على جانبيه صفوفٌ من البيوت مثل علب الثقاب بدت سقوفها آيلة للسقوط. توقفا عند كشك للشرطة ليسألا عن الطريق إلى زريبة الكلاب. خرج رجل شرطة من غرفة داخلية يمسح رأسه بمنشفة. كان يظهر على جبهته المرقطة بحبات العرق خطٌ أحمر تركته قبعته.

ـ هل تريان تلك المدخنة هناك؟ زريبة الكلاب تقع مباشرة تحتها.

لم تتمكن تومري من أن تتخيل السبب الذي يجعل زريبة كلاب بحاجة إلى مدخنة عالية كهذه، لكنها اجتازت مع غاستون المجرى الموحل واتجهت نحو المكان الذي أشار إليه. كان ثمة سحب متناثرة خفيفة في السماء. هذا الجانب من المدينة مكتظ بالمعامل. كانت الشوارع، فيما عدا بائع الآيس كريم الذي مرّ بهما يدق جرسه، خالية من الناس. انعطفا ووجدا فجأة أن الهواء قد امتلأ برائحة نتنة غريبة. كأن منديلاً منقعاً بعطر رخيص قد لفّ وجهيهما.

ـ هل يمكن أن تكون هذه رائحة الكلاب.

كانت في الواقع أقرب إلى رائحة مجمع كيمياوي. لم تكن تختلف كثيراً عن الرائحة العفنة التي تنبعث من الحشرات التي يستخدمها تاكاموري أحياناً كطعم عندما يذهب إلى صيد السمك.

مرت بهما شاحنة صغيرة. كان في الجزء الخلفي منها قفص كبير انبثقت منه رؤوس أربعة أو خمسة كلاب كلها تنبح متوجعة.

ـ أوو! الكلب سان!

نسي غاستون تومو ي وبدأ يركض خلف الشاحنة تتسابق ساقاه الطويلتان بحركة خرقاء. لفّته سحابة الغبار الأصفر التي ارتفعت في أعقاب الشاحنة وهي تمرّ. ظلت تومو ي تراقبه حتى اختفى عند منعطف الحائط الطويل الذي كان يسور زريبة الكلاب. بدت مطاردة غاستون اليائسة لشاحنة جامع الكلاب لتومو ي التي لم تشعر يوماً بحب كبير للحيوانات كأنّها أمر سخيف. فكرت أنه طفل، هل هو مولع كل هذا الولع بالكلاب؟

كان الحائط الذي يسور زريبة الكلاب أطول مما ظنت. على الجانب الآخر من الحائط استطاعت أن ترى المدخنة التي لمحاها من قبل مشرئبة في السماء. عندما وصلت أخيراً إلى البوابة الحجرية التي تؤدي إلى داخل المكان وجدت غاستون يجادل بشأن أمر ما مع شاب يرتدي معطف المختبرات الأبيض.

قال غاستون لتومو ي عندما رآها:

ـ لا فائدة. لا يملك نابليون سان بطاقة.

كان في صوته نبرة توسل حزين:

ـ بطاقة؟

ـ شهادة يصدرها مكتب المنطقة.

وضح الشاب وأضاف: تحتاجين إلى شهادة لإظهار أنك تمتلكين كلباً.

ـ هل من طريقة لتلافي ذلك؟

كان صوت تومري هو الآخر متوسلاً. طرفت عينا الشاب وهو يتكلم:

ـ إنكما تضعاني في موقف حرج. هل تتذكران رقم إجازته؟

رقم الإجازة؟ كيف يمكن لكلب مهجن ضال مثل نابليون أن يمتلك رقم إجازة أو أن يُسجل في مكتب الوصاية؟ كانت تومري حائرة في كيفية الإجابة:

ـ ليست لديه إجازة، ولكن بما أن هذا الأجنبي ظل يبدي اهتماماً كبيراً به ويرعاه...

ـ آسف إذا كان لا يمتلك إجازة ليس لدي ما أستطيع فعله.

ـ ألا تستطيع أن تجد طريقة للمساعدة؟

ربما كان الرجل في معطف المختبر قد تأثر لمنظر الخيبة على وجه غاستون كأنه زهرة ذابلة في يوم صيفي قائظ لأنه استجاب أخيراً لتوسلاتهما:

ـ إذاً هذه المرة فقط. تعالا إلى الداخل. لكن يجب أن أحذركما أن الكلب الذي تبحثان عنه قد يكون تم التخلص منه بالفعل. الكلاب الضالة لا تُعامل بالطريقة نفسها التي تعامل بها الكلاب التي لها من يسأل عنها. نحن عموماً نقتلها في اليوم الذي تأتي فيه.

وجدوا وهم يعبرون البوابة مكتباً صغيرا إلى اليمين. كان يتوزع على المكاتب داخله شباب يرتدون هم أيضاً معاطف المختبر البيضاء.

قادهما الرجل عبر باحة. كان جامعو الكلاب الذين دخلوا في الشاحنة المحملة بالكلاب يجلسون القرفصاء قرب حنفية ماء وقد خلعوا ملابسهم

ولم يبق عليهم إلا الفانيلات الداخلية يغسلون أذرعهم وسيقانهم. تطلعوا بشك إلى توموي وغاستون وهما يمرّان بهم. الرائحة الحادة التي لاحظاها من قبل ملأت الباحة. سألت توموي:

ـ ما هذه الرائحة بحق السماء؟

ـ تعتادين عليها. إنها رائحة المواد الكيمياوية المستخدمة في معامل الجلود في المنطقة. هنالك معملان أو ثلاثة تقوم بنزع الجلد من على الكلاب التي نقتلها لدباغتها.

قال ذلك وهو يشير إلى المدخنة الطويلة التي رأياها في البداية وهما في مركز الشرطة.

اقتربا ما فيه الكفاية الآن ليسمعا جوقة من نباح كلاب يصم الآذان. نباح متوجع، ونباح غاضب، وآخر متوسل. لو كانت هذه الكلاب قادرة على الكلام لعبّرت كلماتها عن كل ضروب الأسى والغضب.

هنالك كلاب بيض وسود ومرقطة وكبيرة ونائمة. عندما فتح مرشدهما الباب إلى المجمع المغلق على مئات الكلاب شرعت الكلاب بالنباح وقد جفلت لمرأى الضوء الذي اخترق الأقفاص المعتمة. غلب غاستون وتوموي الانفعال وهما يتبعان مرشدهما تحت تأثير التوسلات التي تطلب النجدة من كلاب الأقفاص. بدت هذه الكلاب وهي تقفز على شباك الأسلاك في أقفاصها وتهز ذيولها بغضب شديد وكأنها تقول أنا من تبحثان عنه، أنا المقصود. أتوسل إليكما، النجدة!

للكلاب غريزة تجعلها تميز أولئك المولعين بها. عندما اقترب غاستون من القفص تدافعت الكلاب داخله لتقترب منه وقد ارتسمت البشرى على وجوهها. هزت ذيولها بقوة شديدة بدا معها أنها قد تفقدها. قال الشاب لتوموي بإعجاب:

ـ لا بد أنه يحب الكلاب فعلاً.

أدخل غاستون أصابعه خلال شبكة الأسلاك وحيّا كل كلب بدوره وخاطبه بكلمات ناعمة ومسد على رأسه بلطف. لكنه سرعان ما توقف عندما وصل إلى زاوية الغرفة فجأة وتطلع أمامه على حصيرة من القش تجمد عليها كلبان بفعل الموت. كان أحدهما نابليون.

تخللت أشعة شمس ما بعد الظهيرة الشروخ في ألواح الحائط. وبعض خيوط الشمس سقطت مباشرة على رأسي الكلبين المنطرحين هناك دون حركة. ربما مضت عليهما هناك بضع ساعات بعد الموت. جسد نابليون الهزيل ينطرح على جانبه وقد جمع ساقيه الأماميتين كما لو أنه يسبح، وكانت آثار زبد لا تزال تظهر على حنكه الأسفل موحية أنه لا بد عانى من الألم عند موته. جلس غاستون القرفصاء. غطى وجهه بيديه ولم يتحرك. وقفت توموي خلفه تنظر إلى أسفل، إلى منكبيه ولا تدري ما تفعل. لم يكن بيدها ما تفعله على الإطلاق. كان ثمة ذبابتان تئزان فوق فروة نابليون الرمادية. قال الشاب وهو يتنفس الصعداء:

ـ لقد تأخرنا كثيراً. لو جئتما قبل ساعات ربما لتغير الحال.

ـ ولكن لا يبدو أنه قد عانى كثيراً.

لم تتوقع توموي أن تمثل كلماتها أية مواساة لغاستون، لكنها وجدت أن عليها أن تقول شيئاً على الأقل من أجلها هي. وضح الشاب بوهن:

ـ ذلك لأننا نعطيها حقنة. لم يعد الحال كما كان من قبل.

ـ لكي لا تعاني الكلاب...

أدركت الكلاب في الأقفاص أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام. لم تعد تنبح كما كانت من قبل لكنها صوبت نظرات ضبابية نحو الثلاثة.

بقي غاستون يجلس القرفصاء هناك لوقت طويل. غادرت دبابة نابليون واستقرت قرب أذن غاستون لكنه لم يبد محاولة لإبعادها عنه. قالت تومو ي أخيراً وهي تضع يدها على كتف غاستون:

ـ من الأفضل أن نذهب.

عند سماعه ذلك نهض ولكنه بدا كمن جفت فيه الحياة.

عندما بدأت شمس ما بعد الظهيرة تنحدر غادر غاستون وتوموي زريبة الكلاب. وجدا أن امتداد الطريق من مدخل مجمع الكلاب إلى الشارع الرئيس طويل جداً. مرّ بهما رجل الآيس كريم الذي شاهداه من قبل مرة أخرى. ربما في جولته الثانية. تفحصهما بعناية وهو يمرّ بهما.

ـ غاستون، هل نجد لك كلباً آخر يحل محل نابليون؟

سألت تومو ي بصوت ناعم. اكتفى غاستون بهز رأسه بضعف.

ـ هوّن عليك غاستون. لندعو تاكاموري هذه الليلة ونخرج ونحتفل.

ـ تومو ي سان. أنا...

توقف غاستون واستند بيده إلى الحائط ثم قال بصوت خافت:

ـ سأغادر طوكيو هذه الليلة.

ـ تغادر طوكيو؟ أين ستذهب؟

ـ إلى الشمال.

بدا من وجهه الطويل كأنه يوشك على الانهيار. كان أنفه وفمه متشنجين وهو يبذل جهداً لحبس دموعه:

ـ إلى الشمال؟ لا أفهم.

ـ إلى حيث يوجد أندو.

ـ أندو؟

تساءلت تومويي بذهول:

ـ أنت لا تعني ذلك الأندو؟

لزم غاستون الصمت.

ـ ليس ذلك الأندو؟ هل تعنيه غاستون؟ هل يمكن ذلك!

كرر غاستون بصوت خافت:

ـ سأذهب هذه الليلة.

* * *

كان الغسق يتزل بينما هما يمشيان على طول ممرّ تنتظمه الأشجار بين اتشيغايا ويوتسويا. ضباب شفيف زاد من عتمة أوراق الأشجار الخضر. تراكض صبيّان يلعبان الكرة في زاوية من الحديقة ولم يكن فيها أحد آخر. كانت تومويي لا تزال مذهولة من قرار غاستون المفاجئ معادرة طوكيو، خصوصاً وأن وجهته مكان كهذا. حاولت بكل السلطة التي تتمتع بها أخت كبيرة تحاول أن تعيد أخاها الأصغر إلى رشده أن تثنيه عن عزمه. لا بل قررت ألا تذهب إلى العمل ذلك اليوم بالرغم من أنها وعدت أن تكون هناك عند الظهيرة. أمضت أكثر من ثلاث ساعات تحاول إقناعه بوجهة نظرها. وبينما هي تجادله وصل القطار ياتسويا ونزلا منه وهما يقصدان اللحاق بترام النفق في جنزا في محطة يوتسويا. ولأن غاستون لم يتراجع عن قراره صارا يمشيان على طول الخندق باتجاه اتشيغايا.

ـ إذن لا شيء مما أقوله يمكن أن يجعلك تغيّر رأيك؟

ـ لا. أنا ذاهب تومويي سان.

ما لم تعرفه تومويي أن غاستون وهو يلقي أول نظرة على جثة نابليون

مطروحة فوق الحصير برق في عقله وجه أندو. هو نفسه لم يفهم لماذا علت الكلب الميت صورة وجه القاتل. أكان ذلك لأن جثة الكلب ارتبطت على نحو ما في مخيلته بذلك الرجل الذي كان أندو يخطط لقتله؟ أم لأن عيون نابليون الجامدة والخالية من الحياة ذكرته بذلك الرجل الشاب المثير للشفقة وهو يتلوى في نوبة سعال على شارع أغرقه المطر في سانيا؟

ربما أوحى له نباح الكلاب المتوجع في المجمع أن أندو كان يمضي حتماً في طريق هذه الكلاب نفسه، إلى الذبح أخيراً. لن يمر وقت طويل حتى يجد أندو نفسه، شأنه شأن نابليون، جثة هامدة معروضة بالطريقة نفسها أمام عيون الناس. حاول غاستون أن يعبّر عن كل هذا لتوموي لكن يابانيته لم تكن تكفي للتوضيح.

ـ إذا فأنت مصمم تماماً على الذهاب؟

ـ نعم. أندو سان صديقي مثل نابليون.

ـ هل تعرف شيئا عن ذلك الرجل غاستون؟

ـ نعم.

ـ لا يمكن ذلك. ألا تدرك ما يمكن أن يفعله بك. ألست خائفاً؟

ـ نعم، أنا خائف.

طوحت توموي بيديها يائسة وتطلعت مرة أخرى في وجه ذلك الرجل الضخم. إنه حتى أكثر بلاهة مما تصورت. ما لم يكن أبله تماماً لتمكن من فهم منطق جدالها. حتى طفل لم يتجاوز ثلاث سنوات يمكن أن يفهم.

ـ هيي، هل تقذف لنا الكرة رجاءً؟

هتف أحد الصبيان الذين يلعبون الكرة من على مسافة. أخذ غاستون الكرة التي كانت قرب قدميه وقذفها إلى الصبيان بوجه سعيد.

ـ الأطفال يستمتعون باللعب.

ـ نحن لا نتكلم عن الأطفال الآن. كنت أسألك إن لم تكن تشعر بالخوف.

ـ الخوف؟

أجاب غاستون:

ـ نعم، أنا خائف.

ـ إذا كنت خائفاً لماذا تذهب إذن غاستون؟

عندها لخصت تومويِ دون تفكير انطباعها الأول عنه: «أنت أبله بالفعل، ألا ترى هذا!؟»

أبله! منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها في العنبر العفن على سفينة «فيتنام» ظلت في مناسبات عديدة تتساءل إن لم يكن في حقيقته أحمق أو أبله. وجهه وحركاته الخرقاء وملابسه وكل شيء فيه لم يكن ليستثير لدى تومويِ إلا الشفقة والازدراء.

أقرت أن أخاها كان على حق في قوله إن له قلباً طيباً، له قلبٌ نادراً ما يجده المرء هذه الأيام. بل يمكن أن يسمى قديس، أو إذا كان في القديس مبالغة فعلى الأقل رجل طيب القلب طيبة استثنائية.

ولكن أن يكون المرء قديساً أو رجلاً شديد الطيبة في عالم اليوم النفعي الذي يخرج فيه الجميع لافتراس الجميع يساوي البلاهة دون شك. أخيراً كان غاستون يفتقد كل المواصفات الحديثة للجاذبية بالنسبة لفتاة شابة مثل تومويِ. لم يكن إلا شجرة هائلة خاملة لا نفع فيها. وها هي ذي الشجرة تقف أمامها الآن تحدق بنظرة خاوية في الأطفال الذين يلعبون الكرة. في الزاوية البعيدة من السماء طفت سحابتان أو ثلاث طبعها الغروب بلونه الوردي. واشتدت تحت المكان الذي وقفا فيه مباشرة سرعة القطارات

المكتظة بالناس في طريقهم إلى البيوت عائدين من العمل وهي تغادر محطة يوتسويا.

فكرت تومويي أن هذا الرجل يفتقد الحس السليم تماماً. هل يمكنه إدراك أية شخصية يائسة هو أندو؟ قد لا يكون لدى الشرطة قضية ضده في هذه اللحظة لكنهم يضعونه تحت المراقبة بوصفه شخصاً خطراً. هل يعلم غاستون الورطة التي يضع نفسه بها وهو ينطلق غير مكترثٍ بحثاً عن هذا القاتل. لو كان يدرك ذلك لمنعه الخوف من وقفته الحالية يراقب الأطفال يلعبون الكرة وعلى وجهه الحصاني الطويل هذه الابتسامة الحمقاء.

ـ الآن انظر هنا غاستون...

ـ نعم.

كان على تومويي أن تكرر سؤالها الذي طرحته مراراً من قبل. نبرة صوتها أشبه بأم تكلم طفلاً بطيءَ الفهم:

ـ هل تنوي فعلاً أن تمضي في هذا السبيل؟

ـ نعم.

ـ ولكن أولاً هل تعلم أين يمكن أن تجد أندو؟

أومأ غاستون برأسه نعم. سحب قطعه من الورق من جيبه وأشار بسبابته الطويلة إلى عنوان مكتوب بقلم الرصاص: «السيد كوباياشي، مدينة ياماجاتا، ولاية ياماجاتا.»

ـ من أين حصلت على هذه؟

تطلع غاستون إلى الأرض حائراً في العثور على إجابة. الحقيقة أن هذه القطعة من الورق كانت موجودة في جيب معطف أندو المطري مع المسدس الذي أزال عنه غاستون الطلقات. وهي الورقة ذاتها التي أعطاها السائق أوميراكي لأندو في الطريق من سانيا إلى الجنزا.

ـ إذن فأندو يمكث مع هذا الكوباياشي في ياماجاتا؟

هزّ غاستون كتفيه. لكنه لم يستطع أن يخبر تومو ي بما حدث في موقع البناء.

ـ سأبلغ الشرطة بذلك!

ـ لا. لا. يجب أن لا تفعلي ذلك.

انتشل غاستون الورقة بحركة يائسة من يدي تومو ي.

ـ لن يفعل أندو أي شيء سيئ.

لم تجد تومو ي رداً يفند ما يقول في نهاية المطاف. حتى شرطة مارانوتشي التي اهتمت بأمر غاستون أعلنت أنها لم تكن تمتلك سبباً يدعوها إلى اعتقال أندو.

ـ تومو ي سان. أين يمكنني أن أجد القطار إلى ياماجاتا؟

ـ في يونو.

أجابت تومو ي لكنها أردفت مباشرة:

ـ هذه ليست نكتة غاستون... سأتصل بتاكاموري واطلب منه أن يكلمك ليعيدك إلى صوابك.

* * *

وقفت تومو ي لا يحيد نظرها عن غاستون الواقف خارج كابينة التلفون مباشرة تحاول الاتصال بالبنك الذي يعمل فيه تاكاموري ثم سألت بصوت حرصت أن يكون لطيفاً:

ـ أنا أخت تاكاموري هيجاكي...

قبل أن تتمكن من إضافة شيء آخر أجابتها فتاة البدالة بصوت لا يقل عن صوتها لطفاً:

ـ لحظة فقط. سأدعوه.

سرعان ما عادت على الخط لتقول إن السيد هيجاكي قد غادر البنك قبل عشر دقائق لسوء الحظ. قررت توموي وهي لا تدري ما عليها أن تفعل الاتصال بالبيت، لكن أخاها لم يكن قد وصل البيت بعد بالطبع.

ـ ما الذي سأفعل؟ لقد غادر العمل بالفعل.

كان غاستون يضرب الأرض بحذائه القديم وقد ارتسمت نظرة حزينة على وجهه:

ـ آسف لأني لن أتمكن من رؤية تاكاموري قبل أن أذهب.

ـ اذاً لم لا تأتي معي إلى البيت لهذه الليلة على الأقل؟ ما رأيك بذلك؟

حاولت تومو ي بيأس أن تفوز بقبوله هذه الفكرة.

ـ يمكن لك أن تتحدث معه باستفاضة وعندها إن بقيت مصراً على الدهاب إلى ياماجاتا يمكنك أن تذهب بعد أن تستريح لليلة.

ـ لا، ذلك لا ينفع.

ـ لم لا ينفع؟

ـ لأني يجب أن أكون هناك بسرعة.

كان غاستون يخشى إن هو تأخر ليوم واحد أن يسبقه أندو إلى كوباياشي. حتى غاستون البسيط كان بمقدوره إجراء مثل هذه الحسابات.

حلّ المساء الآن. حزم الأطفال الذين كانوا يلعبون في الحديقة معداتهم على دراجاتهم الهوائية وابتعدوا عن المكان. تحول لون السحب الوردي إلى لون ازرق يميل إلى الرمادي.

ـ على الأقل دعنا نأكل شيئاً.

فكرت تومي وهما يسيران على طول الخندق بعد محطة يوتسويا أنها لم تعد تملك شيئاً آخر تقوله يمكن أن يدفعه إلى تغيير رأيه. إذا كان مصراً على عناده فليفعل ما يشاء، هذا ما خلصت إليه. لقد سئمته. لا أستطيع أن أهدر وقتي مع هذا الأحمق العنيد. أحمق، هذا هو أفضل وصف له! أبله تماماً! أراهن انه لا يعرف أن 1+1 =2.

* * *

جلسا متقابلين بصمت في المطعم في يوتسويا. التعب والانزعاج بلغا بتومي حداً منعها من الكلام فظلت تحرك شوكتها إلى أسفل وأعلى برتابة وصمت. كما هو معتاد من غاستون على المائدة، التهم طعامه بفم وحيد قرن.

ـ انظر غاستون...

ـ نعم.

لكن لأن فم غاستون كان مليئاً بالمعكرونة فقد خرجت نعم كأنها خوار بقرة.

ـ كنت أنوي أن أسألك هذا السؤال لوقت طويل...لماذا جئت إلى اليابان؟

كان ما يزال يحرك فكيه إلى أسفل وأعلى فلم تكن إجابته المكونة من كلمة واحدة مفهومة.

ـ اعلم أن في سؤالي بعض الفظاظة.

ـ لا، ليس في الأمر فظاظة.

ـ إذاً هل ستخبرني؟ لقد بقيت أتساءل عن هذا منذ وصولك غاستون.

ما السبب الذي دعاه إلى المجيء إلى اليابان؟ بدا ذلك أمراً غامضاً بعمق بالنسبة للأخت وأخيها منذ البداية. للعمل؟ للتجارة؟ مستحيل! إنه يبدو

أقرب إلى صعلوك منه إلى أي شيء آخر، وهو يفتقد حضور البديهة وسرعتها المطلوبين للتعامل مع المشترين.

هل جاء سائحاً؟ تصير السياحة تجارة أساسية في اليابان بشكل متسارع. لكن غاستون لم يكن مهتماً برؤية نيكو أو كيوتو أو نارا، كما أنه لم يتكلم قط عن فوجياما أو الجيشا أو غيرها من الأشياء التي تبدو وكأنها على لسان كل أجنبي.

هل جاء ليكتب تقريراً عن اليابان؟ لكنّ وجهه الناعس يفتقد أي أثر للفطنة الخارقة التي لابد أن تبرق في عيني صحفي. شددت على سؤالها بجرأة:

ـ لماذا غاستون؟ لماذا جئت إلى اليابان؟

اكتفى غاستون بغمغمة. ظلت عيناه تطرفان كعيني بقرة واستمر فكّاه يتحركان. لكنه لم يقل كلمة واحدة تجيب سؤال توموي.

أدركت تومري أنه يخفي شيئاً ما. داهمها الشك فجأة. لماذا يحاول دائماً أن يتهرب من هذا الموضوع كلما أثير؟ توقفت عن الأكل واكتفت بالتطلع إليه لبعض الوقت. أستحوذ عليها شعور لم يكن شكاً محضاً ولا فضولاً مجرداً. ما يكون هذا الرجل؟ هل لديه مشاعر الرجولة العادية؟ هل جرّب الحب على سبيل المثال؟ هل أحس بعاطفة تجاه أي شخص؟

ـ غاستون، هل لديك حبيبة؟

ـ حبيبة؟

ـ نعم، فتاة تحبها.

رفع غاستون وجهه من صحنه وأعلن:

ـ أنا أحبك أنت تومري.

ارتسمت على وجه تومري نظرة ساخرة وأغمضت عينيها. بالطبع أدركت

مباشرة أن غاستون لم يكن يعرف المعنى الدقيق لكلمة حب باليابانية. بالرغم من ذلك لم تتمكن من أن تمنع احمرار وجهها لجوابه.

ـ ليس ذلك ما أعنيه غاستون.

ـ لكني أحبك بالفعل.

ـ شكرا غاستون. ولكننا أنا وأنت لسنا عاشقين تحديداً.

أصبحت الآن أكثر جديّة وكررت:

ـ لسنا عاشقين.

ثم شعرت وهي تدرك أن صوتها ارتفع كثيراً بمزيد من الارتباك. بالرغم من ذلك بدا غاستون في تلك اللحظة تحديداً، الرجل الذي لم تفكر قط أنه ينتمي إلى الجنس الآخر، بدا لها رجلاً.

لم يكن واضحاً كم كان غاستون واعياً بالذعر الذي داخل توموي وهو يتطلع إليها مبتسماً. ارتفع أنفها درجة وتجنبت وجهه. أية إهانة! هذا الرجل وأنا عاشقان!

في نهاية الوجبة وقف غاستون والتقط فاتورة الطعام. قالت تومويي بسرعة:

ـ أنا سأدفعها. على حسابي.

ـ لا، تومويي سان. أنا سأدفع.

كانت تومويي تعرف قلة النقود التي يمتلكها غاستون منذ مرّ خلال جمارك يوكوهاما، لذلك فإن من الطبيعي أن تكون نيتها وهي تدعوه إلى الغداء أن لا تسمح له بدفع الفاتورة.

ـ أنت مسافر غاستون. يجب أن تحرص على نقودك وألّا تبذرها.

قالت وهي تحاول أن تبدو عفوية.

ـ لا أحتاج إلى النقود.
أجاب غاستون بلطف وهو يبتسم. ظل صامتاً للحظة ثم أعلن بصوت حاسم:
ـ أريد أن تكون دعوة مني إلى الغداء.
تعلمت تومو ي من حواراتهما السابقة كم يمكن أن يكون عنيداً عندما يقرر شيئاً ما، لذلك لم تجادله أكثر.
عندما غادرا المطعم، كانت أضواء الشارع الصفراء في يوتسويا قد أضيئت. وكان ثمة أضواء نيون لا تزال تشعّ في نوافذ جامعة صوفيا التي خيّم عليهما هيكلها مثل سفينة ضخمة. دقّت أجراس كنيسة القديس أغناطيوس مشيرة إلى الساعة الثامنة. خيم ظلام الليل على المحلة. قال غاستون وهو يتوقف أمام الفندق ويمد يده لتومو ي:
ـ وداعاً تومو ي سان.
ـ وداعاً؟ إلى أين أنت ذاهب؟ لا يمكن أن تكون جاداً.
ـ نعم، أنا ذاهب.
ـ غاستون!
لكن غاستون اكتفى بهز رأسه بحزن.
ـ أعدل عن هذا يا غاستون.
التفت المارة في الشارع وألقوا عليهما نظرة مستغربة. لكن تومو ي لم تعد تأبه بما يفكر به الناس. نسيت كل ما حولها وهي تتشبث بمعطف غاستون وتحاول أن تمنعه قائلة:
ـ لا تذهب غاستون. أنت لا تعلم. أنت بالفعل لا تعلم.
أجاب بلطف:
ـ أنا أعلم. أعلم.
ـ ما الذي تعلمه؟

ـ أنا أعلم أن الحياة صعبة. تومو ي، أنا... إنسان ضعيف لذلك عليّ أن أكون حذراً كل حياتي. إنها مشكلة.

انحدرت دمعة واثنتان ومزيد من الدموع الفضية من عينين ناعستين في وجهه الضخم. بدا حصاناً يبكي.

ـ وداعا تومو ي سان. أنا أحبك بالفعل.

ثم التفت وبدأ يمشي مبتعداً. تحولت الأضواء في تقاطع الطريق إلى اللون الأخضر فعبر الشارع وسرعان ما ذاب هيكله الكبير في الزحام. «تومو ي أنت لا تستطيعين أن تميزي الرجل الحق.» عادت كلمات تاكاموري فجأة إليها وظلت تتردد في رأسها بإيقاعات تعلو على أجراس القديس أغناطيوس.

***

محطة يونو المزدحمة. صف طويل من الناس ينتظرون لشراء تذاكرهم. وصوت حزين يعلن رحلات القطار على مكبر الصوت: القطار إلى تاكاساكي سينطلق في الثامنة و26 دقيقة من الرصيف رقم 14. القطار المتجه إلى تاكاساكي من رصيف 14.

في كابينة تلفون عادت تومو ي تحاول بقلق اكتشاف مكان أخيها. أين بحق السماء يمكن أن يكون متسكعاً الآن؟ لم يعد بعد. اتصلت ببيوت أصدقائه ومعارفه ولكن لا فائدة. خرجت من الكابينة. لا فائدة، لا أستطيع أن أجده. أسقط في يدها تماماً.

ـ يؤسفني أنني لن أتمكن من لقاء تاكاموري سان.

قال غاستون. بدا هو الآخر محبطاً.

ـ إذاً فأنت لا تزال مصراً على الذهاب؟

بالرغم من إدراكها لاجدوى السؤال فإنها لم تتمالك نفسها من تكراره.

كان القطار خلف البوابة يستعد للانطلاق إلى منطقة توهوكو. وانتظم الناس فعلاً في صفوف عند البوابة بينما تجمع آخرون مسرعين من غرفة الانتظار ومن خلف أعمدة المحطة وهم يحملون حقائبهم في أيديهم.

ـ هل تعتقد أن عليك أن تذهب غاستون؟

ابتسم غاستون ووضع يده الضخمة على كتفها في إيماءة مواساة. شعرت بدفء راحته عبر ملابسها.

ـ أرجوك ألا تذهب.

ـ لا تقلقي. لا يوجد ما يدعو إلى القلق.

ابتسم غاستون وكأنه لم يكن السبب في قلقها.

ـ لكني لا أفهم.

ـ ما الذي لا تفهمين؟

ـ أنا لا أفهمك.

ثمة حيرة في صوتها. غاستون الذي ظل حتى الآن لا يزيد عن موضوع لسخريتها وشفقتها تحول فجأة إلى رجل ذي قوة خارقة. ولأنها ظلت تنظر إلى الرجال باحتقار سري دائماً فقد كان هذا الإحساس بالنسبة لها جديداً.

ـ أنا أبله... ضعيف!

أشار إلى رأسه ساخراً من نفسه ليدفعها إلى الضحك. ولكن لأن تلك كانت بالضبط فكرتها عنه حتى الآن طعنتها الكلمات بما فيها من تهكم لا واعٍ. احمرّ وجهها وخفضت عينيها.

أطلق القطار صافرته الحزينة. «قطار 8.35 دقيقة المتجه إلى آموري عبر فوكوشيما، يونيزاوا، ياماجاتا، وأكيتا أصبح الآن جاهزاً لاستقبال المسافرين. اتجهوا إلى الرصيف رقم 12.»

قالت تومويي بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

ـ هكذا إذاً غاستون.

ـ وداعاً.

امسك بيدها للمرة الثانية في تحية دافئة.

ـ وداعا تومويي سان. أنا احبك بالفعل.

التفت وابتعد ماشياً نحو زحام الناس المتجهين إلى البوابة. وقفت تومويي هناك غير قادرة على أن تحوّل عينيها عن قامته المبتعدة. بدلته الضيقة عليه، مشيته الخرقاء وهو يصطدم باليابانيين المثقلين بحقائبهم.

«أنت لا تستطيعين أن تميزي الرجل الحق عندما تلتقين به...» مرة أخرى تردد صدى كلمات أخيها في رأسها. هاجمها شعور مركب من الوحدة والندم وشيء آخر أيضاً سبّب لها ألماً.

ـ انتظر!

بدأت تعدو خلفه عبر الزحام.

ـ انتظر غاستون، انتظر!

اصطدم بها الناس بحقائبهم لكنها لم تعبأ بهم، ولم يهمها أيضا أنهم التفتوا بنظرات مستغربة.

ـ غاستون!

حين وصلته أخيراً ورأت دهشته لرؤيتها تعدو خلفه بهذا الشكل لم تعرف ما تقول. عندما استعادت السيطرة على أفعالها تمكنت من أن تقول بصوت متلعثم:

ـ سنبقى ننتظرك عندما تعود. لقد نسيت أن أقول لك ذلك.

ـ شكرا لكِ.

عبر غاستون عن امتنانه لكلماتها بانحناءة عميقة من رأسه وواصل المسير

بقيت تومويي واقفة قرب البوابة تركز عينيها على الرصيف. كان بإمكانها أن تمضي معه إلى نهاية الطريق وتنتظر عند نافذته حتى يتحرك القطار، لكنها لم تشأ أن تفعل ذلك. بدأ القطار يتحرك مبتعداً والأيدي تلوح. حزن الوداع على أرصفة القطار أمر تستهجنه الآن. بدلاً من ذلك فضلت أن تقف حيث هي دون أن يراها وتراقب القطار.

إنه ليس أبلهَ. ليس أبله. أو إن كان كذلك فهو أبله رائع.

لأول مرة في حياتها أدركت تومويي أن هنالك صنوفاً من البلاهة. الرجل الذي يحب الآخرين ببساطة وقلب مفتوح، الذي يثق بالآخرين دون أن يهتم بمن يكونون، حتى ولو تعرّض للخداع أو الغش أو حتى الخيانة، مثل هذا الرجل في عالم يومنا هذا لابد أن يُصنف على أنه أبله. وهو كذلك. لكنه ليس مجرد أبله اعتيادي. إنه أبله رائع. أبله رائع الرجل الذي يقرر أن لا يسمح للضوء الذي ينشره في طرق الناس أن يخبو. كانت تلك أول مرة تخطر لها هذه الفكرة.

لم يعد بالإمكان رؤية غاستون. كانت الأضواء الخابية تتلامع في كل نوافذ القطار الذي ينتظر الانطلاق من الرصيف 12. رنّ جرس إعلان المغادرة. تحت أي واحدة من هذه الأضواء تُراه يجلس الآن!

ـ أبله رائع!

وضعت تومويي يديها على فمها ورددت الكلمات لنفسها. أيها الأبله الرائع عُد بسرعة.

أخيراً توقف الجرس عن الرنين وأطلق القطار صافرته في وجه السماء السوداء وبدأ يبتعد رويداً حاملاً الأبله الرائع إلى الشمال.

الفصل العاشر

إلى الشمال

بقي المسافرون في الدرجة الثالثة في قطار الشمال بعد مغادرة محطة يونو يأكلون ما اصطحبوا من غذاء معهم ويشتركون في أحاديث صاخبة لبعض الوقت. لكنهم بعد أن اجتاز القطار أكابانا، وأوميا، وكوياما أفرغوا ما لديهم من كلام ثم سقطوا واحداً إثر الآخر نائمين.

جلس غاستون قريباً من النافذة يحدّق في أضواء كوياما التي كانت تتراجع مسرعة في المدى. ورأى أضواء الأكشاك المتداعية على طول خطوط سكة الحديد والتقط بين حين وآخر مشهد عوائل تتجمع حول مائدة الطعام في الداخل.

تحولت أفكاره إلى منزل هيجاكي في كيودو. كان القطار قد ترك يونو قبل ساعتين وهذا يعني أن تومويي لابد قد عادت إلى البيت الآن. قد تكون في قاعة الاستقبال تخبر تاكاموري وبقية العائلة بما حدث.

حياة الناس اليومية... فرحة الآباء والأبناء المتجمعين معاً في حلقة حميمة. سعادة ألا يكون المرء وحيداً. لكن غاستون أسلم نفسه للوحدة. لقد قطع كل هذا الطريق إلى اليابان، وهو الآن في قطار متأرجح يشق ظلام الليل إلى الشمال.

ياماجاتا. يا له من مكان يبعث على الوحدة بالنسبة له. كان يسافر وحده

إلى مدينة غريبة لم يرها من قبل. ما المصير الذي ينتظره هناك؟ لم يستطع أن يخمن شيئاً.

بين حين وآخر كان أحد المسافرين يتعثر في ممر العربة المتمايلة متجهاً إلى المرافق. وباب المرافق ينفتح بصوت أجش فيختفي المسافر في الداخل. أيقظت حدة الصوت مسافراً آخر فالتفت ليسأل الرجل إلى جواره عن المكان الذي وصلوا إليه ثم أغمض عينيه مرة أخرى.

كانت المسافة بين المقاعد ضيقة جداً حتى أن ساقَي غاستون الطويلتين بقيتا محصورتين لوقت طويل في وضع واحد حتى شعر بألم فيهما. كان الرجل الكهل الذي يجلس على الجانب الآخر من الممر في ملابسه الداخلية يلقي عليه بين حين وآخر نظرة فضولية من وراء صحيفته، لكنه هو الآخر طوى صحيفته أخيراً واستغرق في نومه. فتحت المرأة الضئيلة العجوز المحدودبة إلى جواره زوادة غدائها وبدأت تقضم كرات رز كبيرة وكأنها فأر صغير. التفتت إلى غاستون وسألته في نصف ابتسامة:

ـ هل أنت أمريكي؟

ـ لا...

هزّ غاستون رأسه وقد داخله الارتباك.

ـ هل ترغب في كرة رز؟

ـ لا، شكراً. تناولت طعامي.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

هي نفسها كانت في طريقها إلى أكيتا لتزور ابنها وزوجته وأحفادها الثلاثة. استعرض غاستون وهو يستمع إليها مرة أخرى الأسباب التي دعته للبحث عن أندو. لم تكن لديه كما أشارت تومويِ أدنى فكرة عن نوع الاستقبال الذي

ينتظره. كان يعلم علم اليقين أن ما يفعله مغامرة طائشة متهورة. لكنه رأى في وقت سابق من ذلك اليوم في زريبة الكلاب جثة نابليون المتحللة ملقاة على حصير تحت أشعة شمس الظهيرة القاسية وشم نتانة الموت. لم تكن رائحة الكلب وحده بل هي رائحة أكثر شمولاً. إنها الرائحة التي تلفّ في عالم اليوم الناس في كل مكان.

***

بعد كل انعطاف من العربة، كانت أطراف أصابع تومويي البيض تتحرك بسرعة بندقية آلية على الآلة الكاتبة. للصوت إيقاع ممتع ووجه تومويي المتماسك وهي تضرب الحروف السود على الورقة البيضاء يتدفق بالجاذبية الحيّة التي تميز الفتاة الحديثة.

ـ آنسة هيجاكي، هل يمكن أن تهتمي بأمر هذه الوثيقة؟

استلمت وثيقة أخرى لطباعتها من مكتب السيد ديسانتو.

ـ حسنا. اتركها هنا فقط.

تطلعت إليه بابتسامة موافقة لكن أصابعها لم تتوقف عن الحركة. بهذه الطريقة تضاءل عدد الوثائق المتكدسة على مكتبها واحدة تلو الأخرى. كانت تأخذ بعد كل نصف ساعة راحة لخمس دقائق وتُخرج من مجرها قنينة قطرة للعين تضع منها عدة قطرات في عينيها ثم تريحهما بالنظر خارج النافذة. أمرٌ نافع في التخفيف عن إرهاق العين الناجم عن إطالة التحديق بأعصاب مشدودة في الحروف الصغيرة. بهذه الطريقة كانت تسعى إلى حماية نفسها من قصر النظر، وهو العدو الأكبر لفتاة شابه حريصة على حسن مظهرها. فضلاً عن ذلك، فالعمل بعينين متعبتين يعني ارتكاب الكثير من الأخطاء. لذلك لم تكن استراحة الدقائق الخمس هذه تمثل أية إضاعة للوقت في نهاية المطاف.

اليوم وبينما هي تمسد أطراف أصابعها وتتطلع إلى السماء في الخارج كان يشغلها أمرٌ ما. الوقت يقترب من منتصف الظهيرة، تحديداً الساعة الآن هي الحادية عشرة والنصف. ولأن القطار الاعتيادي يستغرق تسع ساعات للوصول إلى ياماجاتا من طوكيو فان غاستون لابد قد وصل إلى هناك صباح هذا اليوم قبل طلوع النهار.

لم تزر تومويي ياماجاتا قط، لكنها تستطيع أن تتخيل غاستون وهو يصل المحطة قبل طلوع النهار. ستكون المصابيح لا تزال مضاءة في صالة الانتظار التي ستكون شديدة البرودة في ذلك الوقت من الصباح وسيكون العديد من الرجال والنساء جالسين على المصاطب وأمتعتهم مكدسة قربهم، ينتظرون ناعسين انطلاق القطار. ولابد أن يكون أحد مستخدمي المحطة منشغلاً بكنس الأرضية...

أخيراً اندسّ القطار القادم من طوكيو بهدوء في المحطة. تقدم غاستون وهو يسير في أعقاب المسافرين اليابانيين إلى البوابة وقد ارتسمت على وجهه نظرة قلقة إلى حد ما. وقد استرعى جسده الضخم ومظهره الغريب أنظار الجالسين في صالة الانتظار.

الساحة الممتدة أمام المحطة لا تزال نائمة. وضباب الفجر الأبيض الحليبي بدأ بالفعل يطوي ستار الليل. لم تكن الباصات قد بدأت حركتها بعد والمحال مغلقة كلها. أضاءت المشهد الكئيب مصابيح الشارع هنا وهناك. استند غاستون إلى مقدمة حائط المحطة وتطلع إلى نجوم الصباح.

أبله رائع! هكذا هتفت تومويي في الليلة الماضية بينما قطاره ينطلق في الظلام. وها هي ذي تكرر الكلمات لنفسها الآن. تساءلت إن كانت نظرتها المنتقدة للرجال غير صحيحة. لم يكن شعور تومويي تجاه غاستون شعور

فتاة تجاه حبيبها بالطبع. أن يتحول هذا الساذج الذي احتقرته وسخرت منه في سرها من قبل إلى أحجية بالنسبة لها الآن لهو أمر يمثل صدمة بالنسبة لفتاة لها ثقة تومويي بنفسها بالتأكيد. لم يكن الأمر يتعلق بالغموض الذي أحاط به ولكن بحقيقة أنها تعرضت للهزيمة على يديه أيضاً. نعم، بالرغم من أنه مجرد أبله. شعورها بأنها هُزمت وهي التي ظلت تفخر بأنها شابّة عالمة بخفايا الأمور شعور منفّر على نحو خاص. لقد شعرت فجأةً، مع كل ما تتمتع به من روح الاستقلال، بالحاجة إلى أن تتحدث إلى أخيها. لم تكن في نهاية المطاف إلا فتاة شابة. ولأنها لم تكن تمتلك أحداً يمكن أن تتصل به، حبيباً مثلاً، فقد وجدت أن تاكاموري هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن تناقش معه موضوع الرجال. طلبت رقمه. صوته على الطرف الآخر من الخط رسمي منشغل على نحوٍ غير معتاد. مهما بدا سلوكه لاهياً في البيت فهو في البنك كما أدركت جاد في تأدية واجباته.

ـ أوو، هذه أنت.

عندما اكتشف أنها أخته تغيّر أسلوبه في الكلام فجأةً.

ـ ماذا تقصدين بالاتصال بي على هذا النحو؟ سيسبب لي هذا مشكلة مع المسؤول عن العمل. لا يُفترض أن نتلقى اتصالات شخصية خلال ساعات العمل.

خمنت تومويي أن مسؤوله المباشر الذي أعلن عن خشيته منه كان يسمع ما يقول.

ـ أنا آسفة.

كانت نبرة صوتها معتذرة على نحو استثنائي. أضافت:

ـ أردت فقط أن أسألك إن كنت تستطيع أن تلتقي بي في مكان ما في طريق عودتنا من العمل إلى البيت.

ـ حسناً...

ظهرت في صوته نبرة قلق لجهله ما تريد منه. كان يعرف أنها تريد شيئاً ما لأن مثل هذه الدعوة لم تكن مسبوقة تقريباً.

ـ لا تستطيع المجيء؟

ـ أعتقد أني أستطيع...

ثم انخفض صوته فجأة وأضاف:

ـ هل ستدعينني إلى الغداء؟ أنا مفلس.

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت إني سأفكر في الأمر إن وافقت على دعوتي للغداء.

في الخامسة غطت تومويي آلتها الكاتبة وقصدت غرفة النساء لتجدد مكياجها. عندما عادت كان أوساكو في الممر يقف منتصباً مثل عود ثقاب.

ـ تومويي، لا أدري إن كنت ترغبين في الذهاب إلى مشاهدة فيلم معي؟ لدي بطاقتان لفيلم «العاصفة».

ـ شكراً، لدي موعد اليوم بالفعل.

أجابت بأدب وأضافت: ربما في وقت آخر.

رفضته بلطف واندفعت لموعدها مع تاكاموري في مقهى في يوراكوتشو. كان دقيقاً في موعده على غير العادة. وجدته يجلس مستنداً إلى الحائط يدخن سيجارة ويتطلع إلى حوض أسماك يزدحم بسمك استوائي.

ـ لماذا أردت لقائي؟

ـ حسناً...

ـ شيءٌ يتعلق بغاستون أراهن على ذلك.

ـ كيف خمنت؟

ـ لأنه ظل يشغلني طوال اليوم أيضاً.

ـ أتساءل ما الذي يفعله في ياماجاتا في هذه اللحظة.

ـ تومويي، أنا...

أطفأ تاكاموري سيجارته في المنفضة وأضاف:

ـ أفكر بطلب إجازة لأسبوع من العمل. لم أتمتع خلال العام الماضي بيوم إجازة واحد، لذلك فأنا استحق إجازة الآن. أود أن اذهب إلى ياماجاتا. أشعر على نحو ما أن التخلي عن غاستون الآن سيكون نوعاً من التخلي عن أفضل ما أملك في داخل نفسي. هكذا أشعر اتجاهه.

بدأ بعد أن أعلن مشاعره بهذا الشكل الصريح يحك رأسه بارتباك. أعلن بحزم:

ـ أنا ذاهب إلى ياماجاتا.

ـ لا أدري إن كنت أستطيع أن آتي معك أيضاً.

وضعت تومويي ملعقتها في كوب القهوة وأغمضت عينيها.

ـ ولكن لا حاجة بك إلى المجيء معي! أنت في غنى عن مزيد من المتاعب بسبب غاستون. ألست من شكا دائماً منه؟

كانت كلمات تاكاموري لاسعة بتعمد.

ـ إذن لماذا تذهب أنت؟

ـ قلت لك. لدي رأيي الخاص في غاستون. كنتِ دائماً تسخرين منه بينما أنا لم أفعل ذلك.

لم يكن من المعتاد لتاكاموري أن يستفيد من ضعف أخته بهذا الشكل.

بقيت لوهلة لا تجد ما تردّ به سوى نظرة مثيرة للشفقة ترجوه أن يوافق. كان من المؤلم لها أن تعترف بالحقيقة لأخيها.

ـ لم أكن بالضرورة أستهين به. لا بل استطعت أن أرى أنه رجل طيب، شديد الطيبة في الواقع. ومع ذلك لا أجد أي شيء يثير الإعجاب في هذا النوع من الرجال.

ـ يثير الإعجاب؟

ـ نعم. يثير الإعجاب. إنه يفتقد إلى كافة المزايا الرجولية.

أخيراً وجدت الكلمات التي تصدّ بها هجوم أخيها.

ـ وجهه، ملابسه... لكن ذلك ليس أسوأ ما في الأمر. ماذا عن ضعفه وجُبنه؟ ألا ينهار ويبكي مثل فتاة؟ لا أعتقد أنك تستطيع أن تسميه رجلاً يمكن أن يروق للنساء تحديداً.

ـ هل الأمر هكذا؟

ـ نعم، أفترض ذلك.

أشعل سيجارة ثانية.

ـ ألا ترى أن هنالك ما يمنحني الحق في أن أكوّن انطباعاً سيئاً عنه؟

كانت توموي قد بدأت تتذوق شيئاً من نشوة النصر.

ـ ولكن انظري توموي. لا يتمتع كل الرجال بالوسامة والقوة. بعضهم جبناء بالولادة. بعضهم ضعفاء بطبيعتهم. هنالك حتى بينهم من يبكي بسهولة. ولكن أن يقرر رجل كهذا، ضعيف وجبان في آن واحد، أن يتحمل عبء ضعفه ويكافح ببسالة ليعيش حياة جميلة، هذا ما أسميه إنجازاً عظيماً. لست متعلقاً بغاستون إلى هذا الحد لأن له إرادة قوية أو رأساً

متزناً. بل لأنه بالرغم من ضعفه وجبنه يواصل الكفاح بطريقته الخاصة. أشعر بأني منجذب إلى غاستون أكثر مما يمكن أن أنجذب إلى قديس متألق أو بطل.

صمت الاثنان لبعض الوقت. لم تكن تومويِ قد سمعت تاكاموري يتكلم بهذه الجديّة في أي شأن من قبل. كان عادة ما يداخله الحرج فيمنعه من التعبير عن أعمق أفكاره بهذا الشكل. وكلما زادت جدية الأحاديث معه دس تعليقاً فكهاً أو خرج به إلى قنوات أخرى. هكذا اعتادت على تاكاموري الذي يدافع الآن عن غاستون بهذه الجدّية المثيرة.

ـ ما سبب قدومه إلى اليابان برأيك؟

سألت تومويِ أخاها السؤال نفسه الذي وجهته إلى غاستون في مطعم يوتسويا.

ـ لا أمتلك أدنى فكرة عن السبب. إنه غامض. هكذا هو غاستون.

* * *

كان يوماً صافياً جميلاً. غادر قطار أيوبا السريع محطة يونو في التاسعة من صباح ذلك اليوم وهو الآن قد تجاوز كوياما وأتسونوميا. بالإمكان رؤية سلسلة جبال ناسو البركانية على مبعدة إلى اليسار.

ـ ألا تتوقف عن الأكل؟

رفعت تومويِ وجهها عن المجلة التي تقرأها وألقت على أخيها نظرة قرف.

اكتفى بمد النفَس من أنفه ومال بوجهه إلى النافذة وهو يحرك فكيه. لم يكن هو أو تومويِ قد قصدا منطقة توهوكو من قبل. كانا في طفولتهما قد ذهبا مرة أو مرتين إلى أقصى الجنوب في كاجوشيما حيث يعيش جدّهما. لكن هذه هي المرة الأولى التي يسافران بها شمالاً.

لاحت في السماء غيوم كندف الصوف، وهبت ريح لطيفة عبر البساتين الخضر. كان لقما أوراق الأشجار وهي تنقلب بفعل الريح إلى أعلى التماعات فضية. حتى جبال ناسو البعيدة بدت وكأنها تتوهج تحت الشمس.

ـ تومو ي، هذه هي المنطقة التي تبدأ بها مقاطعة توهوكو.

أشار تاكاموري وأضاف:

ـ من هنا وما بعد نحن في المنطقة الشمالية.

ـ كن حذراً ولا تقطر الآيس كريم على بنطلونك.

ـ شيء لطيف أن يبتعد المرء عن طوكيو. لقد مرّ وقت طويل منذ رأيت منطقة ريفية مفتوحة كهذه. طوكيو تكبس على قلوب الناس. تثير أعصابهم مثلك. وهذا ليس لي.

ـ إن أكلت المزيد ستؤذي معدتك بالتأكيد.

صغط تاكاموري وجهه على النافذة. كان يستطيع أن يرى نهراً يتدفق ويطلق نثاراً بارداً من الماء. ولاحت فتاة من القرية تعبر الجسر على دراجتها الهوائية. فكر تاكاموري أن غاس لابد قد مرّ من هنا وألقى نظرة على هذا المشهد نفسه. لكن لا، سافر غاستون في قطار الليل. لابد أنه مر بهذا المكان في ظلام دامس. وربما كان الجميع يغطون في نوم عميق.

تخيل تاكاموري غاستون جالساً في عربة الليل يثني بحركة خرقاء ساقيه الطويلتين لكي يفسح لهما مجالاً في المسافة الصغيرة بين المقاعد. ربما كان الشخص الوحيد اليقظ. ما الذي يمكن أن يجذب نظره؟ هل ثبّت عينيه على النجوم في السماء السوداء كما فعل عندما نظرا هما الاثنان إليها معاً. كادت الريح تقذف بهما بعيداً، لكنهما لم يستسلما لأي تهديد منها وبقيا يداريان نارهما طوال الليل. بعد فوكوشيما بدأ القطار يصعد الجبال المنحدرة

تدريجياً. أحاطت به من الجانبين جبال تغطيها أشجار الصنوبر. اجتاز القطار نفقاً إثر نفق حتى وصل أخيراً إلى قمة إيتايا المعروفة.

ـ لابد أن الثلج يتكوم هنا في الشتاء.

فكر تاكاموري بأن من الممتع أن يعود إلى هنا مرة أخرى مع غاستون عندما يكسو الثلج المكان.

بعد الوصول إلى قمة إيتايا زاد عدد المسافرين الذين يستخدمون لهجة توهوكو على نحو مفاجئ. السماء تكاد تكون ملبدة بالغيوم. ويمكن رؤية بساتين الفواكه في كل مكان. تعريشات العنب على حواف الجبال المسطحة لا يزيد ارتفاعها عن قامة رجل. ربما عكست في الخريف ضوء الشمس الغاربة. انتصبت أشجر الكستناء وقد غطاها الورد الأبيض شاهقة فوق بقية الأشجار في البساتين. وهنالك أشجار تفاح وخوخ أيضاً غطيت ثمارها بأكياس ورقية لحمايتها، وأشجار كرز أثقلتها ثمار الكرز الحمراء اللامعة. بيسما القطار يتوغل في أعماق ريف توهوكو ازداد عدد الأشجار أكثر فأكثر.

ـ هل تعلم ما يسمي الناس هذا النوع من الكرز؟ يسمونه نابليون.

جفلت تومويي وتاكاموري حين تناهت إلى أسماعهما هذه العبارة من حوار في مقعد مجاور. كانت مصادفة عجيبة أن يسمعا في هذه المنطقة التي يزورانها هما وغاستون أيضاً لأول مرة اسم نابليون.

كانت أشجار الكرز، حين تهز أوراقها الفضية نسمة لطيفة، تستعرض بفخر عناقيد وعناقيد من الكرز بلون الياقوت. هنالك كرز لم يكتسب اللون الأحمر بعد. لماذا أطلقوا اسم نابليون على هذا الكرز؟ هل لأنه النوع الأكثر فخامة بين الكرز؟ لكنهما انشغلا بينما هما يتطلعان من النافذة إلى أشجار الكرز ببونابرت آخر.

الرابعة. بعد سبع ساعات وصل القطار إلى ياماجاتا أخيراً. السماء التي تركاها صافية حين غادرا طوكيو ملبدة بالغيوم تماماً الآن. لم يلاحظا ذلك تماماً في القطار، ولكنهما وجدا عندما نزلا إلى رصيف المحطة أن اليوم كان يوما قائظاً جداً. لاحظا وهما يمشيان خارج البناية غيوما رمادية ثقيلة في السماء البعيدة بدت وكأنها تقترب. أدركا أنهما سيواجهان زخة مطر رعدية.

ـ أين سنقيم؟

سألت توموي وهي تحمل حقيبتها بيدها. كانت تخشى أن يبدأ المطر.

ـ يبدو أن هنالك فندقاً واحداً شهيراً هنا.

فتح تاكاموري خارطة المدينة التي ابتاعها في المحطة وأضاف:

ـ لنر. أراكي ماتاموري... أراكي ماتاموري.

ـ ما هذا؟

ـ هذا اسم النزل. إنه غير موجود على الخارطة. لا أعتقد أنه ذائع الصيت.

لكنه عندما أعطى اسم النزل لسائق إحدى سيارات التاكسي المصطفة أمام المحطة عرف السائق مكانه. ركبا التاكسي وبدأ السائق يتحدث إليهما، لم يكن يستخدم لهجة توهوكو المحلية بل يابانية طوكيو الفصيحة التي بدا أنه فخور بمعرفتها.

ـ لابد أنكما من طوكيو. لقد عشت في طوكيو من قبل. هل تفهمان لهجة توهوكو؟ واجهت وقتاً عصيباً معها عندما انتقلت إلى هنا. لكني بعد خمس سنوات هنا أصبحت لا أجد صعوبة كبيرة معها.

بدأ المطر يهطل. لم تكن هذه المدينة القديمة المحصنة والمسورة بالجبال قد تعرضت للقصف خلال الحرب، لذلك ظلّ فيها الكثير من أشجار الكافور

العتيقة وبقايا الحيطان الحجرية المغطاة بالطحالب وبيوت قديمة تذكر ببيوت الساموراي في العصور الغابرة.

كان النزل يقع قرب مركز المدينة. قال السائق يطمئنهما:

ـ هذا أفضل نزل في ياماجاتا.

بدا في الواقع نزلاً ممتازاً. تطلع تاكاموري وتوموي من غرفتهما في الطابق الثاني إلى أسفل حيث حديقة يابانية جميلة توزعت فيها أشجار وصخور بترتيب فني، هنالك حتى ينبوع ماء. لم يكن يبدو أن في النزل الكثير من الضيوف الآخرين. عندما قادتهما الخادمة العجوز إلى غرفتهما سارا في ممرات ملتوية طويلة ومرا بغرف مؤشرة بأرقامها لم يبد أنها مشغولة.

ـ لا بد أنكما متعبان بعد السفرة الطويلة. هل أنتما من طوكيو.

سألت الخادمة بنبرة توهوكو وهي تطوي بدلة تاكاموري بعناية.

ـ توموي، لماذا لا تذهبين إلى الحمام؟ سأذهب أنا فيما بعد.

فعلت توموي ما اقترح عليها. سأل تاكاموري الخادمة أن تعلمه بعض التعبيرات في لهجة توهوكو. بعد أن غادرت الغرفة استرعى سمعه صوت المطر النازل في الخارج. ظلت قطرات المطر تنزل على نحو متواصل في الحديقة. بين حين وآخر ترتفع سمكة شبوط إلى سطح الماء في بركة الينبوع ثم تغطس من جديد. من الواضح أن هنالك وراء حائط الحديقة المغطى بالأشجار شارعاً مزدحماً. لم تكن أصوات الخطوات والسيارات العابرة في الشارع تصل تاكاموري بوضوح. أشعل سيجارة وفكر كم هو غريب أن يكون هنا في ياماجاتا بهذا الشكل.

تساءل أين غاستون في هذه اللحظة؟ لابد أنه في مكان ما من المدينة

يسمع صوت سقوط المطر اللطيف. أو قد يكون بحسب ما يعرف عنه في مكان ما في الخارج وحيداً تحت المطر مثل كلب ضال.

***

كان غاستون في الواقع يمشي في المطر على طول شارع خلفي في المدينة. تتناهى إليه بين حين وآخر ألحان أغنية شعبية يبثها الراديو من أحد البيوت التي يمر بها. لكن كل ما عدا ذلك بدا ساكتاً.

قليلة جداً هي البيوت التي لها سقوف من الآجر. بدلاً من الآجر كانت السقوف تتكون من صفائح الزنك أو صخور معشقة بحسب الطريقة القديمة. يمكنك هنا أن ترى الفقر المدقع لمنطقة توهوكو، ولكن حتى هذه البيوت الصغيرة المبنية بطريقة بدائية كان لكل واحد منها حديقة صغيرة على عكس البيوت في طوكيو. أوراق الأشجار الخضر مبللة بالمطر، تعكس أي ضوء يمكن أن يصلها. وثمة الكثير من الزهور وردية اللون لم يكن يعرف اسمه مزهراً في سياج الشجيرات الذي يطوق البيوت. مسح غاستون بإحدى يديه المطر النازل على جبهته بينما هو يلوك من اليد الأخرى قطعة من الخبز. انعطف إلى الشارع الرئيس وتوقف متطلعاً حوله بحثاً عن يافطة نُزل في المكان. حين وجد واحدة قصدها ونادى من المدخل:

ـ بعد إذنكم.

عندما جاءت الخادمة مسرعة إلى الباب سألها بصوت خفيض:

ـ هل لديكم نزيل باسم السيد أندو؟

نظرت الخادمة إليه بعينين خائفتين. كان مظهر غاستون يثير الذعر حتى في الظروف الاعتيادية، أما الآن فقد بدا منقعاً بالمطر مثل كلب تُرك وحيداً.

ـ أندو؟

التفتت الخادمة إلى كاتب يجلس إلى مكتبه وسألته إن كان ثمة نزيل مسجل بهذا الاسم في النزل. حدج الرجل غاستون بنظرة متشككة أيضاً وأجاب:

ـ أندو؟ لا أحد بهذا الاسم هنا.

عندما جرّ غاستون قدميه متثاقلاً خارج البوابة تبادل الاثنان النظرات وقد أدرك الكاتب ما كان في رأسيهما:

ـ يبدو أنه أحد المتشردين

تلقى غاستون في المكان اللاحق الإجابة نفسها. كان قد طاف منذ أمس بكل أنحاء المدينة وطرح سؤاله على عدد لا حصر له من النزل. تلقى الإجابة نفسها دائماً. وألقت الخادمات والكتاب نظرات غريبة عليه وهم يخبرونه أن لا أحد من نزلائهم يحمل اسم أندو. لم يخطر على باله قط أن أندو يمكن أن يسجل نفسه تحت اسم منتحل لذلك ظل ينتقل من نزل إلى آخر. يقف على المدخل ويسأل عن رجل باسم أندو.

نقع المطر ملابسه وبلغ البلل جلده. شعر بالتعب والجوع. كل ما دخل جوفه منذ الصباح كان المطر يكسرة من الخبز ابتاعها من فرن على الطريق.

حلّ المساء تماماً. حين عبر الشارع الرئيس على مهل وصل إلى كشك أمام النزل الذي وصل إليه للتوّ تاكاموري وتوموي. في تلك اللحظة بالذات كان تاكاموري يجلس في كرسي الروطان في غرفته يتطلع إلى المطر. وكانت تومويي يغطي الماء الصافي ولدافئ جسدها إلى العنق تستمتع بحمامها وقد مدت ساقيها البيضاوين كساقي ظبية صغيرة على طولهما في استرخاء تام.

في هذا النزل أيضاً استلم غاستون الإجابة المخيبة المعتادة. لم يكن بالطبع يحلم أن تاكاموري وتوموي كانا موجودين هنا، وهكذا اختفى يجر ساقيه المتعبتين في الشوارع مرة أخرى.

***



ـ كوباياشي؟ هنالك على الأقل مئة شخص يحملون اسم كوباياشي في ياماجاتا.

قال رجل شرطة عجوز وهو يتطلع إلى أعلى نحو غاستون.

ـ ولكن لا تقف هناك في الخارج تحت المطر. ادخل واجلس.

لابد أن منظر غاستون قد أثار فيه الشفقة. كان رجل الشرطة الطيب يرتشف شاياً فاتراً من كوب متصدع. فتح مجراً وسحب منه صندوق ألمنيوم يحتوي على غدائه ووضعه أمام غاستون.

ـ أيها الأجنبي، ألا تأكل شيئاً؟

وكأنما ليشجعه التقط هو بنفسه كرة رز بيده وبدا يأكلها.

ـ أنت تبحث عن شخص يدعى كوباياشي. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ كما قلت لك، هنالك على الأقل مئة شخص باسم كوباياشي في هذه المدينة. هل تستطيع أن تقدم لي وصفاً له؟

لم يكن غاستون يعلم شيئا البتة عن كوباياشي عدا ما أخبره أندو عنه، أي أنه كان ذات يوم جندياً وأنه أرسل إلى جزر البحر الجنوبي.

ـ جندي تقول؟ في البحار الجنوبية؟

فكر رجل الشرطة العجوز لبعض الوقت ثم قال:

ـ ربما كنت تقصد آهيي كوباياشي.

لحسن الحظ كانت ياماجاتا على عكس طوكيو مجرد مدينة صغيرة يحافظ أهلها البسطاء على فضولهم الحيوي، لا يمتلكون في مساءات الشتاء الطويلة شيئاً يقضون به أوقاتهم أفضل من الجلوس إلى النار وتبادل الأخبار والقيل

والقال. كان رجل الشرطة العجوز يعرف كوباياشي الذي سبق له وأن خدم كجندي في البحار الجنوبية.

ـ إن كان هو من تقصد فهو يعيش قرب كوشو۔ ماتشي.

ـ كوشو ـ ماتشي؟

ـ كانت تدعى من قبل منطقة الأضواء الحمر.

قال الرجل العجوز مبتسماً وأردف:

ـ لكني لا أتوقع أنك تعرف معنى الضوء الأحمر، أليس كذلك؟

بعد عشر دقائق ارتدى رجل الشرطة معطفه المطري ودفع دراجته الهوائية ليقود غاستون إلى كوشو۔ ماتشي.

ـ سأتركك هنا. تجد بيت كوباياشي عند المنعطف تماماً.

خفّ المطر كثيراً. كان هذا الجزء من المدينة يمثل منطقة المتعة في ياماجاتا. ما زال فيه عدد من البنايات المكونة من طابقين أو ثلاثة مبنية بحسب طراز إيدو القديم. لكن المكان فقد منذ تنفيذ قانون محاربة البغاء كل حيويته اللاهية وأصبح الآن مكفهراً بل كئيباً.

انعطف غاستون في الشارع الذي وُجه إليه. كان شارعاً ضيقاً جداً. هنالك في الجانب الأيسر صيدلية باسم تاكاهاشي يقع على مقربة منها محل يبيع الساكي. بعد بيتين، وجد غاستون على باب قطعة صغيرة كتب عليها «كوباياشي ـ مساح أراضي». تقدم منها ونظر عبر النافذة. تخيّل دهشته وهو يرى قرب الباب الرجل الذي كان يبحث عنه دون سواه واقفاً هناك!

الفصل الحادي عشر

الخارطة

بدا أندو وكأنه ينتظر شخصا ما هناك. كان معطفه معلقاً على إحدى ذراعيه وسيجارة تتدلى من شفتيه. تلفت بطريقة جعلت من المتعذر عليه رؤية غاستون يتطلع نحوه عبر زجاج الباب المتسخ. عندما بلغت جمرة سيجارته شفتيه قذف بها إلى الأرض وسحقها بحذائه الصيفي حليبي اللون.

وقف غاستون هناك يحدق في علو كتفي أندو الموحي بالغرور وإلى قفا عنقه النحيل ووجهه الأبيض وانفه تام الاستقامة. مسح أندو فمه بمنديله كما ظلّ يفعل خلال تلك الأيام في سانيا.

فجأة التحق به رجل آخر. خرج من داخل الدار المظلم شخص نحيف يبدو عليه الوهن، يزيد عمره على الخمسين. كان له وجه فأر، خصوصاً حول عينيه اللتين استقرت فيهما نظرة لئيمة مخادعة.

ـ لابد أن ذلك كوباياشي!

قرر غاستون. توقع غاستون، لعلمه أن كوباياشي قد خدم كعسكري في البحار الجنوبية، أن يرى رجلاً أكبر حجماً وأفضل بنياناً، لكنه كان على خطأ. جلس الرجل القرفصاء في المدخل المؤدي إلى القسم الداخلي من الدار. ياقة الكيمونو الذي يرتديه سائبة عند العنق، وهذا أتاح لغاستون أن يرى حتى

أضلاعه. حك ساقيه ثم نشر قطعة من الورق أمام أندو ليفحصها وأشار على نحو متكرر إلى جزء بعينه منها. انحنى أندو يدرس الورقة بينما كوباياشي يشرح له شيئاً ما فيها وعلى وجهه الفأري ابتسامة مداهنة.

أثارت الحالة دهشة غاستون ووجدها أمراً غريباً. كان يعرف ما يعنيه كوباياشي بالنسبة لأندو. لقد رأى عيني أندو تملأهما الكراهية والغضب وهو يكشف له في موقع البناء سبب توجهه إلى ياماجاتا. كيف يمكن إذن تفسير حقيقة أن الرجلين كانا ينحنيان الآن على قطعة الورق تلك وهما يضحكان ويتكلمان بمحبة كما لو كانا صديقين؟

بدأ المطر ينزل مرة أخرى. تساقطت منه قطرات كبيرة عبر المزاريب فوق رقبة غاستون. هنالك ثلاثة أطفال ترشح انفوهم يحدقون بفضول فيه من دكان البقالة عبر الطريق.

لوح أندو بيده ثم رسم علامة بثلاثة أصابع. هز كوباياشي رأسه موافقاً. تنفس غاستون الصعداء بعمق. شعر فجأة بتعب شديد. بدلاً من المشهد المخيف الذي تخيله كان الرجلان يتحدثان بمودة أمامه. وبينما أحس براحة لرؤية ذلك، شاب إحساسه شعور بأنه تعرض لخداع.

بدا أن حديثهما يوشك على الانتهاء. بدأ أندو يرتدي معطفه، وسلمه كوباياشي مظلة قديمة. فتح أندو الباب الزجاجي الذي لم يكن يستقر بثبات على سكتيه وودع كوباياشي وهو يتطلع إلى السماء الرمادية.

ـ أراك غداً أذن.

رافقه كوباياشي حتى الباب دون أن تفارق وجهه الابتسامة المداهنة.

ترك غاستون أندو يسير نحو ثلاثة أمتار في الشارع المبقع ببرك الماء والطين قبل أن يعدو خلفه وينقر على كتفه.

ـ أندو سان!

فتح أندو عينيه واسعتين في دهشة ووقف متطلعاً إلى غاستون دون أن ينبس بكلمة وهو يقبض على مظلته القديمة بيده اليمنى. كانت الدهشة على وجهه سافرة. من الواضح أن غاستون هو آخر شخص في العالم كان أندو يتوقع أن يراه واقفاً أمامه هناك.

ـ أندو سان!

بابتسامة ودية على وجهه، نقر غاستون على كتفه مرة أخرى وقد بدا عليه ارتياح كبير لأنه سبب له هذه المفاجأة بظهوره غير المتوقع.

ـ أنت!

أخيراً وجد أندو صوته.

ـ أنت.

لم يضف شيئاً لكنه التفت بعيداً بسرعة. بصق مرة أخرى على الأرض وأسرع خطاه مستخدماً المظلة ليخفي وجهه.

ـ أندو سان، انتظرني!

لم يأبه الرجل المسلول حتى بالالتفات إليه. عندما سمع وقع خطوات غاستون خلفه على الشارع المغمور ببرك الماء زاد من سرعة مسيره. انعطف الشارع إلى اليمين ثم إلى اليسار.

خلا ذلك الشارع الخلفي من ياماجاتا من أي شخص آخر. غمرت غلالة من المطر كل شيء حوله. هنالك شجرة كافور كبيرة فوق حائط صخري تهدم إلى النصف نشرت أوراقها المبللة عطراً لطيفاً في الهواء. على طول الشارع كثير من المعابد. بدا أن الحيطان البيض التي تطوق المعابد تمتد إلى ما لانهاية. ميزن ـ جي، شنن ـ جي، إنرو ـ جي، تايهو ـ إن. ما أن ينتهي حائط

معبد حتى يعقبه حائط معبد آخر. ومن وراء الحيطان يمكن للمرء أن يسمع تراتيل أناشيد السوترا البوذية وقرع طبول أجوف. زاد هذا الصوت من عمق السكون الذي يلف الشارع.

توقف أندو عن المسير وأصغى لوقع خطوات الأجنبي الغريب، لكنه لم يتمكن من سماعها. شعر بثقل ضاغط. ما الذي يحاول أن يفعل بي؟ لماذا يتعني كل هذه المسافة إلى ياماجاتا...؟

هنالك شيء غريب ومخيف في هذا الأبله الأجنبي. لم يجد أندو أية فكرة تفسر له السبب الذي يدعو غاستون إلى متابعته إلى ياماجاتا واقتناصه بهذا الشكل. توافق ترديد أناشيد السوترا مع إيقاع الطبول. وقف أندو الآن أمام معبد سنشو-جي الذي يشغل مساحة كبيرة تزيد عن المساحة المخصصة لبقية المعابد. وراء بوابة هذا المعبد انتصبت شجرة جنكة عالية لابد أن عمرها يبلغ مئتي أو ثلاثمائة سنة.

فجأة ومن أسفل شجرة الجنكة ناداه أحدٌ باسمه. إنه صوت الأبله غاستون الذي ظنّ أنه تركه بعيداً وراءه. أيكون هذا الرجل شبحاً جاءه سابحاً في المطر؟ كيف تمكن من الوصول إليه بهذه السرعة دون مساعدة من أحد؟ يا له من رجل عجيب!

ـ أندو سان، أريد أن أتحدث إليك.

من الغريب أن أندو اكتفى بالوقوف في مكانه مستسلماً وترك غاستون يقترب منه. ثم داهمه فجأة ألم في صدره ربما بسبب الإرهاق. تصاعدت إلى حنجرته كتلة ثقيلة بصقها إلى الخارج فسقطت على صخرة أمام بوابة المعبد واتخذ الدم الأحمر اللامع شكلاً غريباً في ماء المطر المتجمع هناك.

* * *

توقف المطر. وعند حلول الليل تزايد حرّ خانق. تشتد حرارة ياماجاتا المسورة من كل جهاتها بالجبال أكثر مما هو معتاد في خط العرض الذي تقع عليه. وفيها سُجل الرقم القياسي لأعلى درجات الحرارة في اليابان.

إنها شديدة الحرارة هذا المساء أيضاً وليس ثمة ريح. تعلقت الستائر ساكنة دون حركة في الشبابيك القذرة، وحتى الحصران تدبقت نتيجة الحرارة الضاغطة.

كان هذا البيت في سالف الأيام مبغى ولكنه تحول بعد منع الدعارة إلى نزل. رائحة الرحال والنساء الذين أمضوا لياليهم الشبقة هنا تنز من الحيطان والأبواب المنزلقة التي تحمل نقوش الأزهار والطيور. لم يعبأ أحد فيغسل بقايا البعوض المسحوق عليها.

تمدد أندو يرطب شفتيه الجافتين بلسانه ويتطلع إلى السقف. ألقى مصباح السقف إلى جواره ظلاً يشبه الخفاش.

كان غاستون يجلس دون معطف إلى جواره، يعصر بين حين وآخر خرقة يبللها في حوض قربه ويمسح بها وجه أندو.

بعد حادثة مدخل معبد سنشو تمكن القاتل بمساعدة غاستون من العودة إلى نزله. وحين اكتشف أنه يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة أوى إلى فراشه. لقد أنهكه الحر والمطر والرحلة الطويلة تماماً.

طارت فراشة عبر ستارة النافذة وبدأت تدور حول المصباح الدائري. وقف غاستون وأمسك بها ثم أطلقها خارج النافذة، لكنها وقد اجتذبها الضوء عادت من جديد وهي تنفض عن أجنحتها مادة كالمسحوق

ـ اقتلها! لم لا تقتلها؟

صاح أندو وقد نفد صبره. حين رأى أن غاستون قد أمسك جناحي الفراشة متردداً في قتلها اعتراه فجأة غضب كاسح تجاه هذا الرجل.

ـ أيها المنافق!

خطف أندو الفراشة منه وسحقها دون رحمة بوسادته.

ـ كم تنوي البقاء في هذه الغرفة؟ هل تنوي مواصلة السير في أعقابي؟

ـ أندو سان... مريض. سأغادرك عندما تتحسن.

الآن وقد رأى غاستون أن أندو لم يكن ينوي التعرض بأذى لكوباياشي لم يبق له من عمل كما اعتقد إلا العناية بهذا الرجل المريض.

ـ أنا لا انوي البقاء مطروحاً في ياماجاتا إلى الأبد، لابد أن تفهم ذلك.

بدأ يسعل من جديد.

ـ سأنهض غداً.

ـ غدا؟ لا، لا!... أنت مريض.

ـ لابد أن أنهض غداً.

فكر أندو وهو يتطلع إلى الظل الساقط من غلاف المصباح بما يتوجب عليه أن يفعل في اليوم التالي. كان قد خطط أن يصعد في الصباح جبل تاكاموري وجبل شيراتاكا، وهما من الجبال التي تطوق ياماجاتا، برفقة كوباياشي. ولفهم سبب هذه الرحلة لابد من العودة إلى ما حدث قبل ثلاثة أيام.

* * *

اكتشف أندو عند وصوله ياماجاتا وإقامته في هذا النزل في كوشو- ماتشي بسرعة بيت كوباياشي وبقي يراقب حركته عن كثب. وقد خطط بعناية لتحديد المكان والفرصة للمواجهة.

كوباياشي الذي يضع قطعة كتب عليها مساح أراضي على بابه يتنقل بسرعة في أرجاء ياماجاتا كالفأر. ويبدا أنه كان يقدم للناس الكثير من الخدمات. كان

يتابع تسجيل العقار، ويقارن الأبعاد المسجلة مع الأبعاد الحقيقية، ويعدّ التخمينات للمشتري. كما أنه كان يوفر المعلومات للمضاربين بالأراضي الذين كانوا يتجولون في جبال منطقة توهوكو مستعدين لشراء جبال بأكملها لمجرد أنها يمكن أن توفر لهم ربحاً.

هيأة كوباياشي في الكيمونو الرمادي الحائل متنقلاً في المكاتب الحكومية المحلية ومكتب التسجيل العقاري والمساحة ذكرت أندو بالفعل بفأر يتقافز بحثاً عن الطعام. كان الناس يرونه بعين الإشفاق والازدراء.

فكر أندو وهو يراقبه: إذن هذا هو الرائد الكبير في الجيش الياباني، انتهى به الحال إلى هذا الدرك!

بعد أن تابع أندو الرجل ليومين شعر، حتى هو الذي يعتبره عدواً مبيناً، بتأثرٍ لم يستطع كبحه قريب من الشفقة.

لاحظ أندو وهو يراقب بيت كوباياشي الصغير المتداعي أن زوجة كوباياشي كانت تجلس دائماً وقد أرهقتها واجباتها البيتية عند باب المطبخ تمد ساقيها وتفرك الملابس التي لم تكن تزيد في شيء عن خرق بالية. وهنالك صبي صغير يبطن منتفخة يلعب قربها لا يفارقها. اضطر أندو كلما نظر إلى هذا المشهد، وهو ما هو عليه من القسوة، أن يغلف نفسه بالفولاذ ليتجنب الشعور بالتعاطف. ظل يرصد من نافذته في النُزل التي أتاحت له رؤية كل ما كان يحدث في بيت كوباياشي. راقب ليوم، يومين وهو ينتظر الفرصة المطلوبة.

في ظهيرة اليوم الثالث رأى كوباياشي الذي أمضى الصباح كله داخل البيت يخرج إلى عمل من جحره. وكالعادة كان بالإمكان رؤية صدره المهزول من خلال طيات الكيمونو المتسخ المحلول. ارتدى أندو معطفه بسرعة واستعد للحاق به.

بالرغم من أن اليوم بدأ صافياً، فان سماء ياماجاتا سرعان ما صارت تتلبد عند الظهيرة بالغيوم. وكانت أشعة الشمس تصل الأرض من خلال مرشحات الغيوم الرمادية.

طفق كوباياشي يسير في الشارع. تبعه أندو إلى منطقة «ماتشي اليوم السابع» وهي أكثر أجزاء المدينة حيوية وتعرف بجنزا ياماجاتا مقارنة لها بجنزا طوكيو. قد يمرّ كوباياشي بين حين وآخر بشخص يعرفه فترتسم على وجهه ابتسامة مخادعة كأنها لفأر وهو ينحني بتذلل.

ـ إلى أين وجهتك؟

نادى عليه رجل على دراجته الهوائية.

ـ لدي بعض الأعمال في أوماميكاساكي.

أجاب كوباياشي.

حين سمع أندو أوماميكاساكي رأى أن فرصته قد حانت. لقد قام في اليوم الأول الذي وصل فيه إلى ياماجاتا بجولات في المدينة مع خارطة في يده. لابد لمكان لقائه بكوباياشي أن يكون مهجوراً. حقل أوماميكاساكي هو المكان النموذجي. مكان قريب من المدينة ولكن حتى في منتصف النهار لا يمكن رؤية أحد فيه.

لم يلاحظ كوباياشي أنه كان مطارداً. سار على طول الشارع بخطواته القصيرة السريعة وقبقابه الخشبي القديم البالي. حين وصل مكاتب الحكومة المحلية دخل مكتب كاتب العدل ووقف هناك يتكلم لبعض الوقت مع رجل بدا أنه مسؤول.

بعد خمس دقائق ظهر مرة أخرى وبدأ يمشي باتجاه مياتا ـ ماتشي. لا تفصل مياتا ـ ماتشي عن النهر إلا مسافة قصيرة.

عدا الأيام المطيرة لم يكن يوجد في النهر الواقع في أوماميكاساكي أي ماء تقريباً. كل ما يمكن رؤيته في قاع النهر الأبيض صخور كبيرة متناثرة هنا وهناك. كان مكاناً مثالياً لمواعيد العشاق في الليل.

عندما بلغا ضفة النهر سرّع أندو من خطوه ليقترب من الرجل. وصل قربه وهمس له باسمه في أذنه. انقلب وجه كوباياشي الهزيل إلى شحوب يشبه لون الشمع.

ـ هل تمضي معي حتى قاع النهر.

لحسن الحظ لم يظهر أحدٌ في الطريق أو في الحقول. العلامة الوحيدة التي تدل على حضور إنسان آخر هي الشاحنة التي عبرت الجسر على مبعدة وقد اختفت بسرعة عن الأنظار.

ـ آ.... آ.. آ.

حرك كوباياشي شفتيه ولكنه لم يطلق إلا تمتمة غير مفهومة.

ـ ما بك؟

هنالك مزبلة في مكان ما على يسارهما تُلقى فيها كل نفايات المدينة وتُحرق. كانت رائحة النتانة الكريهة والتحلل تملأ الهواء. سأل أندو بأدب مبالغ فيه:

ـ ما بك سيد كوباياشي؟

في ذلك اليوم في موقع البناء في الجنزا، لاحظ أندو أنه كلما ازداد تأدباً في مخاطبته لشريك هذا الرجل في الجريمة، كاناي، ازداد اضطراب الأخير وتعمق التعبير عن الدهشة والخوف على وجهه. وهكذا هو الحال الآن مع كوباياشي أيضاً. انكمش مبتعداً عن أندو وصدره النحيل ما زال مرئياً من خلال فتحة الكيمونو. لم يصدر عنه إلا تمتمة غير مفهومة.

ـ ما الذي تقوله سيد كوباياشي؟

وكأنما أندو يدفع الرجل الشبيه بأحد القوارض بجسده، تقدم باتجاهه ببطء فتراجع الأخير باتجاه قاع النهر الأبيض حيث تتناثر الصخور الكبيرة. الصراصير التي تواصل غناؤها حتى ذلك الوقت بين الصخور صمتت فجأة، ربما هجست اقتراب نزول المطر. هنالك معمل في المدينة لسحق الصخور لا يبعد كثيراً، وهنالك كوخ صغير للعمال الذين يأتون لجمع الصخور ينتصب على ضفة النهر.

ـ دعنا ندخل إلى هنا... هنا.

ـ أنا سوف أعيـ... أعيـ... أعيـ... دها.

غمغم كوباياشي.

ـ تعيدها؟

عندما وصلا مدخل الكوخ وضع أندو يده في معطفه. لامست أصابعه حديد المسدس الصلب.

ـ تعيدها؟ ما الذي ستعيده؟

بعدها نصب أندو فخاً وهو يحدق في وجه الرجل الآخر.

ـ إذن فقد كنت تخبئها في نهاية المطاف!

بالطبع لم يكن أندو يعلم أي شيء عما كان يخبئ كوباياشي. لذلك استدرجه ليفهم.

أدرك بالحدس أن لذلك الشيء علاقة بأخيه الذي قُتل لجريمة لم يرتكبها.

ـ سيد كوباياشي، دعنا نسمع القصة كاملة في الداخل... فضلاً عن ذلك، ها قد بدأ المطر يهطل.

بدأت قطرات من المطر تنزل من السماء الملبدة وتبلل الصخور في قاع النهر الأبيض. الظلام يسود الكوخ. وعلى الحائط الذي بُني من بقايا خشب مقطوع استقرت مجرفة وسلة لنقل التراب.

ـ إذن لنفترض أنك ستخرج ما بقيت تخفيه.

ـ لا... لا... لا... ليس هنا... المستنقع.

ـ المستنقع؟

سمع حينها أندو القصة كاملة للمرة الأولى. قبل أربعة عشر عاماً خطط كاناي وكوباياشي اللذان كانا في كتيبة واحدة مع أخيه لإخفاء كمية من سبائك الفضة التي صودرت من البنك المحلي ونجحا في ذلك. ولكي لا يكتشف أحد سرهما، أمر كاناي بقتل كل الأهالي المحليين الذين ساعدوا في دفن الفضة، ثم ألقى هو وكوباياشي باللوم على أخي أندو. أخيراً حصل أندو على ما يفسر السبب في أن أخاه لم يكتب له كل التفاصيل مطلقاً.

ـ أي مستنقع؟

تغيرت نبرة أندو فجأة:

ـ أيها الوغد! هل تخفي السبائك في مستنقع؟

ـ لم أفعل ذلك أنا. كاناي هو الذي أمرني بان أفعل ذلك.

ـ حسنا، حسناً. أي مستنقع؟

ـ مكان يُدعى المستنقع الكبير.

تلعثم كوباياشي في غمرة اضطرابه وهو يقول ذلك بصوت مرتعش.

في تموز من عام 1944، قبل عام من نهاية الحرب، عاد كوباياشي وكاناي إلى اليابان من جزيرة البحر الجنوبي التي كانا يخدمان فيها. رأى كاناي

بوضوح أن الحرب لم تكن تمضي على ما يرام وتمكن بالحيلة ضمان تغيير المهمة الموكلة لكليهما في القيادة المركزية. أصبح كوباياشي مدرباً في وحدة عسكرية في مقر القيادة ووجد كاناي عملاً في التجهيزات مع الجيش الشرقي. لم يكن أي منهما ينوي العودة إلى الجبهة. استحوذ كاناي على ثلثي الفضة التي نقلاها سراً من الجزيرة وكان الثلث المتبقي من حصة كوباياشي.

عندما انتهت الحرب باع كاناي سبائك الفضة الخاصة به لشخص كوريّ وأسس بأرباحه شركة تجارية. لكن كوباياشي الذي لم يكن جريئاً مثل كاناي وكان يعاني من نوبات وخز الضمير والخوف من أن يكتشف أمره، لم يجد في نفسه العزيمة للاقتراب من الفضة. خاف حتى من أن تعرف عائلته بالأمر، لذلك قرر أن يخفي السبائك.

بإمكانهما سماع قطرات المطر تضرب سقف الكوخ. اعتادت أعينهما الظلام تدريجياً. سأل أندو وهو يبتسم بسخرية:

ـ هل أنت صادق فيما تقول كوباياشي؟

أشعل ولاعة سجائره واستعرض وجه الرجل الآخر. انتشرت في الإضاءة الخافتة ظلال سوداء قبيحة على وجهه أشبه بقشرة باذنجان جافة.

ـ أين هذا المستنقع الكبير؟

بدأ كوباياشي وهو يأمل في استرضاء أندو يصف موقع المستنقع بنبرة جادة. يجد المرء عند عبور الجبال القريبة مجموعة من المستنقعات، ربما نجمت عن انفجار بركان قديم، أكبرها المستنقع الكبير.

ذاعت أسطورة قديمة ترتبط به. كان التنين، إله هذا المستنقع، يرمي إلى الهجوم على مستنقع مجاور ليختطف السيدة المسيطرة هناك. وذات يوم، بينما أحد الساموراي ويدعى فوجيكورو يغط في نوم عميق عند حافة

المستنقع، ظهرت له فتاة بكر في حلم ملون وتوسلت إليه أن ينقذها. طلبت منه أن ينتشلها من زعيم المستنقع الكبير. عندما استيقظ رأى أمواجاً تتحرك في المياه العميقة المظلمة. وضع سهماً في قوسه ورمى به الأمواج فسكن المستنقع بعدها مرة أخرى.

تخيل أندو المستنقع الكئيب في قلب الجبال. ليست له ثقة تامة بصدق حكاية كوباياشي وأنه أخفى سبائك الفضة هناك. ربما كان الرجل ينصب له فخاً. ولكن، إن صحّت القصة سيحصل على دليل قاطع على براءة أخيه. عليه في الحالين أن يذهب. ليس لديه ما يخسره بالذهاب.

ـ حسنا إذن. خذني إلى هناك.

أشار كوباياشي أنهما سيحتاجان إلى بعض المعدات. وتوسل أندو أن يرافقه إلى البيت، على الأقل لإلقاء نظرة على الخارطة. كان ذلك أمراً منطقياً بما فيه الكفاية.

تقرر أن يقود كوباياشي أندو إلى الجبال في صباح اليوم التالي. ولكن كيف سيتمكن من ذلك وهو في حالته الصحية الراهنة؟

ألقى أندو على غاستون نظرة خاوية، وكان الأخير يمسح جبهته بخرقة مبللة. فجأة خطرت له طريقة يستفيد بها من هذا الأجنبي.

* * *

أسوأ ما في فنادق الأرياف طعامها. لا يشتهي الضيوف من طوكيو شيئاً أكثر من تذوق الطعام الذي تشتهر به المنطقة التي يسافرون إليها. لكن أكثر فنادق الدرجة الثانية لا تقدم إلا الطعام المعتاد الذي يجده المرء في أي مكان.

بالرغم من ذلك كانت الوجبة التي قُدمت في ذلك المساء في الأراكي ماتايمون مقبولة لم تخيب حتى شخصين لهما بصيرة تاكاموري وتوموي

وذائقتهما. حصلا على سمك مطبوخ طبخاً جيداً وخضروات محلية من ياماجاتا. وختمت الوجبة بصحن زجاجي كُوّم عليه الكرز الأصفر.

ـ لا أدري إن كان هذا الكرز من صنف نابليون؟

وضعت تومويي الكرز في فمها لتختبر طعمه. وجدته أكثر حلاوة من الكرز الذي اعتادت عليه في طوكيو. اعتذرت الخادمة قائلة:

ـ أخشى ألا يكون لذيذاً. الوقت ما زال مبكرا قليلاً. تأخر الموسم هذا العام.

ـ أوو، لا. إنه لذيذ.

بينما الأخ وأخته يأكلان الكرز ساد بينهما الصمت وكانا يفكران في غاستون. شعرا برغبة في الاعتذار من غاستون لأنهما يجلسان هنا في هناء ما بعد تناول وجبة طيبة وحلوى لذيذة.

أخيراً توقف المطر وحلّ ليل ساخنٌ ساكنٌ قائظ.

شرحت تومويي للخادمة أنهما كانا يبحثان في ياماجاتا عن صديق أجنبي، وكان تاكاموري في تلك الأثناء يتمدد على حصيرة أمام خارطة ياماجاتا.

كانت أسماء مناطق ياماجاتا طريفة جداً. الكثير منها سُميّت بحسب الصنعة التي يمارسها الحرفيون الذين يعيشون فيها: ماتشي[1] الورنيش، ماتشي الفضة، ماتشي الشموع، ماتشي السطل، ثم هنالك ماتشي اليوم السابع، وماتشي اليوم الثامن، وماتشي اليوم العاشر، وكلها سُميّت بحسب اليوم الذي يقام به السوق في ذلك الجزء من المدينة. هنالك أيضا ماتشي الفلاحين، وماتشي الفنادق، وماتشي النجارين.

---

(1) تعني كلمة ماتشي machi باليابانية مدينة أو مركز تجاري. م.

ـ هل عرفت شيئاً جديداً؟

سأل تاكاموري توموي بصوت خفيض عندما انتهت من حوارها مع الخادمة في الممر وعادت إلى الغرفة.

ـ تقول إن المدينة ليست كبيرة جداً، وأن الأجنبي فيها يكون واضحاً للعيان يسهل العثور عليه. وعدتني أن تتصل تلفونياً بكل النُزل في المدينة هذا المساء.

جلست توموي قرب أخيها.

ـ ذلك لطفٌ منها.

ـ لا أدري إن كان علينا الاتصال بالشرطة.

ـ لندع ذلك خطوة أخيرة، بعد أن نحاول كل شيء آخر. لا نريد أن يعامل غاستون وكأنه مجرمٌ.

بدا ذلك معقولاً لتوموي أيضاً.

ـ ما هذا الذي تنظر إليه؟

ـ خارطة. أسماء الكثير من الأماكن هنا طريفة حقاً. هذا على سبيل المثال طريق عبور الثعلب. انظري كم يوجد من البحيرات والمستنقعات في محيط مدينة يامجاتا. بحيرات الجبال رومانسية فعلاً، ألا تعتقدين ذلك توموي؟ إن وجدنا غاستون ما رأيك بالخروج في جولة على الأقدام إلى هناك نحن الثلاثة؟

كان بستطاعتهما سماع صوت التلفزيون في الطابق الأرضي. أحدهم يشاهد مبراة البيسبول الليلية.

عندما جاءت الخادمة لتضع الشراشف أخبرتهم بأنها اتصلت بسبعة أو

ثمانية فنادق رئيسة في ياماجاتا ولم تجد أجنبياً باسم غاستون بونابرت في أي منها.

ـ لكني سأتصل أيضاً بفندق المصحّة على الجبل.

أضافت أن هذه المصحة تشبه تلك الموجودة في أتامي.

ـ إذن ربما حان الوقت لتتصل بالشرطة.

قرر تاكاموري وتوموي وهما يتمددان ويستعدان للحصول على بعض الراحة.

***

لابد أنه سيواجه وهو بهذه الحالة، يبصق دماً، وقتاً عصيباً حين يتسلق الجبل غداً. رأى وهو يتفحص خارطته أن المستنقع الكبير يقع بين جبل هيجاشي كوروموري الذي يبلغ ارتفاعه ألفين وثلاثمائة قدم وجبل تاكاموري ألفين وأربعمئة قدم. بالطبع هنالك الآن، على عكس الأيام الخوالي، باص يذهب إلى القمة. لكن أندو فكر أن من الأفضل الخروج مبكراً، قبل الفجر، وذلك لكي يتجنب لقاء أي شخص على الطريق.

بحسب كوباياشي يمكن أن يصادف المرء بين حين وآخر، حتى في هذه المستنقعات الجبلية، بعضاً من قاطعي الأخشاب أو صيادي الأسماك يحملون عدتهم لصيد الشبوط. لهذا السبب فقد دفع هو أيضاً باتجاه الخروج بينما الظلام يلفّ المدينة لكي لا يراهم أحد وهم يُخرجون الفضة.

لم يكن أندو بحاجة ليشرح لغاستون سبب تسلقه الجبل. حتى دون شرح، سيتبعه غاستون إلى المستنقع بالتأكيد. فإذا عجز عن تسلق منحدر صعب سيدعو هذا الرجل الضخم ليحمله على ظهره. كما أن غاستون يمكن أن يساعد في سحب سبائك الفضة الثقيلة أيضاً.

تمدد أندو على ظهره يحدق بنظرة خاوية في الظلال التي يلقيها الضوء الضعيف المتمايل على السقف. حلّ أخيراً موعد الثأر من كوباياشي، هكذا فكر... سيأتي ذلك بعد أن يجد سبائك الفضة. ثم تساءل، ولكن ماذا إذا حاول غاستون القيام بالعمل البهلواني نفسه كما في المرة السابقة؟ ماذا سيحدث عندها؟ هل سأقتله؟

اختلس نظرة إلى غاستون الجالس منتصباً يستند إلى الحائط وقد سحب ساقيه الطويلتين إلى صدره وطوقهما بذراعيه. لقد غلبته غفوة. بدا أن إرهاق اليوم الطويل قد بدأ يعلن عن نفسه أخيراً.

أي وجه ينم عن الغباء! كان فمه مفتوحاً قليلاً وقطرات من اللعاب تسيل على حنكه، وتصاعد من ذلك الوجه الطويل صوت شخير خفيف.

«إن بلغ الأمر ذلك الحد، هل أقتله بالفعل؟» لم يكن يريد ذلك. ولكن لنفترض أن الظروف استلزمت موته غداً. يمكن له تماماً أن يفرغ طلقة في وجهه الضخم وفمه الذي يفرز اللعاب. لكن مجرد تخيل هذه الإمكانية أدخل في نفس أندو لسبب ما شعوراً قاسياً وقاتماً بالأسف.

ـ هَيي!

نادى غاستون بصوت خافت:

ـ هَيي، غاس!

فتح غاستون عينيه وتطلع حوله، ما زال يسيطر عليه نوع من الذهول. ربما كان يحلم. ونظر إلى أندو وقد طرفت عيناه ثم إلى أرجاء الغرفة. غمغم بشيء من الفرنسية ثم قال:

ـ أوو، أندو سان، سأغيّر المنشفة حالاً.

مد يده بذعر إلى حوض الماء. سأل أندو وهو يبلل شفتيه المحمرتين بلسانه:

ـ هل تعلم بماذا كنت أفكر تواً؟ ربما قتلتك في يوم ما...أحياناً تسبب لي من الألم ما لا أستطيع تحمله. أيها المنافق! تتظاهر بأنك رجل طيب! من تخدع؟ منافق! أود لو نزعت هذا الجلد عن وجهك، نزعت هذا القناع.

قال ذلك ثم ضحك.

***

الساعة الرابعة والنصف صباحاً. فتح غاستون عينيه ليجد أندو يهزه من كتفيه. كانت الستائر المنسدلة على شبابيك الغرفة المفتوحة تعكس ضوءاً ضعيفاً باهتاً، لكن السماء لا تزال مظلمة. لم يكن يُسمع أي صوت في النزل الذي لا يزال غارقاً في النوم.

ـ حان وقت اليقظة.

أتم أندو ارتداء قميصه وبنطلونه بالفعل. كيمونو الفندق الذي ارتداه للنوم تكور عند رجل السرير. بينما هو يرتدي معطفه سعل بعض البلغم. لمح غاستون مسدس الكولت في غمده تحت حقيبته.

ـ إلى أين نحن ذاهبان أندو سان؟ يجب ألا تبذل جهداً.

فتح أندو الباب إلى الممر دون أن يجيب وأشار لغاستون أن يخرج.

كانت الصالة الأمامية لا تزال مظلمة عندما نزلا، لكن شخصاً تنبه لوقع خطواتهما فتح ضوءاً. ظهر موظف الاستقبال. بدا وكأنه قد ترك سريره للتو.

ـ لست واثقاً أننا سنعود إلى هنا.

وضح أندو وهو يرتدي حذاءه. وأضاف:

ـ لذلك سأدفع الفاتورة الآن.

سحب عملات ورقية عديدة من جيبه وأعطاها للموظف الذي انفرجت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة واسعة كشفت ذهب أسنانه.

الشارع مظلم أيضاً. يكسر الظلام بين حين وآخر ضوء نيون في الشارع. يمكن سماع صرير عجلات شاحنة صغيرة، ربما شاحنة توزيع الحليب أو شاحنة أحد الفلاحين ينقل خضرواته إلى السوق. عدا صوتها يبقى الشارع صامتاً وخالياً.

عندما وصلا الزاوية أمام بنك ياماجاتا توقف أندو. كانت الأبواب المتحركة على الجانب الآخر من الشارع مسحوبة إلى الأسفل على مدخلي السينما والبنك.

ـ إلى أين نحن ذاهبان أندو سان؟

ـ لا يهم. إن كنت لا تريد أن تأتي معي يمكنك العودة.

كان القاتل يضع يده اليسرى على قلبه. بدا أن التنفس يسبب له ألماً.

ـ لم أطلب منك قط أن تتبعني.

عندما لم يسمع إجابة من غاستون حفزّه قائلاً:

ـ ألست على حق فيما أقول؟

طرفت عينا غاستون ونظر إلى الأعلى إلى أندو وعلى وجهه تعبير يدل على التوسل صار الآن مألوفاً.

ـ أندو سان، هل تكرهني؟

ـ الكراهية ليست هي الكلمة. أنا أمقتك من أعماق قلبي.

كانت على وجهه ابتسامة ساخرة متجهمة:

ـ وجهك هذا الطويل الغبي يدفعني إلى التقيؤ.

لم ينطق أي منهما بأية كلمة. نظر أندو إلى ساعته ورأى أنها الخامسة.

صار البنك ودار السينما على الجانب الآخر من الطريق أكثر وضوحاً الآن

مما كانا من قبل. بزغ النهار. ومرّ صبي توزيع الصحف على دراجته الهوائية. بإمكانهما الآن سماع وقع خطوات على البعد. توقفت الخطوات لدقيقة ثم اقتربت مرة أخرى. إنه كوباياشي. كان يرتدي معطفاً قديماً وجزمة عالية.

صفّر له أندو. رآهما وتقدم نحوهما. حين رأى الرجل ذو الوجه الفأري غاستون حدجه بنظرة متشككة. تقدم أندو منه وبدأ يشرح له شيئاً وهو يلتفت بين حين وآخر باتجاه غاستون.

الفصل الثاني عشر

المستنقع المظلم

عندما انتهى أندو من حديثه مع كوباياشي نادى على غاستون وأعطاه حبلاً غليظاً ومجرفة كبيرة جاء بهما الرجل معه.

لم تكن لدى غاستون أدنى فكرة عن الغاية من الحبل والمجرفة، ولا حتى عن الوجهة التي يقصدونها. يكفيه أن أندو يتكلم بمودة مع كوباياشي ويبدو كمن نسي العداوة والكراهية اللذين كان يحملهما نحوه من قبل. لم يكن يعلم كيف تمكن الرجلان من التوصل إلى هذا السلام بينهما، ولكن مهما كانت الطريقة فهي حالة مفضلة بالتأكيد على القتل الدموي الخالي من الحس.

ـ هل تصالحتما؟

قال غاستون مبتسماً وهو ينظر إلى وجهَي الرجلين. أسعده أن يكون طرفاً ثالثاً معهما وشرع يصفّر لحناً.

ـ توقف عن هذا الهراء!

صاح أندو بغاستون الذي أوقف لحنه في منتصفه وظلت شفتاه مبوّزتين.

سار الثلاثة صامتين. كوباياشي وأندو، يتبعهما غاستون بالمجرفة والحبل. كان شارع ماتشي اليوم الخامس ما زال ملتفاً بالنوم. سأل كوباياشي بصوتٍ عالٍ يكفي ليجعل غاستون يسمعه:

ـ هل أنت متأكد أنك تستطيع الثقة بذلك الأجنبي؟ أنا لا اشك فيه ولكن...

ـ أنا من يُصدر الأوامر هنا، ما عليك إلا أن تفعل ما تؤمر به.

أجاب أندو بحدّة وصوت خفيض. ضحك كوباياشي بتذلل ولم يزد كلمة واحدة.

بدأ النهار يطلع تدريجياً. غيوم بنفسجية غامقة لا تزال تغطي السماء، لكن ثمة خيط من النور فوق الجبال.

ـ هل المكان بعيد من هنا؟

سأل أندو. كان مضطراً إلى التوقف بين حين وآخر ليبصق.

ياماجاتا محاطة بالجبال، لكنهم وقد خرجوا إلى السهل الواسع وجدوا أن طريقهم تمتد إلى ما لا نهاية وأن الجبال تقع على مسافة بعيدة جداً.

ـ أندو سان، هل أنت على ما يرام؟

سأل غاستون وقد أحس بالقلق وهو يرى أندو يتوقف مراراً ليبصق. اكتفى أندو في الإجابة عليه بأن حدّق فيه بقسوة.

ـ هل أنت مريض؟

سأل كوباياشي مندهشاً. حتى في ضوء مطلع الصباح القاتم لم يجد أندو صعوبة في ملاحظة أن كوباياشي، الذي ظل حتى هذه اللحظة متملقاً، بدأت تظهر على وجهه ابتسامة غريبة.

ـ لماذا تبتسم كوباياشي سان؟ هذا صحيح، أنا لست على ما يرام. هنالك ثقب في رئتي. ولكن حاول أي حركة غريبة وستجد ثقباً يشبهه في صدرك.

بدأت تظهر الآن السقوف الخفيضة الضيقة للقرية الأولى على طول الطريق. كم قطعوا من المسافة؟

وصلوا إلى نهاية السهل وبدأوا يصعدون جبل تويوشيما. بالرغم من أنه جبل صغير لا يزيد ارتفاعه على ألف ومئتي قدم، كان شديد الانحدار. بدت السماوات من السهل فوق الجبال صافية، لكنهم بعد أن تسلقوا لبعض الوقت واجهوا مطر اليوم السابق الضبابي نفسه. على يمينهم حقول محملة ببعض الغلة. في خطوط ضيقة من الأرض المحروثة تحيط بها أشجار التوت نما البصل وسنابل هزيلة من القمح وعرانيس الذرة ولا شيء سواها. للطريق منحنيات كثيرة حتى بدا وكأنهم لن يصلوا إلى القمة أبداً. عليهم بعد هذا الجبل عبور الوادي الواقع بين جبلي ماتسوموري وتاكاموري.

كان أندو يجد صعوبة في التنفس. باستطاعة غاستون الذي يمشي خلفه حاملاً المجرفة والحبل أن يرى حركة كتفيه السريعة الشبيهة بحركة مضخة وهو يكافح للحصول على الهواء. عندما التفت أندو إليه، كما كانت عادته بشكل منتظم، كان باستطاعة غاستون أن يرى أنه يكابد ألماً شديداً. تفصدت قطرات من العرق على جبينه والتصق شعره برأسه المعروق.

قال أندو:

ـ سنرتاح لوقت قصير.

ثم ارتمى على صخرة إلى جانب الطريق. بدا وكأنه عاجزٌ عن التقدم خطوة واحدة أكثر. أمسك برأسه بين يديه وهو يتنفس بصعوبة.

وصلتهم هبة ضباب تدفعها الريح أسفل الجبل إلى بستان كربتوميريا[1] حيث كانوا يستريحون. مطر خفيف أكثر منه ضباباً تخلل ملابسهم وبلغ الجلد.

احتمى كوباياشي من الجو بمعطفه المطري وقلنسوته. كما أنه كان ضابطاً في الجيش من قبل، يبدو على غير توقع قوي البنية بالنسبة لعمره. نظر إلى

(1) الكربتوميريا cryptomeria japonica أرز ياباني. م.

أندو مطروحاً على الصخرة كأنه فقد الطاقة على المضي خطوة أخرى فعادت الابتسامة الغريبة إلى وجنتيه الضامرتين. بدا مستمتعاً بمنظر هذا القاتل الذي لا يمتلك من القوة البدنية إلا القليل. من الواضح أن رأسه ينطوي على شيء ما، ربما خطة للهرب، بينما هو ينظر باتجاه بستان الكربتوميريا الذي كان يغطيه الآن مطر ضبابي.

نهض أندو وواصل الصعود مرة أخرى بصمت. كان مثل هذا الصعود في العادة أمراً هيناً على غاستون، لكنه لم يحصل منذ وصل ياماجاتا على وجبة طعام واحدة معقولة، ولم يتوفر إلا على ساعتين أو ثلاث ساعات من النوم في الليلة الماضية. فضلاً عن أنه يحمل العدة على ظهره.

ـ هل اقتربنا من المكان؟

أجاب كوباياشي ببرود:

ـ لا، لم نقطع حتى ثلثي الطريق بعد.

سعل أندو مزيداً من البلغم. بدا كمن يحاول أن يحرر حنجرته. مرة أخرى ظهرت للعيان خيوط حمر لامعة من الدم في البلغم كلما بصق. قال كوباياشي وقد فوجئ بمنظر الدم:

ـ يبدو أن لديك سلاً متقدماً، أليس كذلك؟

ثم ارتسمت ابتسامته الغريبة نفسها وأضاف:

ـ لن تتمكن أبداً من الوصول إلى المستنقع الكبير.

ـ ما عليك إلا أن تكف عن محاولة الهرب مني، أحذرك.

زجره أندو.

ـ حسناً، مفهوم.

فجأة شهر أندو مسدس الكولت فألقى عليه غاستون نظرة مندهشة وصاح:

ـ أندو سان، لقد وعدت.

ـ لن أطلق النار عليه غاس... ما لم يحاول الهرب.

كلما صعدوا أكثر ازداد الضباب كثافة. الأشجار والصخور التي لا تبعد عن مرمى نظرهم إلا بضعة أمتار يجللها ضباب كالحليب يطمس حدودها الخارجية.

تأخر أندو قليلاً وراء الرجلين حتى أنه كان يختفي أحياناً في الضباب. لكنهما أدركا من سعاله المتألم أنه ما زال معهما. لم يعد السهل الذي انطلقوا منه في صعودهم مرئياً الآن، ولا أثر لبيوت أو حقول على طول الطريق. اندمج كل شيء في غلالة تلفه من الضباب. والمشي في ذلك الضباب أشبه بسفر عبر عالم آخر، كأنما داخل حلم رمادي. يتولد الشعور هنا بأن المرء يبتلعه قاع مستنقع حليبي اللون لا وجود فيه لزمان أو مكان.

لم يكن غاستون يعلم أين يمشي. لقد فقد حتى الوعي بأنه في اليابان. في مدينته سافوي التي تقع على حدود جبال الألب السويسرية، هنالك الكثير من الجبال التي يزيد ارتفاعها على ستة آلاف قدم. «أين امشي أنا؟ هل أتسلق أحد جبال سافوي؟ هل أنا في طريقي لجمع الحطب مع أصدقائي؟» تحطم هذا الوهم بصوت سعال أندو الجاف خلفه. رأى أمامه أيضاً الجزمة المطاطية والمعطف المطري القديم البالي الذي يرتديه كوباياشي.

نعم بالتأكيد كانت تلك اليابان. وهو على جبل قرب مدينة تدعى ياماجاتا لم يحلم بها مجرد حلم من قبل.

لماذا جاء إلى اليابان؟ نعم، لقد وصل اليابان أخيراً لكنه حتى الآن لم يأت للناس إلا بالمشاكل. لم يفعل حتى الآن إلا التجوال على غير هدى مثل

كلب ضال. ولم يفز حتى الآن إلا بكراهية هذا الرجل أندو الذي سعى إلى مساعدته.

لا فائدة فيه لأي شخص. أدرك بأسى أنه لو مات الآن هنا على هذا الجبل فلن يوجد من يعلن الحداد عليه. قد يندهش تاكاموري وتوموي، هذا صحيح، ولكنهما سينسيان أمره بعد شهر.

«كل ما فعلته ملاحقة الناس.» وهو ما ينطبق على أندو الآن. لقد بقي عاجزاً عن حمله على تغيير ما في قلبه أو على تهدئة روحه المضطربة. كل ما استطاع أن يفعله السير في أعقابه على طول الطريق.

مسح أندو العرق عن جبينه وسحب قدميه المتعبتين على الطريق وهو يقول لنفسه «لا أكثر من مئتي ياردة، مئتي ياردة لا أكثر.» عندما تم قطع هذه الياردات المئتين، بدأ يركز على تجاوز المئتين اللاحقتين. يصعب في هذا الضباب معرفة ما يمكن أن يحاوله كوباياشي. تذكر الكتاب المقدس البالي الذي أرسله إليه أخوه بعد تجنيده في الجيش مباشرة. وتذكر أيضا الليلة التي سعل بها دماً لأول مرة.

«بهذا الوهن الجسدي الذي أنا فيه الآن، كنت سأموت لا محالة لولا كراهيتي لهذا الرجل. يمكن للكراهية أيضاً أن تمنح المرء قوة ليعيش.»

أخيراً، وعلى مسافة بعيدة في الأفق، ظهر سطح البحيرة الأسود المزرق عبر الصدوع التي فتحتها في الضباب ريح خفيفة. هنالك كوخ على ضفة البحيرة. لقد وصلوا المستنقع الكبير. لم يكن بإمكانهم تحديد المسافة الممتدة بين جانبي البحيرة لأن ضباباً ثقيلاً ظل يعلق بماء البحيرة الذي بدا بارداً ذا سطح أسود. طفا جزء من الضفة المقابلة تغطيّه أيكة صغيرة خارج الضباب مثل جزيرة. ولأن الضباب تحرك كالموجة عبر البحيرة بدت هذه الجزيرة نفسها وكأنها تتحرك ببطء.

على ضفة البحيرة المنقوعة بالمطر هيكل باص قديم متروك. وهنالك وراء الهيكل الكوخ الذي لاح لهم من قبل. ربما بُني لتوفير المأوى والمرطبات للمشاة المتنزهين الذين يمكن أن يصلوا إلى هنا في الصيف. ولكن لا أثر لأحد في هذا اليوم. بالرغم من ذلك تحوّط أندو بالتأكد. قال أندو لغاستون:

ـ غاس. اذهب إلى هناك وألق نظرة. انظر إن كان يوجد ما نستطيع أن نشرب... ماء على الأقل.

أوقف كوباياشي غاستون خشية رد الفعل المحتمل على ظهور رجل غريب:

ـ من الخطر أن نرسل الأجنبي. لابد أنه سيثير الشكوك. أنا سآتي بالماء.

أخفى أندو وغاستون أنفسهما في الباص المهجور بينما اقترب كوباياشي من الكوخ خائضاً في برك الماء بجزمته. عندما دقّ الباب جاءه رجل يرتدي ملابس الفلاحين. تكلم كوباياشي معه ثم اختفى الرجل مرة أخرى في الداخل.

شرع أندو وهو يستند إلى حائط الباص المحطم بينما قطرات من المطر تنزل عليهما عبر السقف المثقب بتلميع مسدسه. تفصد العرق من جبهته. وحنتاه وقد صارتا أكثر ضموراً الآن مما كانتا عليه في طوكيو، والضلال الغامقة الدالة على المرض تحت عينيه، كل هذا قدم دليلاً قاطعاً على ما كابد خلال الأيام الثلاثة الماضية. حثه غاستون بصوت خافت:

ـ أندو سان، لنعد إلى البيت.

لم يجب عليه أندو، لكن يديه واصلتا عملهما. سحب مشط المسدس إلى الخارج وتفحص الرصاصات، أعاده مرة أخرى، ثم أحكم صمام الأمان وأعاد المسدس إلى جيبه.

عاد كوباياشي يخوض بجزمته في برك الماء. جاء معه بثلاث زجاجات من صودا البرتقال.

ـ هذا كل ما لديهم.

ـ هل بدا على الرجل الشك؟

ـ لا، الأمر على ما يرام. إنه هنا ليصطاد السمك.

ـ هل اتصلت تلفونياً بياماجاتا من هناك؟

ـ كن منطقياً! كيف يمكن لذلك أن يساعدني؟

بالرغم من ذلك ظلّ أندو يحدج كوباياشي بشك حتى وهو يشرب الصودا. لم يشرب إلا نصف الزجاجة ثم قذفها خارج نافذة الباص إلى المستنقع في الأسفل. اختفت الزجاجة لا تكاد تصدر أي صوت في الضباب.

ـ حسناً. خذني إلى المكان.

ـ لا تكن عجولاً هكذا. لا زلت أشرب.

كان موقف كوباياشي قد تغير. هنالك على الضد من تزلفه السابق نبرة كبر الآن. صاح به أندو:

ـ ماذا قلت؟

ـ إنها لا تبعد أكثر من مئتي ياردة أمامنا. ما نبحث عنه لن يختفي قبل أن نصل إلى هناك.

* * *

إذا لم يكن غاستون مقيماً في نزل بالمدينة فقد يكون في فندق المصحة الجبلي. هذا ما اقترحه على تاكاموري وتوموي موظف الاستقبال والحادمة في نزلهما. لذلك اتصلا تلفونياً بفندق المصحة واكتشفا أن لا وجود لأجنبي له أوصاف غاستون بين المقيمين هناك. ولكن أحد ضيوف الفندق كان قد قال قبل أربعة أو خمسة أيام أنه رأى أجنبياً يمشي في الشارع مع ياباني. اقترح مالك النزل البدين:

ـ ماذا لو ذهبتما إلى هناك وسألتما مباشرة؟

كان تاكاموري وتوموي قد علما من الخادمة عند وصولهما أن هذا الرجل عضو متنفذ في اتحاد متسلقي الجبال.

ـ إنها قرية صغيرة جداً. إذا كان حتى الآن هناك فلا بد أن تتمكنا من العثور عليه مباشرة.

قد تستغرق الرحلة إلى هناك نصف ساعة بالسيارة فقط. وبحسب شرح المالك ظلت المصحة حتى قبل نحو عام واحد مزدهرة جداً ولكن وضعها تدهور بعد قانون مكافحة البغاء حتى وصلت حالها المزرية الراهنة.

بعد أن تناول تاكاموري وتوموي الغداء طلبا تاكسي وانطلقا إلى قمة الجبل. تركا المدينة وتسلقا على طول طريق إسفلتي ناعم في تعريشات أسيجة المنازل الريفية على طول الطريق وعلى بوابة مدرسة أزهرت ورود المغنوليا ذات الوريقات العريضة. القرية على القمة تشبه كل قرى المصحات في اليابان. تصطف على جانبي شارعها دكاكين تبيع دمى الكوكيشي الخشبية[1] وصناديق الكيك وقاعات الباتشينكو وصالات التصويب وما أشبه، وخلف كل هذا عدد من الفنادق والنزل.

قررت توموي وهي ترى أنهما وصلا إلى هنا أن تنتقي هدايا للعائلة. اشترت إبريق نانبو معدنياً لأمها ودمية لها شكل فلاحة من ياماجاتا لماتشان.

عندما سأل تاكاموري الفتاة التي تدير المحل إن كانت قد رأت أجنبياً له أوصاف غاستون أجابت وقد احمر وجهها بعمق:

ـ لا أدري إن كان الأجنبي الذي جاء إلى الحمام العمومي.

(1) وهي دمى خشبية بدون أطراف. م.

كان «الحمام العمومي» حماماً يقصده الناس في القرية بغض النظر عن جنسهم ليستحموا في أي وقت من النهار مقابل ينين فقط. لم يجد تاكاموري صعوبة في تخيل غاستون وهو يدخل واحداً منها.

ـ أين تظنين أنه كان مقيماً؟

ـ سمعت أنه في فندق هوشيوكا.

القرية صغيرة إلى الحد الذي يجعل أجنبياً مثل غاستون محط أنظار الناس وموضوعاً للقيل والقال فيها. ولكن الأخ وأخته خاب أملهما عندما زارا فندق هوشيوكا. صحيح أن الأجنبي قد أقام هناك لكنه كان مدرساً في جامعة في سنداي.

أكتمل حلول المساء عندما عادا إلى ياماجاتا وقد هدهما التعب من البحث العقيم. كان مالك النزل ذو الكرش المكور يقف على المدخل حين اقتربا. عرف نتائج بحثهما حتى قبل أن يبدأ تاكاموري بتقديم أي توضيح.

ـ اعتقد إنكما لم تجداه. لقد سمعت للتو أن أجنبياً ضخماً قد أقام في نزل في كوشو ـ ماتشي الليلة الماضية.

***

بدأوا يقطعون الياردات المئة الأخيرة. ترك كوباياشي الطريق وبدأ يواصل الصعود باتجاه البركة السبخة. خلفه حرث أندو ثم غاستون طريقهما خلال العشب الرطب. سيقان بنطلونيهما رطبة ملطخة بالطين. لاحت خلف ضفاف العشب أرض فسيحة سوداء محمرة تلعقها أمواج البركة السوداء. قال كوباياشي بصوت خافت وهو يرصد بمكر الانطباع على وجه أندو:

ـ هذا هو المكان. انظر إلى هناك... تلك الشجرة التي تخرج من الماء. إنها موجودة أسفلها.

أشار كوباياشي إلى شجرة ميتة تبرز من الماء المغطى بالضباب. ربما هي بقية من زمن كان فيه المكان غابة كربتوميريا قبل أن يتشكل المستنقع. الآن تجردت الشجرة من لحائها وانتصبت فوق الماء بجذع مبيض يبدو كأنه ضلع إنسان. قال أندو وهو يلتفت إلى كوباياشي الذي وقف خلفه على مسافة قريبة:

ـ سأقف للحراسة هنا. اذهب إلى هناك وهاتها.

سأل كوباياشي كالمندهش:

ـ هل تطلب مني أن آتي بها؟ رجل عجوز مثلي؟ إن قلبي ضعيف لا أستطيع أن أدخل الماء البارد بهذا الشكل.

ـ سيحل بك ما هو أسوأ من القلب الضعيف إن لم تفعل ما أقول.

وضع أندو يده وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة متشنجة في جيبه. عندما أخرجها مرة أخرى كان يمسك بها سلاحه الأسود.

ـ فهمت.

أطرف كوباياشي عينيه الفأريتين وتطلع إلى القاتل متوسلاً:

ـ سامحني. أندو سان، أنا أعاني من قلب ضعيف بالفعل.

كان غاستون في هذه الأثناء يجلس على الأرض دون أن يبعد عينيه عن الرجلين ويحل شريط حذائه القديم. سأل أندو بريبة:

ـ ما الذي أنت فاعل غاس؟

ـ كوباياشي سان رجل عجوز. أنا سأذهب إلى الماء.

وضح غاستون مبتسماً وهو يضع قدميه الكبيرتين في المستنقع.

ـ أوو، إن الماء بارد كالثلج...أندو سان، ما الذي نبحث عنه؟

ـ يوجد عند أسفل تلك الشجرة صندوق.

قال كوباياشي وقد داخله الارتياح وأضاف:

ـ اربط هذا الحبل به واسحبه إلى هنا.

بدأت الريح تشتد وزاد الضباب كثافة. حتى جذع الشجرة الذاوية تحجّب الآن بالضباب.

توغل غاستون أعمق في ماء المستنقع فغاص أولاً إلى ركبتيه ثم إلى وركيه. رأى الرجلان على الساحل شكل جسده وهو يختفي في الضباب.

عندها فقط التقطت عينا كوباياشي الصغيرتان كعيون القوارض المجرفة التي تركها غاستون على الضّفة. كان أندو الممسك بمسدسه يلتفت باتجاه غاستون وهو يشق طريقه في الماء لذلك غفلت عيناه لبعض الوقت عن عدوه.

بالرغم من جسده الضخم لم يكن غاستون يعرف السباحة. ولأنه وُلد ونشأ في بلد جبلي فإن الماء الوحيد الذي عرفه هو ماء التيارات الجبلية التي لم يكن عمقها يسمح إلا بالتخويض. لذلك لم تتوفر له فرصة تعلم السباحة.

فضلاً عن ذلك فانه لم يلاحظ الطبيعة الخاصة لهذا المستنقع. لم ينتبه إلا عندما وصل الماء إلى خصره أن الأرضية تحت قدميه كانت رخوة وأنها تمتص ساقيه. لكنّ الوقت تأخر. عندما رفع ساقاً من الطين لم يكن للساق الأخرى إلا أن تغوص أعمق فيه. صاح مصعوقاً:

ـ قدماي! أندو سان، قدماي!

لكن الضباب قطع كل إمكانية لرؤية أندو على الساحل. لم يكن بوسع غاستون حتى أن يخمن الاتجاه الذي يقف فيه. عندما توقف عن الكفاح وظل ساكناً بدا كأنه يغوص أعمق في الطين. وكلما كافح أكثر ازدادت صعوبة أن يحرر نفسه مما هو فيه.

سمع أندو صيحة غاستون. لسوء الحظ لم يكن بوسعه رؤية جسد غاستون

الضخم الأخرق من المكان الذي يقف فيه. وضع اليد التي تمسك بالكولت على فمه وبدأ يناديه. حينها فقط، ومن زاوية عينه، رأى كوباياشي يلتقط المجرفة المرمية على الضفة بحركة خاطفة.

انصرف انتباه أندو للحظة فقط إلى غاستون لكنها كانت كافية لتنزع عنه كل تحوط. استغل كوباياشي هذا وهاجم أندو بكل قوة بالمجرفة. وبالرغم من كبر سنه أبدى تلك القوة التي يولدها اليأس.

انزلق أندو وهو يحاول تجنب هجمته على الأرض الرطبة فسقط وهو لا يزال يمسك بمسدسه. وجه كوباياشي ضربات متتالية إلى اليد التي تحمل المسدس حتى سقط من يد القاتل المغطاة بالدم الآن، لكن ذلك لم يحدث قبل أن تنطلق من المسدس إطلاقة باهتة تردد صداها في المستنقع.

ـ لتمت أيها الوغد! لتمت! لتمت!

صاح كوباياشي وهو ينهال على أندو بضربة إثر أخرى. حاول الأخير وهو يسعى إلى تجنب الضربات الوقوف على قدميه لكنه لم يجد تحته أرضاً صلبة. شعر بألم حارق في كتفه الأيسر ورأى وجه كوباياشي المحتقن يملأ عينيه. أمسك بساقي كوباياشي ولم يبد استعداداً لإطلاقهما حتى عندما تلقى ضربة بالمجرفة وضربات أخرى على وركيه وذراعيه.

عندما تمكن أندو أخيراً من الوقوف على قدميه كانت بدلته قد تمزقت إرباً إرباً كما لو أنها قُطعت منه بسكين حاد. من شقوقها تدفق دمٌ احمر قانٍ ولطخ ذراعيه وصدره.

تنفس الغريمان بصعوبة. وقفا لبرهة يحدق أحدهما في الآخر مكتفيين بمحاولة التقاط أنفاسهما. وقف أندو وقد صار عاجزاً عن استخدام كتفه الأيسر مولياً المستنقع ظهره. بدأ يتراجع إلى الخلف خطوة خطوة بينما

كوباياشي يتقدم نحوه حاملاً المجرفة بيده يتنفس بصعوبة شديدة حتى أن كتفيه تحركتا إلى أعلى وأسفل.

ـ أندو سان!

نادى غاستون بأعلى صوته عندما سمع انطلاق الرصاصة. بقيت ساقاه مغروستين في طين المستنقع.

تواصل هبوب الريح على سطح الماء. في تلك اللحظة فتحت هبّة ريح جيباً في الضباب وكشفت ما يكفي من الساحل ليسمح لغاستون بالتقاط مشهد كوباياشي وهو يتقدم نحو أندو وبيده المجرفة بينما الأخير يقف في المستنقع.

لدى رؤيته هذا المنظر اندفع غاستون مترنحاً بحركة غريزية نحو الأمام في محاولة للعدو نحو الساحل حيث يدور صراع حياة أو موت. لكن ساقيه اللتين امسك بهما المستنقع لم يستجيبا لإرادته. حين فقد توازنه سقط في الماء بصوت غطس ثقيل يشبه ما يمكن أن يصدر عن سقوط عمود تلغراف.

لم يكن الماء في المستنقع عميقاً جداً، لكن غاستون الذي لا يجيد السباحة ابتلع قدراً كبيراً من الماء الطيني. عندما رفع رأسه خارج الماء مرة أخرى بدا وجهه أشبه بوجه سمكة ذهبية جاحظة العينين يطفو على السطح بحثاً عن الهواء.

بدأ يحرك ذراعيه وساقيه بيأس مثل كلب مهجن قُذف به في بركة. تحرك ببطء وصعوبة وعندما رفع رأسه وحاول أن ينادي أندو فقد توازنه مرة أخرى وغاص في الماء من جديد.

في هذه الأثناء كان أندو وكوباياشي على الساحل بأكتاف ترتفع وتهبط يحدق أحدهما في الآخر. حين بدرت من أندو حركة سريعة لاستعادة

المسدس الذي سقط على الأرض اندفع كوباياشي إلى الأمام بالمجرفة وقد رفعها فوق رأسه ليمنع أندو من الوصول إليه.

صوب كوباياشي ضربةً إثر أخرى إلى عدوه. تمكن أندو من تفادي الضربات وكانت المجرفة تعض الأرض كل مرة بصوت رنان. ظلّ كوباياشي يُنزل المجرفة إلى أسفل بأقصى قوته لكي تصبح حافة مديتها أشبه بأداة حادة.

كان أندو يتحرك نحو الماء خطوة خطوة، ينزف الدم من ركبتيه حيث تمزق بنطلونه فيمتزج بالماء وكأنه حبر اسود ينز في سائل صاف.

خطة أندو واضحة. الأرض على الضفة صلبة، لذلك لم يكن كوباياشي يواجه مشكلة في رفع مجرفته بعد كل ضربة. لكن ضغط الماء في المستنقع يمكن أن يعرقل مساعيه. عندها سيضطر الاثنان إلى العراك بالأيدي.

ولكن تمادي أندو بعيداً في الماء يمكن أن يزيد من صعوبة تفاديه ضربات كوباياشي. لذلك توقف على مبعدة ياردتين من الضفة. تحرك كوباياشي وهو يحدق به بعيون نفرت فيهما عروق حمر على طول الضفة باتجاه اليمين. كانت ترتسم على وجهه ابتسامه ماكرة. لم تذهب خدمته العسكرية هباء. لقد تكهن بسرعة بخطة العدو.

ـ لتمت أيها الوغد! لتمت!

بدأ كوباياشي وهو يلوح بالمجرفة حول رأسه دون هدف معين بالاقتراب تدريجياً من المكان الذي سقط فيه المسدس. كان أندو قد قرر أن كوباياشي يجب أن لا يصل إلى المسدس، لذلك حرص على أن يتفادى ضربات شفرة المجرفة المنهالة عليه ويلتقط الفرصة ليندفع نحوه.

تمكن غاستون في هذه الأثناء من السباحة، إن أمكن أن تسمى تلك الحركة الزاحفة الغريبة سباحة، حتى وصل إلى الساحل. وقف في موقع بين الرجلين ومد ذراعيه الطويلتين وهو يصيح بصوتٍ عال ملء شدقيه:

ـ لا! لا! لا! يجب أن لا تفعلا ذلك!

نزلت مجرفة كوباياشي ثقيلة على رأسه. كان على خلاف أندو يفتقر إلى اليقظة التي تسمح له بتفاديها. الغريب أنه لم يسقط تحت ثقل الضربة بل وقف مجرد وقوف مباعداً بين قدميه مثل تمثال ضخم بينما تدلت ذراعاه على جانبيه. أغمض عينيه وكأنه بذلك يستطيع أن يتحمل الألم على نحو أفضل. كان كل من كوباياشي وأندو قد تجمدا لهنيهة مركزين أنظارهما على غاستون

نزّ من الجرح في رأس غاستون سائل أحمر وسال ببطء أسفل جانب وجهه لكنه لم يتحرك، بل هو حتى لم يمسح الدم. دفع منظر الدم كوباياشي إلى ثورة غضب جديدة. رفع المجرفة وانهال بها مرة أخرى بكل قوته على العملاق الساكن.

بدأ غاستون يترنح هذه المرة. تفاقم غضب كوباياشي فنزل عليه بضربةٍ أخرى ثم أخرى. لسبب لا يفهمه وجد في هذا الرجل الذي يقف أمامه شيئاً عجيباً وغريباً لا يطاق. سقط غاستون تحت زخم الضربات منبطحاً في المستنقع مثل قطعة خشب ثقيلة وغاص في الماء.

في هذه الأثناء استعاد أندو وعيه. انطلق عدواً إلى الضفة كالأرنب الهارب واستعاد بسرعة مسدس الكولت الذي كان مرمياً على الأرض الرطبة. كان يمسك المسدس بقوة عندما خفض كوباياشي مجرفته بعد الضربة الأخيرة وهو يتنفس بصعوبة.

ـ كوباياشي!

صاح أندو وهو يوجّه الماسورة السوداء نحو عدوه:

ـ الآن سأثأر لموت أخي. ارم المجرفة جانباً... ادخل الماء... أو انتظر،

ربما كان من الأفضل أن أجعلك تحفر قبرك بنفسك أولاً. أنا واثق أنك لا تريد أن يرى احدٌ جثتك القبيحة.

سقطت المجرفة من يد كوباياشي. صارت عيناه الفأريتان كبيرتين مثل صحنين وشوّهت وجهه نظرة قلق وخوف. دفع يديه كلتيهما أمامه وصدرت عنه صرخة عالية مثل أنّة حيوان أبت أن تتشكل في كلمات.

ـ لا.



ـ ماذا قلت؟

ـ لا. لا. لا.

لم يكن ذلك الصوت صادراً عن كوباياشي. كان غاستون قد رفع يده من الماء. بدا والدم يسربله أكثر من أي وقت مضى وكأن له رأس وحيد القرن. صرخ مرة أخرى:

ـ لا، لا، أندو سان.

هز رأسه بعنف وصدرت عنه بكل ما تبقى لديه من قوة إيماءة تضرع من أجل الرحمة.

ـ أنا... أرجوك.

بعدها غاص رأس وحيد القرن مرة أخرى في الماء.

اندفع الضباب الحليبي مرة أخرى وبدأ يحتوي كلاً من غاستون في الماء وأندو وكابوياشي على الساحل.

دون خجل أو اهتمام بالمظاهر سقط كوباياشي على ركبتيه راكعاً أمام أندو الذي وقف وهو يحمل المسدس يستجمع بقايا قوته لإنجاز العمل الأخير الذي يجب عليه القيام به.

الحقيقة أن جسد كوباياشي انعكس مُضبّباً في عينيه. ليس كوباياشي وحده بل الضفة المغطاة بالضباب والحقل والشجرة الميتة أيضاً. كأنه يرى المشهد عبر عدسات سيئة التركيز. أدرك وهو يصل نقطة فقدان الوعي أن كل ما عليه أن يفعل هو أن يسحب الزناد. لكنه لا يتحرك، كما لو أنه لُصق في موضعه الحالي لصقاً.

أمره صوت بعيد من مكان ما في رأسه:

ـ اسحب! كل ما عليك أن تفعل هو أن تسحب! اسحب! الآن! اسحب فقط!

تعلق وجه كوباياشي المشوه وعيناه المغمضتان به. بذل جهداً أخيراً ليركز قوته المتبقية في تحريك إصبع الزناد.

ـ لا. لا. لا.

تناهى إليه صوت غاستون مرة أخرى من الماء وقد أصبح واهناً الآن.

ـ أرجوك.

توهم أندو أنه سبق أن سمع هذا الصوت في ماض سحيق. إنه يشبه صوت أخته التي أحرقت مع والديه حتى الموت في حدائق المعبد يوم الغارة الجوية الكبيرة على طوكيو.

ـ اسحب! اسحب!

ـ لا، لا، لا. أرجوك.

بدأ الصوتان يندمجان في رأسه. فقد الوعي وسقط في الماء إلى جوار غاستون. فتح كوباياشي عينيه لدى سماعه صوت السقوط. كانت تلك ضربة حظ غير متوقعة. التقط المجرفة ورفعها فوق رأسه. سار نحو الماء وفي نيته أن يقطع رأس أندو كما تقطع ثمرة الرقي. يجب ألا يتردد في قتله. لقد هاجمه

الرجل بمسدس في نهاية المطاف. لن يجد صعوبة في إثبات انه فعل ذلك دفاعاً عن النفس.

ولكن، في اللحظة التي كان يستعد بها للنزول بمجرفته، انبثق رأس غاستون المدمى مرة أخرى من الماء:

ـ قف!

كان الصوت عالياً بما يكفي ليعبر المستنقع. وهذا الرجل الشبيه بوحش غريب يمد يديه الضخمتين فوق جسد صديقه المنهار محاولاً حمايته.

حدق كوباياشي وهو يرفع مجرفته في غاستون بدهشة. رعشات الخوف هذه المرة تصعد وتنزل في كل كيانه. رمى المجرفة وانطلق بخفة فأر باتجاه الطريق.

بعدها سكن كل شيء. جلل المستنقع الصمت كما لو أنه نسي بالفعل المعركة اليائسة التي وقعت فيه. تشتت الضباب بفعل هبة ريح ثم تجمع بفعل هبة أخرى. لم يعل إلا صوت أغصان الأشجار وهي تحاول أن تنفض عنها قطرات المطر.

الفصل الثالث عشر

مالك الحزين

بحسب صاحب النزل في أراكي ماتايمون فإن رجلاً رأى أجنبياً مع ياباني يدخلان فندقاً رخيصاً في كوشو ـ ماتشي في المساء السابق

ـ الشخص الذي رآهما يعمل في محل ساكي في الجوار. وهو يقول إن الياباني شديد الشحوب، يبدو أنه مريض. الأجنبي كما وصفته تماماً. طويل، له بنية مصارع سومو ووجه طويل مسطح.

ـ لا بد أنه غاستون.

ـ لمَ لا تذهبان وتلقيان نظرة؟

لم تكن كوشو ـ ماتشي بعيدة عن النزل الذي يقيمان فيه. تبعد مسيرة أقل من عشر دقائق. اتبع تاكاموري وتوموي تعليمات صاحب النُزل وانعطفا إلى اليمين في ماتشي اليوم السابع. انطلق تاكاموري مليئاً بالتوقع المرح لاحتمال رؤية غاستون مرة أخرى.

ـ لا تمش بسرعة هكذا!

ـ لا أستطيع أن أضبط نفسي. لا يمكن لقدمي السير أبطأ من هذا.

حرك حماس تاكاموري في أخته طبعها المناكد. تعمدت بين وقت وآخر أن تتوقف لتشير إلى بعض معالم ياماجاتا:

ـ تاكاموري، هل رأيت قط كل هذا العدد من المعابد؟ هذه بالفعل مدينة معابد. أليست كذلك؟

هنالك بين البيوت المبنية على وفق قصور الساموراي القديمة كثيرٌ من المجمعات التي تحتوي المعابد الهادئة.

ـ أود لو عشت هنا. ربما عليّ أن أجد لنفسي زوجاً في ياماجاتا.

ـ يمكن أن نناقش هذا بعد أن نرى غاس.

ـ ولم العجلة؟ إنه لن يختفي.

ولكن عندما وصلا النزل الذي يُفترض أن غاستون يقيم فيه ثبت خطأ ما قالته تومو.

ـ لقد غادر هذا الصباح.

كاتب النزل، وهو رجل كثرت الأسنان الذهبية في فمه حتى بدا وجهه أشبه بقناع النمر الذي كان يستخدم في الرقصات المحلية أثناء المهرجانات، تفحص تومو بتمعن من رأسها إلى قدميها وأردف قائلاً:

ـ لقد استيقظ قبل انجلاء الظلام. دعوني أتذكر، كم كان الوقت؟

لم يعرف الكاتب أين اتجه غاستون. لقد دفع فاتورته ولا يوجد ما يمكن أن يدفعه إلى العودة إلى النُزل لأنه لا يملك متاعاً هنا.

مع اقتراب الغسق، ضربت خيوط الشمس الأخيرة سقوف البيوت في كوشو. ماتشي. فتاة تضع أخاها على ظهرها وتربطه بحزام تستند إلى حائط المعبد وتغني له بلين ولطف. في أغنيتها شيءٌ بعث الحزن في نفس تاكاموري، أو أكثر من الحزن، جعله يتساءل عن الناس. أي كائن غريب هو الإنسان عموماً؟

ـ بعد أن قطعنا كل هذا الطريق إلى ياماجاتا...

هنالك إحباط ولمسة من كآبة في صوت تومويي.

ـ لدي هاجس أنه تعرض لمكروه.

ـ لا تكن سخيفاً.

في تلك اللحظة اقترب شخص على دراجة هوائية من خلفهما ونادى عليهما. عندما التفتا شاهدا أنه صاحب نزلهما. نزل الرجل البدين من دراجته الهوائية وقد انقطعت أنفاسه:

ـ حدث أمر فظيع! وجدوا أندو للتو في المستنقع الكبير. وقد اتصلت الشرطة لتبلغكما ذلك.

* * *

اليوم ولأول مرة منذ وصلا إلى ياماجاتا بدت السماء زرقاء تامة الصفاء. اجتاز قطار عودتهما إلى البيت سهلاً من حقول الرز بدا أشبه ببحيرة من ماء أخضر مزرقّ. يطلق القطار بين حين وآخر صافرته العالية وهو يستجمع سرعته تدريجياً. كانت نفحة منعشة من الهواء تهب إلى الداخل عبر النافذة. الأولاد والبنات في الحقول التي مرّا بها لوّحوا بأيديهم للقطار.

تطلع تاكاموري وتومويي الجالسان قرب النافذة مستندين إلى حافتها إلى أعلى نحو السحب المتناثرة صافية البياض طافية فوق قمم الجبال. القمة الوسطى التي ترتفع فوق كل ما عداها تدعى جبل شيراتاكا أو جبل النسر الأبيض. تحتها مباشرة يقع المستنقع الكبير. لم يتمكن الأخ وأخته تحويل أعينهما عن هذا الجبل الذي توهج الآن ببهاء ذهبي. كانت تراود كليهما الفكرة نفسها.

حملت الأيام الثلاثة التي أعقبت اكتشاف أندو بالنشاط. في ذلك المساء

عينه أخذهما صاحب النزل الذي يقيمان فيه إلى مركز شرطة ياماجاتا الواقع مباشرةً خلف بناية الحكومة المحلية في ياماجاتا، وهناك شرح لهما المسؤول أنهم عثروا في حوالى الساعة العاشرة من ذلك الصباح على شاب منطرح في ماء المستنقع الضحل ممسكاً بمسدس. أول من اكتشفه الرجل العجوز المقيم في دار الاستراحة المجاور وقد خرج إلى المستنقع ليصطاد السمك. عندما اقترب من الماء شاهد على مبعدة متني ياردة عن الضفة جسماً طويلاً غامقاً بنياً تلعقه الأمواج الخفيفة في البركة. عندها وصلت الشرطة والمخبرون مباشرةً من ياماجاتا للتحقيق في الأمر. بعد أربع ساعات، توصلوا من الرسائل والمفكرة الصغيرة التي وجدوها في جيبه أنه أندو عصابة هوشينو في طوكيو. وقد نقل الرجل مباشرة إلى مستشفى في ياماجاتا.

حمل المستنقع آثار صراع مستميت. وكان أندو محظوظاً لأنه بقي على قيد الحياة بالرغم من إصاباته البليغة. وضح المخبر الجالس إلى الطاولة وهو يمسح العرق من رقبته:

ـ كان يوجد بحسب الرجل الذي وجده رجلاً بمعطف مطري توقف عنده في ذلك الصباح وابتاع ثلاث قناني من المشروبات الغازية. ونحن نحقق في ذلك الآن.

سأل تاكاموري عن غاستون فأجاب المخبر:

ـ أجنبي تقول؟ حتى الآن لم نسمع شيئاً عن أجنبي متورط في هذه القضية.

كان غريباً أن يكون أندو الشخص الوحيد الذي وجد في المستنقع. قدّم تاكاموري كل شيء يعرفه عن القضية. وخربش المخبر ملاحظات في دفتره الصغير.

ـ تقول إذن أن أندو وصديقك الأجنبي غادرا النزل معاً هذا الصباح؟

ـ نعم.

لم يكن تاكاموري معتاداً على هذا النوع من الاستجواب، وداخله الخوف وهو يجيب عن أسئلة المخبر كما لو أنه هو من تقع عليه الشبهة.

ـ ولكن من غير الممكن أن يكون الأجنبي قد حاول قتل أندو. أراهن بحياتي على ذلك.

ـ على أية حال سنعرف ما حدث عندما يستعيد أندو وعيه. إنه واجب الشرطة أن تحقق في كل دليل ممكن.

ثم أردف:

ـ أنا آسف ولكني مضطر أن اطلب منكما البقاء في ياماجاتا ليومين أو ثلاثة أيام.

في اليوم التالي قام مجموعة من الرجال في الزوارق بجرف البِركة بعناية كبيرة لكنهم لم يجدوا شيئاً، لا جسد غاستون ولا أي شيء يعود إلى الرجال الثلاثة

ـ أفترض أنه هرب مع الرجل الذي اشترى المشروبات الغازية.

ـ لا يمكن!

أجاب تاكاموري. كان قد زار مركز الشرطة للمرة الثانية في اليوم التالي.

ـ غاس، ذلك الأجنبي، غير متورط في الجريمة بالطبع. قد يكون أجبر على الذهاب معهما.

في اليوم الثالث عندما روى أندو الراقد في المستشفى في حالة من الوهن الشديد قصته للمخبرين لم تزد حكايته الحالة إلا غموضاً. اعترف أندو أنه قاد كلاً من كوباياشي وغاستون إلى المستنقع الكبير دون أن يوضح للأجنبي الغاية من الرحلة. وأخبرهم كيف أن غاستون تلقى ضربات كوباياشي بنفسه لكي ينقذه، وكيف أنه انهار في المستنقع الضحل أخيراً بعدما تعرض لإصابات بليغة.

ـ ماذا حدث له بعد ذلك؟

هز أندو رأسه الملفوف بالضمادات بقوة لابد أنها لشدتها قد سببت له بعض الألم. بعدها تذكر أنه بعد بعض الوقت من فقدان الوعي شعر بالضباب الرطب ينزل على خديه وفتح عينيه قليلاً. كانت إحدى زوايا السماء الزرقاء خالية من السحب فرأى مالكاً الحزين، طائراً أبيض وحيداً يخفق بأجنحة بيض كالثلج متجهاً إلى هناك. لكنه رأى ذلك بشكل مضّبب فقط. هذا كل ما يتذكر، وحتى هذا لم يكن واثقاً منه كل الثقة.

ظنّ أنه رأى السماء الزرقاء بالفعل ومالكاً الحزين أبيض الجناحين لكنه اعترف أن ذلك نفسه يمكن أن يكون وهماً أو حلماً. بعد ذلك فقد وعيه مرة أخرى، وبقي هناك حتى أكتُشف ورأسه مغمور إلى النصف في الماء.

أين اختفى غاستون؟

لا علامة على أنه مات في المستنقع. الأثر الوحيد الذي تركه هناك سترته القديمة التي التقطها أحدهم من جزء المستنقع الضحل بعد يوم أو حوالى اليوم فيما بعد. أكد أندو حقيقة أن السترة تعود بالفعل لغاستون.

هكذا انتهى الأمر. بدا المخبرون عازفين عن طرح المزيد من الأسئلة على أندو الذي كان لا يزال في حالة حرجة.

هل جرّ غاستون نفسه خارج المستنقع قاصداً الحصول على مساعدة لأندو ثم تاه في الطرق الجبلية؟ هل حاول أن يتبع كوباياشي؟ ظلت تلك أحجية بالنسبة للشرطة كما هي بالنسبة لتاكاموري وتوموي. لم ير أحد، على طول المسالك الممكنة التي يمكن أن يتخذها، أجنبياً له صفاته.

هبت نفحة هواء ذهبية عبر نافذة القطار. وبينما تاكاموري يحدق في قمم الجبل المتوجة بغيوم متلاطمة كالأمواج داهمه فجأة وهم أنه رأى غاستون

يصعد الجبال ببطء، هناك تحت أعلى القمم تماماً. كان يلوح بقبعته له وقد ارتسمت على وجهه الحصاني ابتسامة، الابتسامة نفسها التي أصبحا معتادين عليها، ابتسامة هيّابة بلهاء.

ـ تاكاموري سان، أنا ذاهب.

ـ إلى أين أنت ذاهب غاس؟

ـ أي مكان، كل مكان...حيثما وجد الناس.

تحطمت تلك الرؤيا بصوت توموي. كانت هي أيضاً تجلس وقد استقر خدها على راحة يدها، تتطلع إلى الجبال. لكن مخيلتها اتخذت منعطفاً عملياً أكثر من أخيها.

ـ تاكاموري، ربما عاد غاستون إلى طوكيو. قد نجده في بيتنا عندما نصل إلى هناك.

ابتسم تاكاموري بحزن. هل يمكن لها أن تفهم غاستون؟

ـ أوو، انظر إلى مالك الحزين!

كان مالك الحزين يحلق وحيداً عبر حقول الرز صاعداً برشاقة إلى السماء الزرقاء. همس تاكاموري للطائر:

ـ غاس سان، وداعاً.

***

خلال أكثر من شهر بعد عودة تاكاموري وتوموي إلى طوكيو لم تصل أية أخبار عن غاستون. في يوم من منتصف الصيف، زار تاكاموري في عمله رجل شرطة من مركز شرطة مارونوتشي. بدا على فتاة مكتب الاستقبال قلق وهي تعلن وصول الزائر إليه.

ـ هيجاكي سان، آمل ألا تكون في ورطة.

ـ أرجوكِ لا تشهدي ضدي.

أجاب تاكاموري مازحاً. لقد حدس مباشرة أن الأمر يتعلق بغاستون. بالرغم من ذلك داخله خوف حين فتح الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال.

وجد في انتظاره المخبر الذي استقبله مع تومويي عندما ذهبا إلى مركز شرطة مارانوتشي لاصطحاب غاستون جالساً على أريكة يمد ساقيه أمامه.

ـ أهلاً وسهلاً. سعيدٌ بلقائك مرة أخرى.

ـ آسف لأني أزعجك في عملك.

كان المخبر يرتدي بنطلوناً اسود وقميصاً ابيض قصير الأكمام.

ـ لقد جئت لأراك بصدد ذلك الأجنبي. ما زلنا نعجز عن العثور على دليل يقودنا إلى مكانه. كوباياشي وأندو قيد الاعتقال، لذلك ليس لنا معه أي شأن. لكنه اختفى من على وجه الأرض.

ـ هل الأمر كذلك؟

ـ هنالك تقرير من المكتب الحكومي في ميازاكي في كيوشو يفيد أن أجنبياً له أوصافه قد شوهد هناك. ونحن نتحقق من ذلك. لكنه شخص آخر كما يبدو.

حدق تاكاموري في الأرض وقد خاب أمله. التقط المخبر كوب الشاي الذي جاءت به موظفة الاستقبال وبدأ يحتسيه محدثاً صوتاً عالياً.

ـ لقد كتبنا تقريراً بالأمر إلى السفارة الفرنسية... لا أدرى إن كنت تحمل أية فكرة عن مكانه؟

ـ لقد ترك غاستون متاعه معنا... ويعني ذلك حقيبة دوفيل قديمة. ربما...

اتفقا أن يزور المخبر بيته في المساء التالي ويلقى نظرة على حقيبة الدوفيل.

في مساء اليوم التالي بدأ المخبر عريض المنكبين بحضور تاكاموري وتوموي يحل أحزمة حقيبة غاستون بحركة خرقاء من يدين بدتا أقرب إلى الكاراتيه منهما إلى هذا العمل.

سحب من الحقيبة قمصاناً مرقعة، ملابس داخلية، موسى صدئة، سترة، مناشف، ثم كتاب أغانٍ ممزق الغلاف، وأخيراً مفكرة قديمة.

ـ أنها مكتوبة بلغة أجنبية.

تساءل المخبر وقد وهن عزمه وأضاف:

ـ هل تستطيع أن تقرأها؟

لم يكن في المفكرة بأكملها إلا سطران فقط مكتوبان باللغة الفرنسية. لا صلة لتاكاموري باللغات الأجنبية، لكن توموي العملية دائماً أخرجت قاموسها الفرنسي وجلست لتحل رموز السطرين.

كانا مكتوبين بخط يد غاستون الرديء مثل ديدان تدبّ على الصفحة.

عندما انتهت من ترجمة السطرين قرأتهما بصوت عالٍ لأخيها وللمخبر: «لقد فشلت ثلاث مرات في اجتياز امتحان القبول في معهد الإرسالية. لذلك لم أتمكن من أن أصبح قساً مبشراً. لكني يجب أن اذهب إلى اليابان.»

تبادل الأخ وأخته النظر دون أن ينبسا بكلمة.

* * *

كانت توموي مستغرقة في طباعتها. وجهها الطريف ذو الأنف العالي قليلاً كأنف قطة يتحرك من اليسار إلى اليمين وهو يتابع الكلمات التي تطبعها.

ظلت المخطوطات تنهال عليها واحدة إثر أخرى لتطبعها فتنتهي منها واحدة إثر أخرى وتعيدها مطبوعة إلى مكتب السيد ديسانتو. حرصت بعد كل نصف ساعة من الطباعة على القطرات في عينيها وبعض المساج لأصابعها.

عندما اقتربت الظهيرة استرقت نظرة إلى ساعتها وأخرجت راديو ترانزستر من مجر المكتب. وضعت السماعة في إذنيها وحركت إبرة الراديو لتلتقط تقرير الظهيرة الخاص بالأسهم. واصل عقلها بينما هي تصغي تسجيل الملاحظات عن الأسهم التي ستشتريها مستقبلاً.

ـ تومري، لا أدري إن كنت مرتبطة بموعد يوم السبت القادم.

سأل أوساكو بصوت خفيض متظاهراً أنه يأتي إليها بمزيد من الوثائق لتطبعها.

ـ لدي بطاقتان لحفلة موسيقية في صالة هيبيا.

ـ أوو، هذا رائع! هل ستأخذني.

سألت باسمة فهز أوساكو رأسه مؤكداً. من الواضح أن قبولها أسعده، ذلك أنه انحنى لها انحناءة خفيضة.

بقيت تومري واثقة أنها لا يمكن أن تقع في حب رجل مثل أوساكو، أما احتمال أن تتزوج بمن هو مثله فأمر أبعد. هو منجذب إليها، لكنها لا يمكن أبداً أن تقبله أو تقبل من أي شخص آخر في الوقت الحاضر ما يتجاوز حميمية الصداقة الطيبة. إذا كان راغباً في اصطحابها لمشاهدة فيلم أو حفلة موسيقية فسيكون من الحماقة أن ترفض ما دامت غير مرتبطة بموعد في ذلك المساء، هكذا فكرت.

ـ هل سمعت أي شيء جديد عن ذلك الرجل الفرنسي؟

سأل أوساكو الذي لم يغادر وقد هزه قبولها دعوته إلى الحفلة الموسيقية بل حاول أن يطيل الحوار.

ـ إن كنت تقصد غاستون، لا... لم نسمع شيئاً. لكن هذا وقت عمل. من الأفضل أن نتكلم فيما بعد.

ـ حسناً.

ـ قد يرانا السيد ديسانتو.

عندما غادر أوساكو، حاولت توموي أن تعوّد أصابعها على مفاتيح الطباعة قبل أن تستأنف عملها فنقرت على الصفحة هذه الكلمات: «غاستون بونابرت».

فكرت «أبله رائع.» ولكن أين اختفى هذا الأبله الرائع؟ لطالما فكرت بوجهه الحصاني الطويل وضحكته الطيبة وصوته الناعس وهو يحاول أن يجيب عن أسئلتها بينما فمه محشو بالمعكرونة. لكن تلك الذكريات كانت تزداد ضعفاً وتبهت بمرور الأيام.

فكرت أيضاً في اليوم الذي سيظهر فيه رجلُ أحلامها. لن يكون فقيراً بسيطاً ضعيفاً مثل غاستون، إنما شابٌ قويٌ حسن البنية يخطفها ويطير بها.

* * *

جلس تاكاموري في مكانه المفضل بار أوتافوكو وقد اصطفت أمامه زجاجات البيرة. ساح مع أحلامه لبضع دقائق ثم خربش شيئاً ما في مفكرته الصغيرة.

ـ ما الذي تفعل هيجاكي؟

سأل صديقه إيجيما الجالس إلى جواره وحاول أن يرى ما كتب.

ـ كفّ عن التلصص.

أمره تاكاموري وقد احمرّ وجهه وهو يعيد المفكرة إلى جيبه. لم يكن من عادته الارتباك بهذا الشكل. قالت النادلة ساخرة وهي تقدم له صحناً يتكوم عليه الأو ـ دن:

ـ أعتقد أنك تحاول حساب ما أنت مدين به لنا، هيجاكي سان.

ارتسمت على وجه تاكاموري ابتسامة عابسة ونظر عبر النافذة المشروخة إلى سماء الليل. قد يكون الغد صحواً أيضاً. هنالك مجموعة من النجوم تتوهج فوق السقوف الضيقة للبارات المصطفة على طول الشارع.

فجأة تذكر الليلة التي وقف فيها مع غاستون قرب نافذة الطابق الثاني يحدقان في النجوم.

لقد اختفى غاستون، غمغم تاكاموري في قلبه، لكن هذا ما يجب أن يحدث. إنه ذلك النوع من الرجال الذي يجب أن يختفي... لقد جاء مثل بطلة حكاية قاطع الخيزران من السماء وعاد إليها. كان ذلك أكثر من خيال بالنسبة لتاكاموري. إنه التعبير بشكل أو بآخر عن حقيقة المهمة التي نذر غاستون نفسه لها.

بدأ تاكاموري بعد أن افترق عن إيجيما بالسير نحو المحطة ليلحق بقطاره كما هو دأبه دائماً. لكن خاطراً دعاه فجأة وهو في منتصف الطريق إلى المحطة إلى العودة على عقبيه. كانت لديه رغبة قوية إلى رؤية وجه تشوتي الذي لم يره منذ وقت طويل.

كان ذلك هو الشارع ذاته الذي لمح فيه نابليون وتعقبه في شيبويا. ربما بحث الكلب هنا وهناك مسعوراً عن غاستون أيضاً. لكن نابليون ميتٌ الآن.

لمح وهو يخرج من نفق سكة القطار صورة تشوتي في الضوء الداكن الصادر عن مصباحه. كان الرجل ينحني ليتفحص يدي امرأة جاءت تستشيره. بدت مثل أم أعيتها صعوبات الحياة. تلف ضماداً على رقبتها وتحمل طفلاً تربطه إلى ظهرها. فكر تاكاموري أن هنالك أعداداً لا حصر لها من الأخريات مثلها في هذه الأمسية ممن يكابدن ألم الحياة وأحزانها.

اختبأ تاكاموري خلف عمود التلغراف وانتظر أن يفرغ تشوتي من عمله. كان غاستون قد أخفى نفسه ذات مرة خلف هذا العمود. همس لنفسه بذلك وهو يركز نظره على العرّاف العجوز.

ما زال غاستون حياً. سيعود يوماً يجر قدميه مرة أخرى من تلك البلاد اللازوردية البعيدة ليحمل على ظهره من جديد آلام أناس مثل هؤلاء.



تمت

يستقبل تاكاموري وأخته تومويي "الأبله الرائع" غاستون بونابرت القادم من باريس إلى طوكيو ما بعد الحرب العالمية الثانية. وينطلق شوساكو أندو، الروائي الياباني المعروف، إلى الغوص بمناسبة هذه الزيارة الطريفة في أعماق الحياة اليابانية الفريدة بعد معاناة طويلة مع الاستبداد والحرب والاحتلال. هنالك رغبة لدى اليابانيين في بداية جديدة تخذلها طبقاتٌ عميقةٌ من الفساد والكراهية والثأر. رواية شيقة ومتقنة، عميقة وصريحة في طرح أسئلة عالم ما بعد الحرب. تراوح فيها البلاهة بين الملهاة والمأساة، ويعيد فيها أندو كتابة أبله دوستيوفسكي بتنويعات حديثة. علّق على صدورها الروائي البريطاني غراهام غرين بالقول "أندو كما أرى هو واحدٌ من أفضل الروائيين الأحياء. وروايته "الأبله الرائع" دليلٌ قصصي مكتمل لطوكيو وللتجربة اليابانية."

شوساكو أندو (١٩٢٣ - ١٩٩٦) روائي ياباني بارز تناول في أعماله الروائية أسئلة العلاقة بين الشرق والغرب والحياة اليابانية الحديثة في إطار رؤية مسيحية كاثوليكية. اختير عضواً في الأكاديمية اليابانية عام ١٩٨١ ورئيساً لنادي القلم في اليابان عام ١٩٨٨. صدر له العديد من الأعمال المهمة، وقد تُرجم بعضها إلى العربية مثل "البحر والسم" و "الصمت" (ت: كامل يوسف حسين) و "فضيحة" (ت: فلاح رحيم).

منشورات الجمل

